

مَجْلِسُ
مَعَالِمِ الْإِسْلَامِ

مفهوم التدبر، وفضله، وحكمه
وثمراته، ومعيناته

تأليف

الأستاذ الدكتور

عبد الله الزبير عبد الرحمن

مفالة عنه

دار الإفتاء
الإسلام

مَعَ الْمُرْتَدِّينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[ص: ٢٩]..

وقال تعالى

﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]..

وقال تعالى

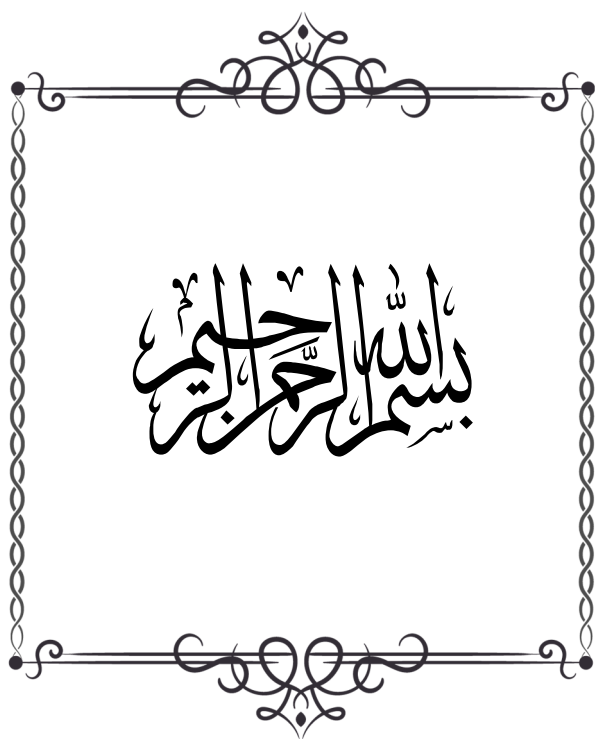
﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

[محمد: ٢٤]..

وقال تعالى

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

[المؤمنون: ٦٨]..



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً
لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن
لهم أجراً حسناً، ما كثر فيه أبداً. الحمد لله الذي أنزل القرآن مباركاً
ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب، وصلى الله وسلم وبارك على من أنزل
إليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين، ليحق
بكلماته الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون، اللهم فصل وسلم
وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين يذكرون ما يُتلى في بيوتهم
من آيات الله والحكمة، وعلى أصحابه الغر الميامين الذين تعلموا الإيمان
والقرآن فازدادوا به إيماناً، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فالقرآن هو حبلُ الله الممدود، وعهده المعهود، وظلُّه العميم،
وصراطه المستقيم، وحجته الكبرى، ومحجته الواضحة، هو الواضح
سبيله، الراشد دليله، الذي من استضاء بمصايحه أبصر ونجا، ومن
أعرض عنها زلّ وهوى، فضائل القرآن، لا تستقصى في ألف قرآن. حجة
الله وعهده، ووعيده ووعدته، به يعلم الله الجاهل، ويعمل العاقل، ويتنبه
الساهي، ويتذكر اللاهي، بشير الثواب، ونذير العقاب، وشفاء الصدور،

وجلاء الأمور. من فضائله أنه يقرأ دائماً ، ويكتب ويمل فلا يمل . ما أهون الدنيا على من جعل القرآن إمامه ، وتصور الموت أمامه . طوبى لمن جعل القرآن مصباح قلبه ، ومفتاح لبه . من خلق القرآن حفظ ترتيبه ، وحسن ترتيله ^(١) .

فتدبر القرآن هو غاية التنزيل، وحكمة الترتيل، ومحقق البركة بتلاوة الكتاب الجليل، والمحقق للاتباع والاتّعاظ، والمحصل للتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

ولمّا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوّل المسلمين في التلاوة، وإمام المرتّلين في التدبر، وسيد العلماء في الفهم وتحصيل مراد الربّ جلّ وعلا من كلامه؛ كان خلقه القرآن كما عايشه معه أصحابه رضوان الله عليهم، وتشبعوا به من صحبته ورفقته الكريمة، وكما وصفته سيّدتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، حين سألها سعد بن هشام بن عامر قائلاً: « يا أم المؤمنين! أخبريني بخلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ». فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كان خلقه القرآن، أمّا تقرأ القرآن؟ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] » ^(٢).

ولقد قصدت بهذه المباحثة والمدارسة لهذا العلم العظيم وهذا الفن

(١) مقتبس من: سحر البلاغة وسر البراعة، لأبي منصور الثعالبي، ص ١١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ٢٤٦٥، وقال الأرنؤوط ج ٦ ص ٩١: "حديث صحيح".

الجليل!! أن أُعْلِيَّ الهَمَّةَ في التعرّف على قضايا التدبّر ومسائله، وأن أشغل همّي في مدارس مباحث علم التدبّر استمتاعاً وانتفاعاً، وأدير رحي عقلي في التفكّر والتفهم للخطاب الإلهي لعباده كافه وللمؤمنين منهم خاصة وللعالمين فيهم على الوجه الأخص، لأستفز بصيرتي لاجتلاء درر المعاني بغوّاصات الفهم من أعماق النصوص، وأجلّي بصري لاجتناء حِكَم التنزيل الماثورة في رياض الكتاب الكريم.

وقد بدأتُ أوائل النَّظَر ومبادئ التَّطَلُّع، ودارَ رحي التعقّل أُولَى دوراته، وبدأتُ الهَمَّةَ في الاعتلاء، والبصيرة في الاجتلاء، والبصر في الاجتناء، بهذه الفصول والمباحث التي هي:

● فصل أول: في حقيقة التدبّر ومفهومه، واشتمل على خمسة

مباحث:

الأول: في حقيقة التدبّر في الأصل اللغوي..

والثاني: في مفهوم التدبّر في الاصطلاح اللقبي..

والثالث: التدبّر في القرآن الكريم..

والرابع: في تمييز التدبّر عن مشابهه..

والخامس: في مجامع التدبّر..

● وفصل ثانٍ: في مقام التدبّر وحكمه، واشتمل على مبحثين:

الأول: في مقام التدبّر وفضله..

والثاني: في أهمية التدبّر والحاجة إليه..

والثالث: في حكم التدبّر..

● **وفصلٌ ثالث:** في ثمرات التدبر وفوائده، وفقراته قامت على:

- ما قيل في فوائده وثمراته..

- وثمرات من الفوائد والثمرات..

● **وفصلٌ رابع:** في معينات التدبّر وأدواته، وقام على مبحثين:

الأول: في معينات التدبر، وقد أتى بأهم المعينات على التدبر المحققة للاستمتاع بتلاوته وبتفهمه والنظر فيه، والموصلة إلى فهم كلام الله من ترتيله، وهي أربعة معينات:

الأول: إحسان الاستماع..

والثاني: التغني وتحسين القراءة..

والثالث: الترتيل..

والمعين الرابع: الترداد والتكرار..

والمبحث الثاني: في أدوات التدبّر، وهي خمس أدوات ، اتلفههم،

والتفكّر، والتذكّر، والتأمّل، والاعتبار.

هذا؛ والله تعالى أسأله أن يتقبله ، وأن يجعله مقبولاّ منتفعًا به، فيا

ليتنا كنا نافعين لأمتنا، حافظين لملتنا، خادمين لشرعنا وكتابنا ، ولسنة نبينا

صلّى الله عليه وسلم..

اللهم اجعل عملنا كله صالحاً..

واجعله لوجهك خالصاً..

ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

راجي عفو الله ومغفرته

أ.د. عبد الله الزبير عبد الرحمن



الفصل الأول

حقيقة التَّجَبُّر ومفهومه

مدخلٌ:

في هذا الفصل أَسْعَى بتوفيق الله وفتحهِ إلى بيان أمر التدبّر، وتَأْصِيل حقيقته، من أصوله اللغوية، ودلالاته القرآنية، وما فهمه أهل التفسير من مراده، في موارده وسياقاته في الآيات التي وردت لفظتها، بدءاً بمعناه اللغوي، ومروراً بمعناه الاصطلاحي، ثم ما يلزم من بيان حقيقته ومراده. وحقائق المصطلحات العلمية إنما تُدْرِك بالوقوف على معانيها الوضعية والاصطلاحية ومواردها النصّية في الوحين الكتاب والسنة وغير ذلك مما يبيّن حقيقة المصطلح ومعناه، ولذلك ههنا؛ لا بدّ — وعلى عادة أهل العلم — تعريف التدبّر في أصل اللغة وفي اصطلاح أهل الفنّ، والتميز بينه وبين ما يشابهه من مصطلحات.

فيكون بحثنا عن حقيقة التدبّر من خلال المباحث الخمسة الآتية:

المبحث الأول: في حقيقة التدبّر في الأصل اللغوي..

والمبحث الثاني: في مفهوم التدبّر في الاصطلاح اللقبي..

والمبحث الثالث: التدبّر في القرآن الكريم..

والمبحث الرابع: في تمييز التدبّر عن مشابهه..

والمبحث الخامس: في مجامع التدبّر..

المبحث الأول

حقيقة التدبُّر في الأصل اللغوي

التدبُّر في أصل الوضع العربي من دَبَّر يُدَبِّر تدبِّيراً وتَدَبَّراً، من دَبَّر الأمر ودَبَّرته، أي عاقبته وآخره.

جاء في لسان العرب: « الدُّبْرَةُ العاقبة، ودبر الأمر وتدبَّره: نظر في عاقبته، واستدبره: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره، وعرف الأمر تدبُّراً: أي بآخره. قال جرير:

ولا تتقون الشرَّ حتى يصيبكم

ولا تعرفون الأمر إلا تدبُّراً

والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبُّر: التفكُّر فيه»^(١).

وفي تاج العروس: « التَّدْبُرُ هو: التَّفَكُّرُ بِتَحْصِيلِ الْمَعْرِفَتَيْنِ لِتَحْصِيلِ مَعْرِفَةٍ ثَالِثَةٍ »^(٢).

وجاء في مقاييس اللغة: « الدال والباء والراء أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قبله، وتشدُّ عنه كلمات يسيرة نذكرها فمعظم الباب أن الدبر خلاف القبل... والتدبير أن يدبَّر

(١) لسان العرب ج٤ ص ٢٧٣.

(٢) تاج العروس، للزبيدي، ج ١١ ص ٢٦٥.

الإنسان أمره وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره وهو دبره^(١).

وعلى هذا؛ فقد وضعت مادة التدبر بمشتقاتها وتصاريحها المختلفة للدلالة على عشرة معانٍ، هي:

١— العقبُ والمؤخرة: فدبر كل شيء عقبه ومؤخره، ومنه دبر البيت مؤخره وزاويته.

٢— خلف الشيء، فدبر الشيء: خلفه، والعرب تقول: جعل فلانٌ قولك دبر أذنه، أي خلف أذنه.

٣— آخر الشيء، ومنه دبر الشهر، أي آخره، يقال في المثل: جئتكَ دبر الشهر وفي دبره وعلى دبره. ومنه أدبار السجود كما في التنزيل ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحُهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]. وأواخر الصلوات، ومنه في المحكم ﴿فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥] أي استوصل آخرهم.

٤— الأصل: وهو دابره، ومنه قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. قال الأصمعي وغيره: "الداير الأصل، أي أذهب الله أصله، وأنشد لوعلة الجرمي:

فِدَى لِكَمَا رَجَلِيَّ أُمِّي وَخَالْتِي

غَدَاةَ الْكُلابِ، إِذْ تُحَزُّ الدَّوَابِرُ

أي: يُقتل القوم فتذهب أصولهم ولا يبقى لهم أثر.

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج ٢: ص ٣٢٤

٥- توألي الأمور وتوليها، ومنه إدار النجوم: أي توأليها، كما في قوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور : ٤٩]. ويقولون: أدبر إداراً، أي ولى، وأدبر أمر القوم: ولى لفساد، وهو قوله تعالى ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥].

٦- المتابعة: وهو دبره يدبره دُبوراً: تبعه من ورائه. ومنه على قراءة ابن عباس وابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ﴾^(١). أي تبع النهار قبله.

٧- التحديث والرواية: ومنه دبّرت الحديث عن فلان، أي حدثت به عنه بعد موته، ويدبّر حديث فلان أي حدثت به عن غيري. وفي ذلك خبر هسان بن الكاهل رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «دخلت المسجد الجامع بالبصرة فجلست إلى شيخ أبيض الرأس واللحية [هو عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] فقال: حدثني معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (ما من نفسٍ تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يرجع ذاك إلى قلب موقن؛ إلا غفر الله لها) قلت له: أنت سمعته من معاذ؟ فكان القوم عنفوني، قال: لا تعنفوه ولا تؤنبوه دعوه، نعم، أنا سمعت ذاك من معاذ يدبره عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢). فقله: يدبره، يرويه ويحدث به.

(١) راجع: الدر المنثور للسيوطي، ج ١٥ ص ٨٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم ٢٢٠٥١، ج ٥ ص ٢٢٩، وقال شعيب الأرناؤوط:

٨ — النظر في عواقب الأمور: ومنه دَبَّرَ الأمر وتَدَبَّرَه؛ نظر في عاقبته، واستدبره: رأى في عاقبته ما لم يَر في صدره.

والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته.

٩- التفكّر: ومنه تدبّر في الأمر؛ تفكّر فيه.

١٠- إمعان النظر: ومنه: الرأي الدَّبريُّ: الذي يُمعَنُ النظر فيه^(١).

ففي أصل اللغة يأخذ التدبّر من كلّ هذه المعاني:

✓ فيكون بمعنى التفكّر الناظر إلى عاقبة الأمور ونتائجها وآثار التصرفات والأقوال، بما يؤول إليه الأمر، لإحكام استخراج المعنى المقصود من الأقوال والأفعال.

✓ ويكون بمعنى المتابعة بفكر ومعرفة ونظر إلى ما يؤول إليه الأمر.

✓ ويكون بمعنى إمعان النظر وإجالاته في أيّ أمرٍ يحتاج إلى نظر وتفكّر.

فيدور معنى التدبّر في أصل الوضع إذن: حول التفكّر، وإمعان النظر، فيما يؤول إليه الأمر، ولكن بزيادة التعمّق، ليكون بمعنى التفكّر العميق أو المتعمّق، وبمعنى النظر المحيط أو المحقّق.

حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

(١) راجع كل هذا في المعاجم السابقة، خاصة لسان العرب ج ٤ ص ٢٦٨ - ٢٧٥.

مع أنَّ الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ عَرَّفَ التدبُّرَ فجعله خاصًّا بالنظر وقريبًا من التفكير ، فقال: «التدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريبٌ من التفكير»^(١).

فخلاصة القول في معنى التدبُّر في أصل اللغة: العقبُ والمؤخِّرة، وخلف الشيء، وآخر الشيء، والأصل، وتوالي الأمور وتوليَّها، والمتابعة، والتحديث والرواية، والنَّظر في عواقب الأمور، والتفكُّر، وإمعان النَّظر.



(١) كتاب التعريفات، للجرجاني، ص ٧٦ برقم ٣٤٢.

المبحث الثاني

التدبر في الاصطلاح اللقيبي

والتدبر ككل عِلْمٌ وفنٌّ عَرَفَهُ العلماء وأقروه، بل أمر به القرآن وطالب به من يتلوه مؤمناً به وبمصدره وبمُنْزَلِهِ ومُوحِيهِ؛ له معنيان: معنى عام يستوعب مدلول التدبر عموماً ويستغرق مراداته واستعمالاته، ومعنى خاص يعبر عن مراد العلماء منه في خصوص بابهِ وعلمهِ.

وعلى هذا فالتدبر في الاصطلاح اللقيبي، «أي كلقب لفنٍّ» تعريفه يحتاج إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في المعنى العام للتدبر:

والمطلب الثاني: في المعنى الخاص للتدبر:

والمطلب الثالث: في التعريف المختار:

المطلب الأول

التدبر في معناه العام

غالب المصطلحات تُنْقَلُ من معناها العام إلى المعنى الخاص، غير أنّ التدبر كان على خلاف تلك العلوم والمصطلحات، إذ إنه نُقِلَ من معناه العام إلى المعنى الأعم.

وهذا ما نبّه إليه الإمامان النسفي والقاسمي رَحِمَهُمَا اللَّهُ تعالى.

قال النسفي رَحِمَهُ اللهُ: « التدبّر التأمل والنظر في أدبار الأمر وما يؤول إليه في عاقبته. ثم استعمل في كل تأمل »^(١).

وقال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: « وأصل التدبّر التأمل والنظر في أدبار الأمر وعواقبه خاصة ، ثم استعمل في كل تأمل ، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعقابه »^(٢).

فاستعماله في كل تأمل هو معناه الأعم.

أمّا معناه العام فهو ما ذكرناه من كون التدبّر هو: التأمل والنظر في أدبار الأمر وعاقبته وما يؤول إليه.

وعلى هذا؛ فالتدبّر في معناه العام: هو النظر والتأمل في أدبار الأمور وما يؤول إليه في عاقبته، سواءً أكان هذا التأمل والنظر تأملاً في الأمور والأشياء، أم كان في الأفعال، أم كان في الأقوال.

وهذا الذي نجده في استعمال الأئمة وعبارات سادات الأمم رحمهم الله تعالى.

فمن ذلك:

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي، ج ١ ص ٢٤١.

(٢) محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي، في تفسير قوله تعالى (أفلا يتدبّرون

القرآن) النساء ٨٢.

١- ما رواه سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ عَنْ ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنه قال: «حدثني أَبِي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: (لَمَّا لقي موسى الخضر عليهما السلام جاء طيرٌ فَأَلْقَى منقارة في الماء. فقال الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: « تدبّر ما يقول هذا الطير! ». قال: « وما يقول؟ » قال: يقول: « ما عَلِمْتُك وعَلِمُ موسى في عِلْمِ الله إِلَّا كما أَخَذ منقاري من الماء »^(١).

قلت: فهذا كلام طيرٍ وليس كلام إنسان، ومع ذلك طلب الخضر من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تدبّره، فليس هو كلام الباري في الوحي، ومع ذلك دخله التدبّر، فهنا كان التدبّر هو التفهّم لكلّ قولٍ لتحصيل غاية منتهى الكلام ومراده الحقّ وإنّ تجاوز اللغة واللفظ والعبارة المعهودة من البشر، وإنّ كان الكلام من غير متكلّم في العادة.

٢- ومن التدبّر بمعناه العام تدبّر الأمر لا الكلام:

زينت بيتك يا هذا وشحتته ولعل غيرك صاحب البيت
والمرء مرتهن بسوف وليتني وهلاكه من سوف والليت
من كانت الدنيا تساييره به فكأنّه قد حلّ بالموت

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٣٣٩٤، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/٤٠٠) على شرط البخاري ومسلم.

للهِ دُرٌّ فَتَى تَدَبَّرَ أَمْرَهُ فَعَدَا وَرَاحَ مَبَادِرَ الْفَوْتِ^(١).

ومنه: قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « اتَّوَا الْأَمْرَ مِنْ تَدَبَّرَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ إِمْعَةً، قَالُوا: وَمَا الْإِمْعَةُ ؟ قَالَ: «الَّذِي يَجْرِي بِكُلِّ رِيحٍ»^(٢).

٣- ومن التدبُّر بإطلاقه العام، تدبُّر المعاني الشرعية، كما جاء من كلام أبي عبد الله المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «.. ناقض من جعل طاعةً إيماناً وطاعةً لا إيمان، ومن تدبَّر الإيمان علم أنه لا غاية له وإن كان المفترض منه له غاية..»^(٣).

فاستعمل التدبُّر في فهم الإيمان وغايته، والإيمان معنى شرعي وقضية عقيدية، فكان استعمال التدبُّر هنا بمعناه العام الذي يتجاوز تدبُّر الكلام عموماً أو كلام الباري جلّ وعلا على خصوصه.

٤- ومن التدبُّر بالمعنى العام أن يكون في القراءة عامة، كما روي عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: « لا خير في عبادة لا علم فيها ولا علم لا فهم فيه ولا قراءة لا تدبر فيها»^(٤). هذا؛ سواء كانت القراءة للقرآن أو

(١) راجع: قصر الأمل، ص ٢١١، والمتمنين ص ٤٦، كلاهما لابن أبي الدنيا، والأبيات منسوبة لمحمود الورّاق.

(٢) الزهد لأبي داود ج ١ ص ١٤٥، برقم ١٣٣.

(٣) راجع: تعظيم قدر الصلاة، للمروزي، ص ٢٤٩. وهذا النقل يستحسن الرجوع فيه للنص الكامل حتى يُفهم مراده، وقد اختصرت على ما يفيد ههنا خشية الإطالة.

(٤) أخرجه الدارمي في السنن برقم ٢٩٧، ٢٩٨، وفيه ليت بن أبي سليم، وهو ممن يكتب

الحديث أو القراءة في كتب الفقه أو التفسير أو أية قراءة.

وكما جعل التدبر لعموم القراءة؛ كذلك جعل إطلاق بعضهم لعموم العلم، وقد أنشد ابن الأعرابي:

وَسَلِ الْفَقِيهَ تَكُنْ فَقِيهًا مِثْلَهُ مَنْ يَسْعَ فِي عِلْمٍ بِفَقْهِ يَمِهرِ

وتدبر العلم الذي تعني به لا خير في علمٍ بغير تدبر^(١).

٥— ومن التدبر بمعناه العام ما روي عن إياس بن معاوية رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ عَاقِلٍ إِلَّا وَهُوَ يَعْرِفُ عَيْبَ نَفْسِهِ». قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: فَمَا عَيْبُكَ يَا أَبَا وَاثِلَةَ؟ قَالَ: «الْإِكْثَارُ». قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «أَمْ وَاللَّهِ مَعَ ذَلِكَ، وَإِنْ أَكْثَرْتُ؛ مَا تُدَبِّرُ قَوْلُ عَاقِلٍ إِلَّا وَجِدَ فِيهِ بَعْضُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ»^(٢). فأطلق التدبر في كل قول غير قول الله تعالى ولا قول رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

حديثه، كما قال معاوية بن الح، وكما قال الدارقطني: صاحب سنة يخرج حديثه، وأحمد بن حنبل: مضطرب الحديث ولكن حدث عنه الناس، ويحيى بن معين حين سأله أبو داود: ليس به بأس، وقد وثقه الهيثمي في مجمع الزوائد فقال: ثقة ولكنه مدلس، ولخص ذلك كله الذهبي في السير أنه يروى حديثه في الشواهد والاعتبارات وفي الرغائب والفضائل. راجع: سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ١٨٠ - ١٨٤، تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس برقم (١٦٨) ١٦. وقد أخرج هذا الخبر الآجري في أخلاق العلماء برقم ٤٥ ص ٥٥ بغير طريق ليث بن أبي سليم. وكذلك ابن بشران في أماليه برقم ٨٨٢ ج ٢ ص ٤٤٠، بغير طريق ابن أبي سليم فتأيدت الروايات وتعاضدت.

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ج ١ ص ١٨١.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم ٤٣٦٨.

وهذا من الإطلاق العام للتدبر.

وهذا القدر كافٍ للتعريف بالتدبر بمعناه وإطلاقه العام.

المطلب الثاني

التدبر في معناه الخاص

أما التدبر في معناه الخاص، فهو الذي عرّفه العلماء وتكلموا عن معناه في اصطلاحهم؛ فنجد لأهل العلم عباراتٍ تبين معنى التدبر، تتلاقى في مدلولها، وإن تفرقت ألفاظهم وكلماتهم، وكلها تجتمع عند النظر، والتأمل، واعتبار مآل الأمور، وعواقبها.

وإني ذاكرٌ بعض تعريفاتهم^(١):

١— يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك».

(١) راجع: تفسير السعدي، ص ١٨٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ٥ ص ٢٩٠، وفتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ١٨٠ وج ٥ ص ١٤٤، وتفسير المنار لرشيد رضا، ج ٥ ص ٢٣٣، والمححر الوجيز لابن عطية ج ٢ ص ١٦١، والتفسير الكبير للرازي ج ١٠ ص ١٥٠، وتفسير النسفي ج ١ ص ٢٤١، وتفسير القاسمي محاسن التأويل، في تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، والتحريير والتنوير لابن عاشور ج ٤ ص ٢٠٠،

٢- وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: « تفهمه.. والتفكر فيه وفي معانيه »^(١).

وقد أخذ هذا التعريف من أصل التدبّر اللغوي. « تدبّرت الشيء فكّرت في عاقبته. وفي الحديث: " لا تدابروا " »^(٢) أي لا يولي بعضكم بعضاً دبره. وأدبر القوم: مضى أمرهم إلى آخره. والتدبير أن يدبّر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته ».

٣- وقال رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ في المنار: « التدبّر: هو النظر في إدبار الأمور وعواقبها، وتدبّر الكلام هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له ».

٤- وعند الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ هو التأمل والتفكر. قال رحمه الله: « فلا يتدبّرونه. يقال تدبّرت الشيء: تفكرت في عاقبته وتأملتته، ثم استعمل في كل تأمل، والتدبير: أن يدبّر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته ». والتدبّر عنده « لا يتصوّر بدون الوقوف على المعنى ».

٥- وقال النسفي رَحِمَهُ اللهُ: « التدبّر: التأمل والنظر في أدبار الأمر وما

(١) ذكر معنى التفهم في آية محمد ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد:

٢٤] وذكر البقية في آية النساء ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، راجع تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٩٠، و

ج ١٦ ص ٢٤٦.

(٢) البخاري برقم ٦٠٦٤، ٦٠٦٦، ومسلم برقم ٦٦٩٠، و٦٧٠١، والموطأ برقم

يؤول إليه في عاقبته. ثم استعمل في كل تأمل. والتفكر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل».

٦— وقال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: « وأصل التدبّر التأمل والنظر في أدبار الأمر وعواقبه خاصة ، ثم استعمل في كل تأمل ، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعقابه».

٧— وعند ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: « التدبّر : النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، بالنظر والاستدلال ومعرفة مواقع الحجة».

٨ — وقال الرازي رَحِمَهُ اللهُ: « التدبير والتدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها ، ومنه قوله : إلام تدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها ، ويقال في فصيح الكلام : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، أي لو عرفت في صدر أمري ما عرفت من عاقبته».

٩ — وعند الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: « والتدبّر مشتق من الدبر، أي الظهر، اشتقوا من الدبر فعلاً، فقالوا: تدبّر إذا نظر في دبر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة. والتدبر يتعدى إلى المتأمل فيه بنفسه، يقال: تدبّر الأمر. فمعنى ﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتأملون دلالته، وذلك يحتمل معنيين، أحدهما: أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفصيله؛ وثانيهما: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق. وسياق هذه الآيات يرجح حمل التدبّر هنا على

المعنى الأول، أي لو تأملوا وتدبروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام. وكلا المعنيين صالح بحالهم، إلا أن المعنى الأول أشد ارتباطاً بما حكى عنهم من أحوالهم».

١٠— وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ في تعريف التدبر: « التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب»^(١).

١١— وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «التدبر هو التفكير بتحصيل المعرفتين لتحصيل معرفة ثالثة»^(٢).

١٢— وقال الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رَحِمَهُ اللهُ: « التدبر هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة»^(٣).

١٣— وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: « تدبر آيات الله اتباعها »^(٤).
فكلها — إن لاحظت — متلاقية في معنى التأمل والتفهم والتفكير في الآيات والدلالات لتحصيل ما تصير إليه العاقبة. وإن كان الجرجاني والنسفي جعلاً التدبر من أعمال القلوب، وهو صحيح فالتفكير إنما يكون

(١) التعريفات، للشريف الجرجاني، ص ٧٦ بالرقم ٣٤٢.

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج ١ ص ٥٢٣.

(٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ١٠.

(٤) تفسير القرطبي، ج ١٥ ص ١٩٢.

في القلب، ولذلك كل من جعل التدبّر في التفكّر غير غائب عنده مكان هذا التفكّر وآلته، وباين تعريف الحسن البصري للتدبّر التعاريف حيث جعل التدبّر في الاتباع كما رأيت.

ولقد أحسن الشيخان رشيد رضا وحبنة الميداني رَحِمَهُمَا اللَّهُ حين زادا بياناً لمراد التدبّر وما يهدف إليه المتدبر به، فقال رشيد رضا: «وتدبّر الكلام هو النظر والتفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له». وقال الميداني: «هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة». فجعل رشيد رضا من صميم التدبّر: النظر والتفكّر في غايات الكلام ومقاصده.. وجعل الميداني ثمرة التدبّر: الوصول إلى دلالات الكلام ومراميه البعيدة.

والتفكّر في الغايات والوصول إلى المرامي المقصودة من كلام الباري جل وعلا هو من حقائق التدبّر ومراده.

المطلب الثالث

التعريف المختار للتدبّر

وبالوقوف على عبارات العلماء في تعريفهم للتدبّر للتعبير عن مراده في معناه اللقبى للعلم الخاصّ بفهم كلام الباري واستخلاص المعاني والعبر والحكم والمقاصد والغايات، وما تُرتّب هذه المعاني والعبر من

آثار في السلوك والمشاعر والوجدان، وما تفضي إليه من التأثير النفسي الحامل على التغير إلى وفق مراد الله عز وجل من عباده الصالحين والدخول في زمريهم؛ وباستصحاب مدلول ما نقلناه من تعاريفهم، وما حرّراه من التأصيل اللغوي لمادة التدبر عند أهل اللغة، والوقوف على أصولها في الوضع العربي؛ نجد أنه يمكننا اختيار ما يمكن أن يكون معنىً للتدبر اصطلاحاً هو أقرب ما يعبر عن حقيقته اللقبية. فيقال إنه:

«إنعامُ النظر في كلام الباري سُبحَانَهُ وتَعَالَى لتحصيل المعاني والعبر المرصودة أَدبار النصوص والظواهر وما تقتضيها، بما لا يخرج عن معهود الاستنباط».

وأنعم: مقلوب أمعن، والإنعام؛ المبالغة في الشيء والزيادة فيه، وأنعم في الأمر بالغ، ومنه قول الشاعر:

سَمِينُ الصَّوَاحِي لَمْ تُورِّقْهُ لَيْلَةٌ

وَأَنْعَمَ أَبْكَارُ الْهُمُومِ وَعُونُهَا

وَأَنْعَمَ؛ أَي: زَادَ.

وقول الشاعر:

(١) والصَّوَاحِي: ما بدَا من جَسَدِهِ. وَأَنْعَمَ؛ أَي: وَزَادَ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ. وَأَبْكَارُ الْهُمُومِ: مَا فَجَّكَ. وَعُونُهَا: مَا كَانَ هَمًّا بَعْدَ هَمٍّ.

فوردتُ وَالشَّمْسُ لَمَّا تُنْعِمُ

أَنْ تَبْلُغَ الْجُدَّةَ فَوْقَ الْمَنْجَمِ

أَي لَمَّا تُبَالِغْ فِي الطَّلُوعِ.

وقولهم: أنعم خياطته: إذا لم يترك فيه فتقاً ولا خللاً.

وقولهم: أنعم العجين: إذا بالغ في دقّه حتى صار ناعماً.

ولهذا قولهم: أنعم النّظر في الشّيء، إذا أطال الفِكرَةَ فيه ^(١).

فإنعام النظر بالتدقيق والإعادة والتكرار في آيات التنزيل، مع إجاله الفكر فيها بالتفكر المتعمّق والتأمل المتأنّي؛ موحٍ ومُلهِمٌ لكمالات المعاني والحكم والأحكام، فلا يفوته معنى ولا تغيب عنه حكمة.

✓ فالتدبّر لا يتحقق بأوّلِيّات النظر، بل لا بدّ فيه من أن يكون المتدبّر قد أمعن النّظر وأنعمه وأجال الفكر في النّصّ القرآني حتى يحصّل المعرفة المطلوبة، ولذلك كان التدبّر على وزن تفعل الذي يقتضي التكرار والإعادة والإطالة.

وإنما استعملنا «إنعام النظر» دون الإمعان أو التكرار أو التدقيق أو ما

(١) راجع: تاج العروس ج ٣٣ ص ٥١٢، ولسان العرب، ١٢ ص ٥٦٨، أساس البلاغة، ج ١

ص ٤٧٥، إكمال الإعلام بتبليث الكلام، ج ٢ ص ٦٩٢، المحكم والمحيط الأعظم،

ج ١٠ ص ٣٥٣، المخصص — لابن سيده، ج ٤ ص ٣٨٦، المعجم الوسيط، ج ١ ص ٢٩١، ج ٢

ص ٩٣٥.

في معنى ذلك؛ لأنَّه الأنسب والأليق بحال المتدبِّر، فإنَّ التدبُّر توفيق من الله، وإنَّ المتدبِّر في حال تدقيقه النظر وإجالته الفكر في كلام ربه جَلَّ جَلَالُهُ لا شك ولا ريب يكون في أنعم أحواله، فيمتلئ قلبه وإحساسه ووجدانه أنَّه مغمورٌ بالنعمة العظمى، مغمورٌ بتوفيق الله وتسديده وتأييده وإكرامه وإعطائه وفتحها، فهل من منعمٍ أعظم منه إلا من زاده ربه توفيقاً أكثر وتسديداً أكبر؟!؟!!

وفي هذا المعنى أنقل لكم قول الإمام الزركشي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنه ينبغي لَمُح موقع النِّعم على من علَّمه الله تعالى القرآن العظيم أو بعضه، بكونه أعظم المعجزات، لبقائه بقاء دعوة الإسلام، ولكونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين، فالْحُجَّة بالقرآن العظيم قائمة على كل عصر وزمان، لأنَّه كلام رب العالمين، وأشرف كتبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليَر مَنْ عنده القرآن أن الله أنعم عليه نعمة عظيمة وليستحضر من أفعاله أن يكون القرآن حجة له لا عليه»^(١).

✓ وليس مقصود التدبُّر مجرد استنباط الحكم الشرعي، لأنَّ الحكم الشرعي قد يظهر للمستدل من غير تدبُّرٍ كامل، بل بمجرد النظر أحياناً، لأنَّ ظواهر النصوص هي موارد الأحكام غالباً، ولذلك كان الأصل وجوب الأخذ بالظاهر في عرف أهل الأصول والفقه!!

(١) البرهان في علوم القرآن، آداب تلاوته وكيفيتها، ج ١ ص ٤٤٩.

أما التدبّر؛ فإنَّ المقصود منه تحصيل المعاني والعبر والحكم والمقاصد التي راعاها الشارع الحكيم في قوله وأمره وحكمه وإرشاده وتوجيهه بالوصول إلى مرامي الكلام المقدّس وغاياته.

✓ ولا يُحَصِّل ذلك دائماً إلا بالغوص في أعماق النصوص وطلبها والسعي وراء إلى أدبار الظواهر، وعبور مبادرات المعاني من الألفاظ إلى مراميها العليّة!! وطريق ذلك: هو تجاوز دلالة المطابقة إلى دلالة التضمن ثمّ تعديها إلى دلالة الالتزام.

✓ ولأنَّ الغوص في أعماق النصوص والظواهر يدّعيه كثيرون، وأكثرهم يفسد ولا يصلح، ويضل ولا يهتدي؛ شرطنا للتدبّر شرطاً مهمّاً، وهو قيد التحصيل بأن لا يخرج عن المعهود لدى أهل الاستنباط من مسالك الاستنباط، والمعروف عند المستدلّين أنها من طرائق الاستدلال.

ولولا ذلك؛ لادّعى من هبّ ودبّ ممن سفل كعبه في العلم وخوى قلبه من تقى أنّه قد تدبّر، فأضلّ وأضرّ، يفتح باب التلاعب في أي الكتاب، والتهاون في صون القرآن، فكان واجباً أن يُشترط ذلك سداً لذرائع تأويل الجاهلين، ودفعاً لانتحال المبطلين، ونفيّاً لدعاوى تدبّر المتأوّلين المبتدعين لكلام ربّ العالمين جلّ وعلا.



المبحث الثالث

التدبر في القرآن الكريم

ولمّا كان التدبر بمعناه الخاص واللقبي هو ما اختصّ بتفهّم كلام الباري والتفكر فيه دون غيره، كان من المناسب أن نعرف في أيّ شيء يكون التدبر في كتاب الله؟ وما هي جهاته ومراتبه؟.

فالكتاب الكريم جعل التدبر في ثلاث جهات: أولاها في تدبر القول، والثانية في تدبر الآيات، والثالثة في تدبر القرآن.

فالجبهة الأولى: وهي تدبر القول:

والذي جاء في قوله عزّ وجلّ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون : ٦٨].

وكثيرٌ من المفسرين ذهبوا إلى أنّ القول ههنا مرادٌ به القرآن، ولكنه مرادٌ به القول من القرآن، فهو ليس القرآن، وإنما هو من القرآن، ولو تدبّرنا (القول بالتعريف) فتتبعنا موارده في القرآن العظيم؛ لوجدناه وارداً في ثمانية وعشرين موضعاً، في أربعة عشر موضعاً منسوباً إلى الله، وفي أربعة عشر موضعاً إلى غير الله، حتى في قوله تعالى ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج : ٢٤]. فالطيب من القول، قيل: هو كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وقيل هو قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

صَدَقْنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴿[الزمر : ٧٤].

وقيل: هو كلمة الإخلاص والأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله^(١). فكلها كما ترى من قول الناس لا ربّ الناس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقول المنسوب إلى ربّ العزة جلّ وعلا في كتابه العزيز فكله مرادٌ به حكم الله وفصله وقضاؤه في عباده في الدنيا أو الآخرة^(٢)، ليس منه ما يدلّ على إرادته القرآن إلا في موضعين:

الموضع الأول: قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص : ٥١]. فهنا لم يرد به القرآن كله، بل بعض القرآن وأجزائه وأفراده، أو معانيه، والمعنى: متواصلًا بعضه إثر بعض على ما تقتضيه الحكمة التذكيرية والمصلحة الدعوية، ومتتابعًا وعدًا ووعدًا وقصصًا وعبرًا وموعظة ونصيحة، ونحو ذلك أو صالًا وأنواعًا. فهذه من القرآن وليست هي القرآن.

والموضع الثاني: قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

(١) راجع: تفسير ابن جزري، ص ١١٢٨، وتفسير أبي السعود، ج ٤ ص ٤٦٠، وتفسير السعدي، ص ٥٣٦.

(٢) اتلّ في ذلك إن شئت الآيات: ٤٠ من هود، و١٦ من الإسراء، و٢٧ من المؤمنون، و٨٢، ٨٥ من النمل، و٦٣ من القصص، و٧٠، ٧١ من يس، و١٣ من السجدة، و٢٥ من فصلت، و١٨ من الأحقاف، مع آية القصص ٥١، والزمر ١٨، والمؤمنون ٦٨ التي هي محل البحث هنا.

أَحْسَنُهُ ﴿الزمر : ١٨﴾. وقد قيل: يستمعون القول على العموم فيتبعون القرآن لأنه أحسن الكلام . وقيل: هو الذي يستمع حديثاً فيه حسنٌ وقيحٌ فيتحدث بالحسن ويكف عما سواه. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وقد أظهره ابن جزي في تفسيره^(١).

حتى قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل : ٥]، وإن كان ورد مُتَكَرراً ﴿قَوْلًا﴾؛ فليس المراد القرآن كله، لوجهين:

الأول: أن القرآن مذكورٌ في السياق نفسه بلفظه واسمه يُطلب منه صلى الله عليه وسلم ترتيله، فالقرآن إذن مُلْقَى يُرْتَل ويتلى، وهذا القول الثقيل لم يُلَقَ بعد، بل سيلقى عليه، فكان القول الثقيل غير القرآن.

والوجه الثاني: أن هذا القول ثقيلٌ شاقٌّ، بينما القرآن موصوفٌ باليسر في الذكر كله قراءة، واتباعاً، ودعوة، وعملاً، وتعلماً، وتعليماً، وقد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر : ١٧] وقال سبحانه في يسر اتباعه والدعوة إلى مضامينه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم : ٩٧] وقال عز وجل في يسر تدبره والاتعاظ به والعمل بأوامره ونواهيه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان : ٥٨]. فالقول الثقيل ههنا إذن غير القرآن.

(١) تفسير ابن جزي، ص ١٨٣٢.

إذن: القول المنسوب إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في موارده ليس منه ما يقطع به أنه القرآن، وإن كان منه ما يراد به جزءاً أو بعضاً أو فرداً أو جملة منه.

فالقول الذي استنكر الله على الناس عدم تدبرهم واستقبح ذلك منهم؛ في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ فهو إما موعظة قرآنية، أو نصيحة إلهية، أو حكم رباني، أو إرشاد رحمانى، أو قضاء سماوي، مع التدبر والتنبه إلى أسباب ذلك كله، ومقدماته المنتجة له، والسنن الإلهية المرتبطة به.

فتدبر القول؛ يكون بتدبر كلمة أو جملة أو عبارة قرآنية، أقل من القرآن وأقل من آية من القرآن.

والمعنى الجامع للآية: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ كما قال القشيري رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: «يعني أنهم لو أنعموا النظر، وسلطوا على أحوالهم صائب الفكر لاستبصروا في الحال، ولانتفى عن قلوبهم الاستعجاب والإشكال، ولكنهم استوطنوا مركب الكسل، وعرجوا في أوطان التغافل، فتعودوا الجهل، وأيسوا من الاستبصار»^(١).

(١) تفسير القشيري، ج ٥ ص ٢٦٩.

والجهة الثانية: هي تدبر الآيات:

وقد جاء في قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وهي الآيات القرآنية بأنواعها.

فيقع التدبر على الآية الواحدة، أو الآية وما قبلها وما بعدها، أو الآيات المتناسقة المترابطة في معناها ومدلولها.

ويكون التدبر في الآية القرآنية المتلوة المسموعة، والآية المقروءة المحبورة، والآية الممهورة المسطورة، والآية المشهودة المنظورة.

فالمتدبر يسوح بفهمه ويروح بفكره مع أذنه عند سماع آية تُتلى، ومع لسانه عند ترديد آية تُقرأ، ومع قلمه وأنامله عند تسطير آية وتدوينها، ومع نظره حين يجول حول آية كونية أو معجزة خلقية تحكيها الآية وتُصورها.

ومعنى ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ كما قال المهايمي رَحِمَهُ اللَّهُ: « لينظروا في ألفاظها وترتيبها ولوازمها ، فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال»^(١). وكما قال النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ: « ليتفكروا فيها فيقفوا على ما فيه ويعملوا به»^(٢).

وتدبر الآيات كما قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: « التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة ، والمعاني

(١) تفسير القاسمي (محاسن التأويل) في تفسير الآية.

(٢) تفسير النسفي، ج ٣ ص ٢١٢.

وكما قال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: «أَنْزَلْنَاهُ لِيَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْمَعْرَبَةُ عَنْ أَسْرَارِ التَّكْوِينِ وَالتَّشْرِيعِ فَيَعْرِفُوا مَا يَدْبُرُ ظَاهِرُهَا مِنَ الْمَعَانِي الْفَائِقَةِ وَالتَّأْوِيلَاتِ اللَّائِقَةِ»^(٢).

والجهة الثالثة: وهي تدبر القرآن:

والذي ورد في سورة النساء في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وفي سورة محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فهنا التدبر المستنكر على تركه وعدمه هو التدبر للقرآن كله، في جميع أخباره، وسائر أنبائه، ما مضى من أخبار القرون الأولى وسوالف الأمم، وما لم يأت أو يقع من أنباء ما هو غيبٌ بعيدٌ أو قريبٌ، فحينئذٍ يعلمون أنه الحق من الربِّ تبارك وتعالى..

نعم؛ التدبر للقرآن كله، في أحكامه وعللها، في أوامره وخيرها، وفي نواهيهِ وشرها، وفي توجيهاته وصدقها، وفي إرشاداته ونفعها، وما يقابل

(١) تفسير الزمخشري، الكشف، ج ٢ ص ١٠٣٥.

(٢) تفسير أبي السعود، ج ٥ ص ٤٧٦.

ذلك من الجزاء وعدله. فعندئذٍ يعرفون أنه الحق المبين. لا يجدون فيه اضطراباً، ولا انحرافاً، ولا تضارباً، ولا اختلافاً، ولا عوجاً، ولا أمتاً ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. فيرسخ في قلوبهم اليقينُ القاطع أنه القرآن الكريم، والدستور العظيم، والمنذر القويم، والمرشد المقدس، والموجه المعصوم، والنور المبين، والحق المستبين، لا شيء أسطع من أعلامه، ولا أصدع من أحكامه، ولا أفصح من بلاغته، ولا أرجح من فصاحته، ولا أصدق من إفادته، ولا ألدّ من تلاوته.

فالمعنى إذن: تدبر القرآن كله، لا قولٍ من أقواله الصادرة بحكم أو فصل أو قضاءٍ في العاجلة أو الآجلة؛ ولا آية من آياته أو سوابق آية ولواحقها، بأنواع الآيات؛ المسموعة، والمقروءة، والمسطورة، والمنظورة، لأنّ تدبر الآيات من آيات القرآن أو تدبر القول من أقواله لا يتم به التحقق من انتفاء الاختلاف بين آياته ولا التنافي والتناقض بينها، ولا الاضطراب لا في معانيه ولا في سياقات خطابه المجيد.

فالتدبر هنا أوسع وأشمل من سابقه؛ "تدبر القول، وتدبر الآية".

وكذلك؛ التدبر في آية محمد ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. إذ إنّ أقفال القلوب مبثوثة في القرآن كله فلا تجد سورة إلا وفيها قفلٌ من أقفال القلوب التي تحول دون التدبر وتصدّ عن سبيله.

وبهذا تتميز جهات التدبر في القرآن الكريم، على أن تدبر القرآن شامل، وتدبر القول والآيات مشمول، إذ هما جزء من تدبر القرآن وفرد من أفراده، فكل تدبر للقرآن تدبر للقول وتدبر للآية والآيات، ولا عكس. وقصدنا في ترتيب جهات التدبر بدءاً بتدبر القول ثم تدبر الآيات ثم تدبر القرآن، أن نبدأ بالأقل الأندر، إلى الأوسط في دخول التدبر إلى الأكثر الأشمل في وقوع التدبر فيه.



المبحث الرابع

تمييز التدبّر ورتبته عمّا يشابهه

وفي هذا المبحث نسعى لتمييز التدبّر بعد أن اتضح معناه في اللغة والاصطلاح عن مصطلحات تشبهه، وهي: التفسير، والتأويل، والاستنباط، والتفكّر، وكلها متداخلة إذ جميعها آلات للوصول إلى معاني القرآن الكريم وبيانها.

ولقد رأينا أن من المستحسن أن نعالج الأمر بمطلبين:

الأول: لتمييز التدبّر عن تلك المصطلحات..

والمطلب الثاني: لتحقيق مرتبة التدبّر من هذه العلوم في تحصيل معاني القرآن الكريم.

المطلب الأول

تمييز التدبّر عما يشابهه

فلاستكمال معنى التدبّر ومراده؛ لا بدّ من التفريق بينه وبين ما يشابهه من المصطلحات، حتى يتميّز في مراده ومعناه ومدلوله.

والمصطلحات التي قد تختلط مع مدلول التدبّر في ذهن السامع والباحث؛ هي: مصطلح التفسير، والتأويل، والتفكّر، والاستنباط. على

النحو الآتي:

أولاً: بين التدبر والتفسير:

التفسير أصله في اللغة من الفسر الدال على معنى الكشف والإبانة والظهور وإطلاق الحصر على المحصور، والتفسرة هي الماء القليل أو البول القليل الذي ينظر فيه الأطباء لكشف علّة المريض، ويأتي كذلك بمعنى التفصيل ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تفصيلاً^(١). وعرفّه أهل الفن بأنه: علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها ثم ترتيب مكّيّها ومدنيّها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصّها وعامّها ومطلقها ومقيدها ومجمّلها ومفسرّها^(٢).

وغالب هذه القضايا والمباحث ليست من موضوعات التدبر اللهم إلا إذا احتاجها المتدبر للاستعانة بها على تدبر آية من الآيات أو سياقاً من السياقات.

وعلى هذا فالتدبر يفارق التفسير من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: من حيث أصل الوضع واللغة، فالتفسير مبالغة في

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج ٢ ص ١٤٨.

(٢) البرهان الموضع السابق، وانظر: تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله

الزبير، ص ١٢.

الفسر وهو الكشف والإظهار لمعاني الكلمات والآيات القرآنية، أما التدبّر فهو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه كلمات الله وآياته وسوره.

والجهة الثانية: من حيث موضوعهما: فالتفسير يبحث في ظواهر النصوص من حيث النزول والترتيب والمكي والمدني والمحكم والمتشابه وغير ذلك مما جاء في تعريفه. بينما التدبّر لا تعنيه غالب هذه الموضوعات والمباحث، لأنّه يبحث في المرامي المقصودة للآيات، والغايات المرصودة في سياقاتها.

والجهة الثالثة: من حيث أن مباحث التفسير من معينات التدبّر ووسائله، فالتدبّر إذن أبعد من التفسير، ونفهم ذلك أيضاً مما أشار إليه أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في الإحياء: « إنَّ في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً، وأنَّ المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه »^(١).

غير أنَّ التدبّر والتفسير قد يلتقيان في أعلى رتب التفسير، وقد جعل الأستاذ محمد عبده رَحِمَهُ اللهُ فيما نقل عنه الشيخان الجليلان جمال الدين القاسمي ورشيد رضا رَحِمَهُمَا اللهُ، جعل التفسير مراتب أدنى وأعلى، وقسمان:

أحدهما: جافٌ مُبعدٌ عن الله وعن كتابه، وهو ما يقصد به حلُّ الألفاظ

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ١ ص ٢٩٠ .

وإعراب الجمل وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرا، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما.

وثانيهما : وهو التفسير الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢] ونحوهما من الأوصاف. فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن^(١).

فهذا القسم الثاني الذي هو أعلى رتب التفسير، يلتقي مع التدبر في حقيقته ومراده ومقصوده . ، وعلى هذا؛ كان بين التدبر والتفسير عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فكل تدبر تفسير وليس كل تفسير تدبر

ثانياً: بين التدبر والتأويل:

يشترك التأويل مع التدبر في بعض معانيهما الوضعية في الأصل اللغوي، فإنّ التأويل يعني العاقبة والمآل، وتأويل الكلام هو عاقبته وما يؤول إليه، كما في قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]،

(١) راجع: تفسير المنار لرشيد رضا، ج ١ ص ٢٢ - ، وتفسير القاسمي محاسن التأويل،

أي: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.

وكذلك التدبّر في حقيقته الوضعية في أصله اللغوي هو العاقبة من الدُّبْرَة، والتدبير: النظر إلى ما تؤول إليه العاقبة^(١).

وكذلك يلتقيان في معناهما الشرعي، فإنّ التأويل يكون بصرف الظاهر عن معناه المتبادر بدليل يعتضد به، ومما يكون التدبّر به وفعل المتدبّر في الآية صرف الظاهر إلى معنى آخر يحتمله اللفظ أو السياق أو المآل.

والفرق بين التأويل والتدبّر من وجهين:

الوجه الأول: أنّ التأويل يتجاوز صرف ظاهر اللفظ بتقييد أو تخصيص أو نحوهما، إلى معنى يحتمله اللفظ. بينما التدبّر وإن صرف الظاهر فإنه قد لا يكون بتقييد ولا بتخصيص ولا بتأويل، بل بما يدل عليه اللفظ مما يتضمنه أو يلزمه معنى الظاهر.

والوجه الثاني: أنّ التأويل ثمرته وغايته بيان المعنى ومدلول الآية. أما التدبّر فثمرته الوقوف على مراد الله بكلامه لمخاطبه وبأوامره ونواهيه وإرشاده وتوجيهه لعباده حتى يحقق مراد الله فيما بامتثال أمره ونهيه، والأخذ بتوجيهه وإرشاده، ثم الاتعاظ والاحتكام.

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، ج ١ ص ١٦٢، ولسان العرب ج ٤ ص ٢٧٣.

ثالثاً: بين التدبُّر والتفكُّر:

وبين التدبُّر والتفكُّر قرابةٌ وصلَّةٌ والتقاءٌ وافتراقٌ، من جهات:
الأولى: أنَّهما مترادفان عند بعض العلماء، حتى قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ:
«أما التدبُّر والتأمُّل والتفكُّر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها
معان مختلفة»^(١).

والثانية: أنَّ كليهما يكونان في القلب، فمن القلب التدبُّر ومن القلب
التفكُّر.

والثالثة: أنَّ حقيقتيهما قائمة على النظر، غير أنَّ التفكُّر تصرف القلب
بالنظر في الدليل، والتدبُّر تصرّف القلب بالنظر في العواقب، على ما قال
الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ: «التدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب
من التفكير، إلا أنَّ التفكير تصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه
بالنظر في العواقب»^(٢)، وهكذا فرّق أبو هلال العسكري رَحِمَهُ اللهُ بين التدبُّر
والتفكُّر فقال: «الفرق بين التدبُّر والتفكُّر: أنَّ التدبُّر تصرّف القلب بالنظر
في العواقب، والتفكُّر تصرّف القلب بالنظر في الدلائل»^(٣).

والرابعة: أنَّ التدبُّر والتفكُّر كلّاً منهما قصده الاعتبار، وطريقٌ له، وفي

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٤ ص ٤٢٦.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٧٦، برقم ٣٤٢.

(٣) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص ١٢١.

مقاييس اللغة لابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: « الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء. يقال تفكر إذا ردد قلبه معتبراً »^(١). وكان سفيان بن عيينة كثيراً رَحِمَهُ اللهُ ما يتمثل بقول القائل^(٢):

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شيء له عبرة

فإن كان التفكير للاعتبار، فإن التدبر من طرائق الاعتبار، ومن ذلك قول السمعاني رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]، قال: « الإعتبار هو النظر في الشيء ليعرف به جنسه ومثله. وقيل معناه: فانظروا وتدبروا يا ذوي العقول والفهوم، كيف سلط الله المؤمنين عليهم، وسلطهم على أنفسهم؟ »^(٣).

والخامسة: أن التدبر والتفكير قضيتهما التماس الغايات، ولكن التفكير التماس الغايات من مبادئها، والتدبر التماس الغايات من مجاري الآيات ومراسيها لأن نظر المتدبر متجاوز إلى العواقب، ومن تخصيص التفكير بمباني الغايات قول الغزالي: « الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار »^(٤).

والسادسة: أن التفكير من أدوات التدبر وطرقه التي يتحقق به.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ج ٤ ص ٤٤٦.

(٢) إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٤٢٤.

(٣) تفسير السمعاني، ج ٥ ص ٣٩٧.

(٤) إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٤٢٣.

رابعاً: بين التدبُّر والاستنباط:

والاستنباط استخراج الماء من العين، من قولهم: نبط الماء؛ إذا خرج من منبعه، فاختلف في أصل الوضع عن التدبُّر، لأنَّ التدبُّر في أصل الوضع اللغوي: النظر في العواقب، والاستنباط استخراج الماء من العين، فاختلفا في أصل الوضع .

ثم اختلفا في المعنى الاصطلاحي، حيث إنَّ الاستنباط استخراجٌ للمعاني من النصوص بفِرطِ الذهن وقوة القريحة^(١)، كما في تعريفات الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ، وعند أهل الأصول: استنتاج الأحكام من الأدلة^(٢).

وهذا هو غالب ما يُطلق عليه الاستنباط ويستعمل فيه، استنتاج الأحكام خاصة لا كل المعاني. بينما التدبُّر يكون بالتنبُّه إلى المعاني والحكم القرآنية عموماً، وإلى مراد الحكيم الباري جلَّ وعلا.

والاستنباط إنما يكون استخراجاً للأحكام أو المعاني من الألفاظ أو مما هو متشابه الألفاظ كما قال أبو طالب المكي رَحِمَهُ اللهُ: «يكون الاستنباط استخراجاً من معنى اللفظ المتشابه بنوع من النظرة والاجتهاد والتفكر»^(٣).

(١) التعريفات للجرجاني، ص ٣٨، برقم ١٠٩.

(٢) راجع: الفروق للقرافي، ج ٣ ص ٣٧٤.

(٣) البحر المحيط للزركشي، ج ٣ ص ٧٢٨.

أما التدبّر فيكون استخراجاً لمعنى اللفظ أو الآية أو السياق القرآني بمطابقه أو بتضمّنه أو بملازمه، فالمهم في التدبّر صحة المعنى المحصّل والحكمة الموصل إليها.

كما أنّ الاستنباط تُشترط في القائم به وممارسه شروطٌ خاصّةٌ لا تُشترط في المتدبّر، فإنّ المتدبّر قد يفتح الله عليه بتدبّرٍ من غير أن يكون في درجة القادر على الاجتهاد المتمكن في أصول الفقه العارف بدلائله، بينما المستنبط يجب أن يكون من القادرين على النظر والتأويل والاجتهاد في النصّ الشرعي .

وبهذا كلّه يتميّز التدبّر عما يشبهه من مصطلحات قد يتشابه معناها بمعناه فيوقع الباحث والعالم والمطلّع في اضطراب وارتباك فيقوم بالتفسير مكان التدبّر ويقيم التأويل على أنه تدبّر، وينزل الاستنباط منزلة التدبّر، فلا يصيب بهذا ولا بهذا.

فيعينه هذا التمييز للعمل بكلّ علم في بابيه بما يحققه، والحمد لله رب العالمين.

المطلب الثاني

رتبة التدبّر من هذه الأشباه

مما سبق وما تميّز به التدبر عما يشابهه من المصطلحات؛ نجزم بأنّ التدبر أعلى رتبة من أشباهه في الإطلاق والاصطلاح، من وجوه:

الوجه الأول: من حيث الغرض:

فالتدبرُ أَعْلَى مِمَّا سِوَاهُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّفْكِيرِ وَالتَّأْوِيلِ وَالِاسْتِنْبَاطِ مِنْ حَيْثُ غَرَضُهُ.

فإنَّ غرض القرآن هو التذكير، وأغراض التذكير تخالف أغراض الاستدلال وتحصيل الأحكام والجدل، فإن التذكير يلائم التنبيه على مختلف الصفات باختلاف الاعتبارات والتعرض للاستمداد من الفضل^(١).

والتدبرُ غرضه التذكير، فكان موافقاً للقرآن الذي هو محله، فتوافق المحل والغرض بين التدبر والقرآن المُتَدَبَّر.

الوجه الثاني: من حيث المقصود:

فإنَّ المقصود الربَّاني الأول من إنزال القرآن الكريم على قلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم هو تدبره بفرط الذهن وقوة القريحة استقاء للقلب من معانيه العليّة، واغتذاءً للروح من معين بركاته النديّة.

ولقد صرّح منزل الكتاب الكريم بالمقصود الأول من إنزاله في قوله الكريم: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج ٢٥ ص ٣٠٠.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: « وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر »^(١).

ولذلك؛ كلّ مطلوب لبيان القرآن تالٍ للتدبر، وكلّ طريقٍ لكشف معاني القرآن يتلو تدبره، سواءً أكان تفسيراً لألفاظه أو تأويلاً لآياته أو استنباطاً لمدلولاته، أو بياناً لمعانيه، بأيّ طريقٍ مسلوک.

الوجه الثالث: من حيث الأصالة:

فإن التدبر بالنسبة إلى غيره مما يشابهه في الكشف عن معاني القرآن ومدلولات آياته؛ هو الأصل، وما سواه له فرعٌ، وهو الغاية وما سواه له الوسيلة.

فكلُّ من التفسير والتأويل والتفكير والاستنباط مما يوصل إلى التدبر، ويحققه، فكانت كلها وسائل للتدبر، والتدبر لها أصل ومقصد.

وبهذه الوجوه الثلاثة وغيرها كانت رتبة التدبر مع ما يشابهه من المصطلحات هي الرتبة العليا.



(١) تفسير الشوكاني، فتح القدير، ج ٤ ص ٤٣٠.

المبحث الخامس

في مجامع التدبر

فالتدبر الذي هو إنعام النظر وإجالة الفكر وإطالته بتعمق في كتاب الله تعالى لتحصيل المعاني الحاملة على الاستقامة الموصلة إلى كمال الإيمان المحققة لمقام الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً رسولاً؛ هذا التدبر لا يكتمل ولا يتحقق إلا بتوافر جملة من الأعمال والآداب تمثل مجامعه ومعالمه ليصدق التدبر في كلام الله وآياته، وهي إجمالاً:

١ - التفهم والتفكر للألفاظ والدلالات القرآنية..

٢ - التأمل الوفير لتعقل الحجج الإلهية والحكم الربانية لتحريك القلب والفؤاد استبشاراً أو انزجاراً..

٣ - العزم على حمل النفس على الإقبال لمراد العلي العظيم بلطيف خطابه..

٤ - الاتعاظ بالمواعظ الرهيبة التي تتضمنها الأخبار والمطالب القرآنية من الأوامر والنواهي..

٥ - التحقق بأخلاق القرآن والتصديق بمقاصده ومراميه باتباع مطلوباته والعمل بأحكامه وآدابه..

هذه الأمور نبّه إليها صاحب القرآن صلى الله عليه وسلم ومن بعده
علماؤنا الأخيار رحمة الله عليهم:

♦ فعن الاتعاظ والتأثر جاء تنبيه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين مرَّ
برجلٍ من أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يقرأ آية ويبيكي ويردّدها، فقال صلى الله عليه وسلم:
(ألم تسمِعوا إلى قول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤] قال:
هذا الترتيل)^(١).

ولهذا قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية: «أي: لا تعجل بقراءة
القرآن، بل اقرأه في مهلٍ وبيانٍ مع تدبّر المعاني»^(٢).

♦ وعن التعقّل لحجج الله ومراده من خطابه؛ قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «
أحبّ الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه»^(٣).

وكذلك يقول الطبري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير ﴿لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ﴾ [سورة ص:
٢٩]: «ليتدبّروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من شرائعه، فيتعظّوا
ويعملوا به .. وفي تفسير ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: «وليعتبر أولو
العقول والحججا ما في هذا الكتاب من الآيات فيرتدّعوا عما هم عليه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٦٦٩٢، وابن المبارك في الزهد برقم

١١٩٩ وانظر تفسير القرطبي ج ٢١ ص ٣٢٣.

(٢) تفسير القرطبي ج ٢١ ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٣) تفسير القرطبي نفسه.

مقيمون من الضلالة وينتهوا إلى ما دلَّهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب»^(١).

♦ وعن العزم على حمل النفس على الإقبال لمراد العلي العظيم بلطيف خطابه قال أبو بكر بن طاهر رَحِمَهُ اللهُ: « تدبَّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرَّك بالإقبال عليه»^(٢).

♦ وعن الاتباع والتحقُّق قال الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَمْ يَأْخُذُوهُ مِنْ أَوَّلِهِ ، وَلَا عَلِمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنْ رُئِيَ فِي عَمَلِهِ ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص: ٢٩] ، وَإِنَّمَا تَدَبَّرُ آيَاتِهِ : اتَّبَاعُهُ بِعَمَلِهِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَى أَقَارِنُكَ ، وَاللهُ مَا كَانَتْ الْقُرَاءُ تَفْعَلُ هَذَا ، وَاللهُ مَا هُمْ بِالْقُرَّاءِ ، وَلَا الْوَرَعَةُ ، لَا كَثَرَ اللهُ فِي النَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ، لَا كَثَرَ اللهُ فِي النَّاسِ أَمْثَالَهُمْ »^(٣).

وكان رَحِمَهُ اللهُ يقول: في قوله تعالى ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [سورة ص:

(١) تفسير الطبري جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ٢٠ ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج ٢١ ص ٣٢٣.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٤٠٨، وسعيد بن منصور في سننه برقم

١٣٥، وقال محققه سعد بن عبد الله آل حميد ج ٢ ص ٤٢٢: "إسناده صحيح".

٢٩]: « وما تدبّر آياته إلا اتباعه بعلمه، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنّ أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن كلّ وما أسقط منه حرفاً واحداً، وقد أسقطه كلّ، ما ترى له في القرآن من خُلُقٍ ولا عملٍ، وحتى إنّ أحدهم ليقول: والله إني لأقرأ السورة في نفس واحد، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كان القراء يقولون مثل هذا، لا كثر الله في المسلمين من هؤلاء ^(١) ».

♦ وعن التفهم والتفكر للألفاظ والدلالات القرآنية؛ قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «لا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب له الجزم بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه.

والثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

(١) المصنف لعبد الرزاق، برقم ٥٩٨٤، وشرح السنة للبغوي، ج ١ ص ١٨٩.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني. وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور
وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحاً، فبذلك يحصل للعبد من
العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله تعالى له..^(١).



(١) تفسير السعدي ص ٧٣٢.

الفصل الثاني

مَقَامُ التَّجَبُّرِ وَحُكْمِهِ

المبحث الأول

في

مقام التدبّر وفضله

المطلب الأول

في فضل التدبّر ومكانته

لا شك أنّ كل ما هو مُعَيَّنٌ على الارتباط بالقرآن وعلى معرفته؛ من أعظم ما ينبغي طلبه وتعلّمه والتزامه. وكل علمٍ من علوم القرآن؛ هو في ذاته أرفع مقاماً، وأحسن رتبةً، وأسعد شأنًا، تفسيراً كان أو تأويلاً أو تجويداً أو غير ذلك مما سواها من العلوم.

غير أنّ مقام التدبّر أعلى، ومكانه أسمى، لأنّه العامل على فهم كلامه عزّ وجلّ، الحامل على التخلّق به والتأدّب بأدابه، السائق إلى حدائق معاني القرآن البهيجة، والمنزّه بصاحبه إلى بساتين مراداته الزاهرة ورياضه الناضرة، والمتفيع بالمتدبّر ظلال مقاصده الوارفة.

فأين سواه منه؟ مع فضله ومكانه؟..

فدرجة التدبّر هي المرتقى، ومقامه هو أعلى المرتجى..

ولذلك!:

كان طلبه الأحب، ولزومه الحال الأصوب، ومن كانت أغلب أحواله التلاوة المتدبرة؛ استصحبه السعادة الدنيوية والتوفيق العاجل، وحمل أعلام الشرافة في أمته^(١)، واستدرج معالم النبوة بين جنبه^(٢).

✓ كيف لا!!

وتدبر القرآن هو مقصود إنزاله؛ وقد قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

قال الشوكاني رحمه الله في تفسيرها: «وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر، والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون

(١) إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (أشراف أمتي حملة القرآن) الذي أخرجه الطبراني في الكبير برقم ١٢٤٩٤، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٤٤٧، وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل ١٠٧ - ١٠٨، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ٨ ص ٨٠، وضعفوه بسبب سعد بن سعيد الجرجاني، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب برقم ٣٦٦ ج ١ ص ٩٤، ثم صححه في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٦٢٨ ج ١ ص ١٥٢ فعدّ مما تراجع الألباني في تضعيفها من الأحاديث.

(٢) إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبه غير أنه لا يوحى إليه) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٢٠٢٨، وقال صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٣٥٣ وفي الأسماء والصفات برقم ٥٧٢.

تدبّر^(١).

وقال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ فِيهَا: « قد ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة، أنّه أنزل هذا الكتاب، معظّمًا نفسه جلّ وعلا، بصيغة الجمع، وأنّه كتابٌ مباركٌ وأنّ مِنْ حِكْمِ إِنْزَالِهِ أَنْ يَتَدَبَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ، أَيِ يَتَفَهَّمُوهَا وَيَتَعَقَّلُوهَا وَيَمَعْنُوا النَّظَرَ فِيهَا، حَتَّى يَفْهَمُوا مَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْهُدَى، وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ، أَيِ: يَتَعَطَّ أَصْحَابُ الْعُقُولِ السَّالِمَةِ، مِنْ شَوَائِبِ الْإِخْتِلَالِ^(٢) ».

ورحم الله الإمام الحسن البصري يُجَمِّلُ الْمَعْنَى وَيُرْشِدُ إِلَى الْمَطْلُوبِ الْأَسْنَى فيقول: « نزل القرآن لِيُتَدَبَّرَ وَيَعْمَلَ بِهِ فَاتَّخَذُوا تَلَاوَتَهُ عَمَلًا^٣، ويزيد ابن القيم عليه فيقول: « فليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعهده وأقرب إلى نجاته منه^(٤) ».

✓ كيف لا !!

والتدبّر إعمالٌ للقلوب المتفتّحة بتفهم القرآن وآياته، وإعمالٌ للعقول

(١) فتح القدير للشوكاني، ج ٦ ص ٢٤٢.

(٢) أضواء البيان، ج ٦ ص ٣٤٤.

(٣) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص ١٤٨، ومدارج السالكين لابن القيم، ج ١ ص

٤٥١، وتبلييس إبليس لابن الجوزي، ص ١٠١، وانظر: النشر في القراءات العشر

لابن الجزري، ج ١ ص ٢٠٩.

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم، ج ١ ص ٤٥١، وانظر ج ٢ ص ٢٢.

المستتيرة بالتفكر في دلالاته، وتذكير للألباب الراسخة في تعقل معانيه ومراداته..

♦ فالإشارة إلى إعمال القلوب نقرأها في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤].

♦ والتنبيه إلى إعمار العقول نتلوها في قوله سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف : ٣].

♦ والإشارة إلى تذكير الألباب نرتلها في قوله عز وجل ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩].

فالتدبر رغب إليه رب العزة بعد التنبيه إلى أنه مقصوده في إنزال الكتاب.

✓ فقال تعالى عن أهل المعرفة ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة : ٨٣].

✓ وقال جلَّ جلاله عن أهل السماع لكلامه من المهديين المجتبيين: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم : ٥٨].

✓ وقال سبحانه وتعالى عن أهل العلم من طوائف أمم التوحيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾

[الإسراء: ١٠٧].

بل لفت ربُّنا الأنظارَ، وطَرَقَ العقولَ، وأيقظَ القلوبَ بِمَثَلٍ عن حال المتدبِّر المتفهمِّ المتنَّبِّه لكلام الله حين ينزِّلُ حتى على جمادٍ صلبٍ أو صخرٍ أصمٍّ أو جبلٍ راسٍ أشمٍّ، على أنَّ حال هذه الجوامد أشدَّ من حال بني آدم ممن رُكِّبتَ فيهم العقول وهُيِّئتَ فيهم الأحاسيس وأُحييتَ فيهم المشاعر، وذلك في قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

قال القرطبي رحمه الله: « حَثَّ عَلَى تَأَمُّلِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا عَذْرَ فِي تَرْكِ التَّدَبُّرِ، فَإِنَّهُ لَوْ خَوَّطَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْجِبَالَ مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ فِيهَا؛ لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلَرَأَيْتَهَا عَلَى صَلَابَتِهَا وَرِزَانَتِهَا خَاشِعَةً مُّتَصَدِّعَةً، أَيْ مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ... فَلَوْ أَنزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَخْشَعَ لَوْعَدِهِ، وَتَصَدَّعَ لَوْعِيدِهِ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَقْهُورُونَ بِإِعْجَازِهِ؛ لَا تَرْغَبُونَ فِي وَعْدِهِ، وَلَا تَرْهَبُونَ مِنْ وَعِيدِهِ »^(١).

ثم إنَّ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْكُرُ عَلَى الْمُنْصَرَفِ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِهِ، الْمَعْرِضِ عَنْ تَفْهَمِهِ، الْمُنْشَغَلِ عَنِ الْبَحْثِ عَنْ مَعَانِيهِ وَمَرَامِيهِ، الْمَصْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ عَنِ التَّقَاطُ لَآلِئِهِ وَدُرَرِهِ، الْمَحْرُومِ مِنْ ذَاتِهِ عَنِ اجْتِلَاءِ لَطَائِفِهِ وَاجْتِنَاءِ

(١) تفسير القرطبي لهذه الآية، ج ٢٠ ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

حِكْمَهُ وَآدَابَهُ، وَكَمَا قِيلَ:

نعم السميع كتابُ الله إنَّ له حلاوةً هي أحلى من جنَى الضربِ
به فنون المعاني قد جمعن فما تفتَر من عَجَبٍ إِلَّا إِلَى عَجَبِ
أمرٍ ونهيٍّ وأمثالٍ وموعظةٍ وحِكْمَةٍ أودعت في أفصح الكتبِ
لطائفٌ يجتليها كُلُّ ذي بصرٍ وروضةٌ يجتنيها كُلُّ ذي أدبٍ
فاستنكر مُنزله جَلَّ جلاله على المحروم المصروف المعرض عن
هذا الخير الغامر العامر!! فقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ
عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]..

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾
[محمد: ٢٤]..

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ
الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]..

وحتى لا يعتذر معتذرٌ عن التحقق بالتدبر لكتاب الله جل وعلا؛ سهل
منزل الكتاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته وفضله ومنه وكرمه؛ آياته، ويسرها
للتلاوة والترتيل والتعلم والتفهم والتدبر، وهياها للقلوب والعقول
والألباب، وقد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾
[القمر: ١٧]..

ومعنى يَسِّرُنَا القرآن: هيَّأناه للذكر، من قولهم: يَسِّرَ فَرَسَهُ، أي: هيَّأه للركوب بالجامه، قال الشاعر:

فَقُمْتُ إِلَيْهِ بِاللَّجَامِ مَيَّسَرًا هُنَاكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ^(١).

فهياً ربُّنا تبارك وتعالى القرآن للعقول والقلوب والأفهام ليكون تدبره ميسوراً وتفهمه سهلاً متاحاً لكل قارئٍ تالٍ لكلامه الهادي لكل قويم.

وقيل: «سهلناه للفهم والاتعاظ به لما تضمن من البراهين والحكم البليغة»^(٢).

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهَا: «أي: وبالله لقد سَهَّلْنَا الْقُرْآنَ لِقَوْمِكَ بَأَنْ أُنْزِلْنَاهُ عَلَى لُغَتِهِمْ، وَشَحْنَاهُ بِأَنْوَاعِ الْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وَالْوَعْدِ ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أَيِ لِلتَّذَكُّرِ وَالِاتِّعَازِ، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ إِنْكَارٌ وَنَفْيٌ لِلْمَتَعِظِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهِ وَآكِدِهِ، حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَجِيبَ الْمُسْتَفْهَمَ بِنَعْمٍ، وَحَمَلٌ تَيْسِيرِهِ عَلَى تَسْهِيلِ حِفْظِهِ بِجَزَائِلِ نَظْمِهِ، وَعَذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ وَعِبَارَاتِهِ، مِمَّا لَا يَسَاعِدُهُ الْمَقَامُ»^(٣).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً،

(١) الدر المصون في علم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ج ١ ص ٥٠٧٢.

(٢) تفسير ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل ج ١ ص ٢٢٣٤.

(٣) تفسير أبي السعود، ج ٦ ص ٢٣٨.

وأصـدقه معنـى، وأبينـه تفسـيراً، فكل من أقبل عليه يسّر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظـ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة « اهـ ^(١) .

ويقول تعالى في سورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان : ٥٨].

وهنا تعليل أزيد بياناً أنّ تيسير الله تعالى للقرآن وبلسان محمد صلى الله عليه وسلم حكمته ومقصوده التفهّم والتعقّل والتذكّر.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: « إِنَّمَا يَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ سَهْلًا وَاضِحًا بَيْنًا جَلِيًّا بِلِسَانِكَ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَجْلَاهَا وَأَحْلَاهَا وَأَعْلَاهَا ﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: يتفهمون ويعملون ^(٢) .



(١) تفسير السعدي، ص ٨٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٧ ص ٢٦٣، طبعة دار طيبة

المطلب الثاني

دعوة القرآن إلى التدبر

ومما يبين فضل التدبر لكتاب الله ويعلي مقامه بين أعمال المسلم وطاقاته؛ دعوة القرآن الكريم لقارئيه من المؤمنين إلى تدبره وتدبر آياته وسوره، والآيات كثيرة في دعوتها إلى التدبر تشهد لكل ذي بصر وبصيرة ولكل مُلقٍ لسمع فؤاده وهو شهيد رشيد، وإليك بعضها:

١- الدعوة الأولى:

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢].

فهنا دعوة لازمة لقارئ القرآن ومرتليه؛ ألا يقرأوه إلا بتدبر وتفهم، ينعمون النظر في آياته، ويحدقون ببصائر قلوبهم في مشاهدته وشواهد وقصصه وأحوال الأمم، ويجيلون بفكرهم على تعمق وتفهم في خطابه وأخباره وتوجيهاته، ليقفوا على مراده القويم ومقصوده الحكيم، ومطلوبه العظيم من عباده المؤمنين، ولترسيخ الإيمان الحق واليقين القاطع بأن القرآن كلام الله منزل من عنده على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم مؤكداً ذلك بقوله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

دعوة ألزمت الإجابة على المؤمنين القارئ للقرآن بتدبره؛ استنكاراً

الجليل على من لا يتدبر القرآن.

قال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: «إنكارٌ واستقباحٌ لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان.. والفاء للعطف على مقدرٍ، أي: أيعرِضون عن القرآن فلا يتأملون فيه، ليعلموا كونه من عند الله تعالى، بمشاهدة ما فيه من الشواهد التي من جملتها هذا الوحي الصادق والنصُّ الناطقُ بنفاقهم المحكيُّ على ما هو عليه»^(١).

ويقول السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم، ذلك؛ فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته»^(٢).

٢- الدعوة الثانية:

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. وهو دعوة للمؤمنين أن لا ينصرفوا عن تدبر القرآن ما قرأوه، لأن هؤلاء الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم لو كانوا يتدبرون القرآن لما كان هذا حالهم!! لزال عنهم الصمم، وعوفوا من العمى، فأسمعت آذانهم قول الحق، ورأت أبصارهم آيات الحق،

(١) تفسير أبي السعود، ج ٢ ص ١٢١.

(٢) تفسير السعدي، ص ١٩٠.

ورسخت قلوبهم بمعالم الحق، وانفتحت على قبول الحق، فنجوا من اللعنة، ولأفضى بهم التدبر إلى العرفان وأراحهم من ظلمة التحير.

وهل من دعوة أصدق من هذا؟ وكأنّ المعنى: يا أيها المؤمنون لا تكونوا كالذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، لأنهم لا يتدبرون القرآن!! فتدبروا أنتم القرآن.

وقرينة أخرى زيادة على التوقيف والتوبيخ في أول الآية، وهي التحذير الإلهي الصادر عن الرأفة والرحمة الخاصة بالمؤمنين في قوله ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، على أن ترك التدبر مفضي إلى قفل القلوب، كما أن انغلاق القلوب حارم من التدبر، فمن ليس بحارم عقل أو بعاديه؛ فليقبل على تدبر القرآن.

٣. الدعوة الثالثة:

قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. وهنا دعوة حميدة من حكيم حميد، لكل مؤمن تالٍ للقرآن قارئ له مرتلٍ لآياته أن يقيم أمره وحاله على تدبر القرآن عند تلاوته وقراءته، جامعاً في دعوته الحميدة محفّزات التدبر ومرغباته ودواعيه الحاملات على إقبال القلوب على التدبر..

ومن ذلك:

① المحفّز الأول: أنّ التدبّر ليس هو مطلوباً ثانياً، أو مقصوداً تابعاً، بل هو المقصود الأول والمطلوب الأساس من إنزال الكتاب وذلك قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا﴾، ولام التعليل دالة على المقصود..

② والمحفّز الثاني: أنّ التدبّر هو المستجلب لبركة القرآن، وأنّ بركته لا تفارق المتدبّر، فمن طمع في تحصيل بركة القرآن واستبقائها فليُقيم حاله على تدبّر القرآن كلما قرأ ورتّل، فالكتاب مبارك في ذاته بتنزيله، مبارك لمتدبّره بترتيبه، فقال ﴿مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا﴾.

③ والمحفّز الثالث: أنّ المتدبّر هو المخصوص بإنزال القرآن، فكأنه يغريه بأنّه إليه أنزل لا إلى سواه، وإن كان قوله ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ المقصود به أول المسلمين وسيّد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فالمتدبّر هو المستحق للانتساب إليه والارتباط به عليه الصلاة والسلام، وكأنّ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نسخ المصاحف للمتدبّرين من أتباعه المؤمنين على خصوصهم.

فمن ابتغى الانتساب إلى هذا الشرف الباذخ والمقام العليّ؛ فيكن من المتدبّرين.

④ والمحفّز الرابع: أنّ التدبّر كما أنّه جالب لبركة القرآن من الخير الكثير، والنفع العميم، واليسر الملازم، والعصمة من الزلّ، والنجاة من الخطل؛ والشفاء الناجع، والصالح النافع، فهو مع ذلك كلّ؛ هادٍ إلى

التذكر، والتذكر مفتاح انتفاع المؤمن بإيمانه، وقد قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات : ٥٥]. ولا يمنع من هذا المحفز عطف التذكر على التدبر، لأنه لا تذكر بلا تدبر، فمن لم يتدبر فكيف يتفهم ويتعقل؟!، ومن لم يتفهم ولا يتعقل فأنى له الذكر؟! فلا سبيل في الحقيقة إلى التذكر من غير تدبر، فهو طريقه، وهو سبيله، وهو وسيلته المبتغاة، ومعينه المغترف.

٥ والمحفز الخامس: أن المؤمن بتدبره للقرآن الكريم وآياته يدل أنه مؤهل للفهم عن الله، ويعلن لعوالم الإيمان من أهل الأرض وأهل السماء والملائ الأذن والأعلى أنه من أولي الألباب. فبالتدبر ارتقى مراقي العقلاء!! وبالتدبر اصطف مع أولي الألباب!! وبالتدبر ارتفع إلى علية المؤمنين الموصوفين بكمال العقل وصفاء القلب ونقاء اللب، ويا لهذا الفضل الكبير والمقام السامي.

ومن لا تدعوه كل هذه المحفزات ولا تحمله كل هذه المرغبات إلى تدبر السور والآيات؛ فقد خسر خسراناً مبيناً.

٤- الدعوة الرابعة:

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة : ١٢١]. والذين آتاهم الله الكتاب هنا هم المسلمون من أمة

محمّد صلى الله عليه وسلم على ما قال ابن جزيّ والشوكاني وغيرهما^(١)،
أو هم أصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم على ما قاله عكرمة
وقتادة رحمهما الله، وقيل: هم المؤمنون عامة^(٢). والكتاب هو القرآن على ما
قاله قتادة رحمه الله^(٣).

وفيها دعوة مادية شاكرة للمتدبرين، إذ شهد لهم مُنزل الكتاب الذي
آتاهم أنّهم أخذوا الكتاب بحقّه، وأعطوه مستحقّه، يتلونه حقّ تلاوته،
وهل يتصوّر حقّ التلاوة.

والتلاوة جامعة لمعني القراءة والاتباع، ولا خير في قراءة لا تدبّر فيها
كما قال علي رضي الله عنه: «ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في فقه
ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبّر»^(٤).

والاتباع مقتضى للعمل بما قرأه وتدبّره من المعاني والعبر والتخلّق بها.
فالذين يتلونه حقّ تلاوته كما يقول عمر رضي الله عنه: «هم الذين إذا مروا
بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها»^(٥).

(١) تفسير ابن جزّي ج ١ ص ٦٥، فتح القدير للشوكاني، ج ١ ص ١٥٨.

(٢) انظر: تفسير البغوي، ج ١ ص ١٤٤.

(٣) زاد المسير، لابن الجوزي، ج ١ ص ١٢١.

(٤) أخرجه الدارمي في سننه ٣٠٦، برقم وأبو داود في الزهد برقم ١٠٤، والمروزي في قيام

الليل، ص ١٤٨، وحلية الأولياء ج ١ ص ٧٧، وأمالى ابن بشران، برقم ٨٨٢.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم، ج ١ ص ٣٥٧، وتفسير ابن كثير، ج ١ ص ٤٠٣، ومسنند الفاروق

لابن كثير، ج ١ ص ٦٠ برقم ١٠٧.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله»^(١).

قال ابن جزي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: «يقرؤونه كما يجب من التدبر له والعمل به». وأظهره^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حقيقة التلاوة هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعت خلفه، ومنه قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ١، ٢]، أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها، ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضاً، أي يتبع، وسمي تالي الكلام تالياً لأنه يتبع بعض الحروف بعضاً لا يخرجها جملة واحدة، بل يتبع بعضها بعضاً مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة اتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى، وهذه التلاوة وسيلة وطريقة، والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقاً بخبره واثماراً بأمره وانتهاءً بنهيهِ وائتماماً به، حيث ما قادت انقذت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة

(١) تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٤٠٣، وتعظيم قدر الصلاة، للمروزي، ج ١ ص ٣٩٧،

برقم ٣٨٨.

(٢) تفسير ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١ ص ٦٥.

المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الشاء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً»^(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: « ولم يفسرها أحد من الفقهاء في الدين بالتجويد أو الحفظ مجرداً عن التدبر »^(٢).

إذَنْ: فلن يُتلى القرآن حقّ تلاوته ما لم يتدبره القارئ التالي المرتّل ويتفهّمه.

٥- الدعوة الخامسة:

قوله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ قال: قراءة القرآن والفكرة فيه^(٣).

وقال أبو العالية رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: « الحكمة: الفهم في القرآن ».

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: « الحكمة: القرآن والفقه فيه »^(٤).

وكلهم يشيرون إلى مقصود التلاوة والترتيل، وهو التدبر بالتفهّم

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج ١ ص ٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٤٠٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ج ٢ ص ٤٩٤.

(٤) المحرر الوجيز، لابن عطية، ج ١ ص ١٥٦.

والتفكر في خطاب الله تعالى، فامتدح رب العزة من أوتي ذلك يقر له أنه ممن أوتي كثيراً، وأنه من أولي الألباب الذين تسوقهم ألبابهم وعقولهم إلى تحصيل الحكمة من كلام الله فيذكر ويتعظ ويحيى بذلك على مراد الله ومراضاته.

٦- الدعوة السادسة:

قوله تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٥، ١٠٦].

فهذا القرآن حق، نزل بحق، من منزل حق، على منزل حق قد كلف بيانه وتبليغه مبشراً بالحق ومنذراً بالحق، وليس التبليغ تعليم القراءة بلا فهم أو تدبر، فكيف يكون مبشراً ونذيراً؟ وبماذا يبشر وينذر؟ إن لم يتدبر الحق الذي أنزل عليه؟ فكان كما أن القرآن حق، ونزل بحق، من منزل حق، على مندر حق، فتدبره حق.

ولذلك؛ ولتحقيق مهمته على وجه الحق الملازم للقرآن ومنزله والمنزل عليه؛ فرق الله القرآن بياناً منه وتوضيحاً، ليقف عند الذي نزل يتأمل ويتفكر على مكث بتأن وإجالة وإطالة ليفهم المراد ويتدبر المعاني ويستلهم العبر.

فكان كل هذه التراتيب الربانية في تنزيل الحق على الحق بالحق؛

ليقرأه على الناس على مكث، وقد علَّلها فقال ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

أي: على مهل وترسل، يتحقق به التدبر الذي هو مقصود التنزيل.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «المعنى: على تُوْدَةٍ وترسل ليتدبروا معناه»^(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «على مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه»^(٢).

٧- الدعوة السابعة:

قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وفي الآية معاتبه المؤمنين من المنعم عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بخير كتاب أنزل وبخير نبي أرسل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غفلتهم عن مقصود ما أنزل دون خشوع، مع قرب إنزاله، خشية أن يطول عليهم الأمد فتقسو قلوبهم فتنصرف عن آيات الذكر فيصرف الله قلوبهم كما صرف قلوب من سبقهم

(١) زاد المسير، ج ٤ ص ١٩٩.

(٢) تفسير السعدي، ص ٤٦٨.

حين قست قلوبهم وكثر فسوقهم.

وفي صحيح مسلم وسنن النسائي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين»^(١). والعتاب مخاطبة الإِذلال ومذاكرة الموجدة على ما قال خليل^(٢). و﴿أَنْ تَخْشَعَ﴾ أي: تخضع وتتضرع وتتذلل وتلين ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

وهذه الأحوال تحقُّقُها بالتدبُّر، فكان العتاب لترك التدبُّر يقول لهم: قد آن الأوان وحان الحين للذين آمنوا أن يتنبهوا لما نزل من الذكر الحكيم ليدبُّروا آياته ويتفكروا في معانيه ويتعظوا بمواعظه ويعتبروا بعبه ويأخذوا بحكِّمِه ويعملوا بأحكامه، فتحيا قلوبهم، وتلين لذكر الله، قبل أن يطول الأمد على القلوب؛ فتفسو، فيصرفها الله عن ذكره، معاذ الله.

٨- الدعوة الثامنة:

قوله تعالى ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وهكذا هيَّا الله القرآن للتدبُّر، فسَهَّل تلاوته وقراءته، ويسَّر على الناس فهم معانيه، وما كلَّ ذلك إلا لتحصيل مقصود تنزيله الأول ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٧٧٣٥ ج ٨ ص ٢٤٣، وسنن النسائي برقم

١١٥٠٤.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١٧ ص ٢٤٨.

وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾. وكما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراد، ليتذكر الناس»^(١).

والمذكر، هو المتذكر المعتبر المتمتع بمواعظه، والادكار هنا اذكار عن سماع مواعظ القرآن البالغة وفهم معانيه والاهتداء به^(٢). وما ذاك إلا هو حقيقة التدبّر. فكانت الآية بجلالها وجمالها دعوة لأهل الذكرى والادكار لتدبّر أفضل الأذكار.

٩ - الدعوة التاسعة:

قوله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ويكفيها ههنا أن نرافق الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في تصوّره لمشهد الآية الكريمة حين تتفتح القلوب لتلقّي القرآن فتثور على كل مذموم مذموم بكل حميد محمود، وتعيش نفسه مع حقائق التنزيل ومقصوده الذي هو التدبّر والاتعاظ والاعتبار، فيقول رحمة الله عليه: «واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتّحاً لتلقّي شيء من حقيقة القرآن يهتزّ فيها اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً. ويقع فيه من التغيّرات

(١) تفسير ابن كثير، ج ٧ ص ٤٧٨ (دار طيبة).

(٢) راجع: تفسير البغوي ج ٧ ص ٤٢٩ والتحرير والتنوير لابن عاشور، ج ٢٧ ص ١٨٣

مؤسسة التاريخ العربي.

والتحوّلات ما يمثّله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام، أو أشد. واللّه خالق الجبال ومنزل القرآن يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

والذين أحسّوا شيئاً من مسّ القرآن في كيانه، يتذوّقون هذه الحقيقة تذوقاً لا يعبر عنه إلاّ هذا النصّ القرآني المشعّ الموحّي، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وهي خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير^(١).

١٠. الدعوة العاشرة:

قوله تعالى ﴿وَإِنلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وهذا أمرٌ من ربّ محمد لمحمد صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم ليقرأ كتاب ربه ثم يتبعه ويعمل به، لأنّ التلاوة في معناها جامعة بين القراءة والاتباع، بين القراءة والعمل، ولا يمكن أن يجمع بينهما أحداً لم يفهم ما قرأ ولم يتفكّر فيما تلا، فكان الأمر بالتلاوة أمراً بالتدبّر بطريق التضمّن أو اللزوم. وقد نبّه المفسرون إلى هذا المعنى كلُّ بعبارته.. قال النسفي رحمه الله: «تقرباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه ولتقف على ما أمر به ونهى عنه»^(٢).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦ ص ٣٥٣٢.

(٢) تفسير النسفي، ج ٣ ص ٧٥.

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: «تَقَرُّباً إِلَى اللهِ تَعَالَى بِقِرَاءَتِهِ وَتَذَكُّراً لِمَا فِي تَضَاعِيفِهِ مِنَ الْمَعَانِي وَتَذَكِيراً لِلنَّاسِ وَحِمَلاً لَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَمَحَاسِنِ الْأَدَابِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»^(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: «فِيهِ الْأَمْرُ بِالتَّلَاوَةِ لِلْقُرْآنِ، وَالْمَحَافَظَةُ عَلَى قِرَاءَتِهِ مَعَ التَّدَبُّرِ لِآيَاتِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ»^(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «يَأْمُرُ تَعَالَى بِتِلَاوَةِ وَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ، وَهُوَ هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ، وَمَعْنَى تِلَاوَتِهِ اتِّبَاعُهُ، بِامْتِثَالِ مَا يَأْمُرُ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ، وَالِاهْتِدَاءُ بِهَدَاهِ، وَتَصَدِيقُ أَخْبَارِهِ، وَتَدَبُّرُ مَعَانِيهِ، وَتِلَاوَةُ أَلْفَاظِهِ، فَصَارَ تِلَاوَةُ لَفْظِهِ جُزْءُ الْمَعْنَى وَبَعْضُهُ، وَإِذَا كَانَ هَذَا مَعْنَى تِلَاوَةِ الْكِتَابِ، عَلِمَ أَنَّ إِقَامَةَ الدِّينِ كُلِّهِ، دَاخِلَةٌ فِي تِلَاوَةِ الْكِتَابِ»^(٣).



وَمِنْ دَعْوَةِ الْقُرْآنِ: امْتِدَاحُ الْمُتَدَبِّرِينَ وَأَحْوَالِهِمْ:

وَمِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الدَّاعِيَةِ إِلَى التَّدَبُّرِ مَظْهَرٌ لِمَقَامِهِ مَبِينَةٌ لِفَضْلِهِ فِي أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَطَاعَاتِهِمْ؛ نَتَمَادَى قَلِيلاً مَعَ الْقُرْآنِ الْجَلِيلِ لِنَتْلُو مَا فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَدَبِّرِينَ وَرِضَا الرَّحْمَنِ بِهِمْ وَبِحَالِهِمْ،

(١) تفسير أبي السعود، ج ٥ ص ٢٦١.

(٢) فتح القدير للشوكاني، ج ٥ ص ٤٤٤.

(٣) تفسير السعدي، ص ٦٣٢.

ومدحه لهم ولفعالهم، وثنائه عليهم، تصريحاً أو تلميحاً أو سياقاً،
فنفهم التوجيه الرباني والدعوة الإلهية الحبيبة إلى نفوس أهل القرآن
والإيمان أن: كونوا مثلهم، وتشبهوا بهم في حياة التدبر الطيبة الرضية،
وعيشة المتدبرين الماتعة الهنيئة.

❖ ومن تلك الأحوال الراقية للمتدبرين المحمودة عند رب العالمين:
اقشعرار الجلود من خشية الله عند التلاوة، ولين الجلود والقلوب إلى
ذكر الله في الترتيل قراءة أو استماعاً، وذلك قوله عز وجل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فعند تلاوته واستماع قراءته: «تَقْشَعِرُّ مِمَّا سَمِعُوهُ أَوْ تَلَوَهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خَاصَّةً، لا جلود الغافلين ولا جلود قساة القلوب ولا جلود
المنصرفين عن تدبره المصروفين عن تفهمه والاعتاظ به، تقشعر
جلودهم، وهو: «وقف شعرا الإنسان عندما يداخله خوف، ولين قلب عند
سماع موعظة أو زجر قرآن ونحوه، وهذه علامة وفزع المعنى المخشع في
قلب السامع»^(١).

ومن عظيم ما لهؤلاء المقشعرة جلودهم عند تدبر القرآن!! المستلينة

(١) انظر: تفسير ابن عطية المحرر الوجيز، ج ٤ ص ٥٢٨.

قلوبهم عند سماعه وتفهمه!! ما جاء في الخبر أن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فرقت القلوب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اغْتَنِمُوا الدُّعَاءَ عِنْدَ الرَّقَّةِ فَإِنَّهَا رَحْمَةٌ)^(١). وقد سأل عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُرْوَةَ بْنُ الزُّبَيْرِ جَدَّتَهُ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: « كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؟ » قَالَتْ: « كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللَّهُ، تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ »^(٢). وكان عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: (إِذَا وَجَدْتُمْ قُشْعِرِيرَةً وَدَمْعَةً، فَادْعُوا عِنْدَ ذَلِكَ)^(٣).

❖ ومن تلك الأحوال الشاهدة لحياة قلب المُرْتَلِّ التَّالِي لكتاب الله! الفاهم لخطابه المجيد! المتدبر لآياته وسوره الكريمة!!: الترقى في مدارج اليقين إلى درجة الكمال، والازدياد المتواصل في معاني الإيمان

(١) أخرجه ابن شاهين في الترغيب، برقم ١٥٢، والشهاب القضاعي في مسنده برقم ٦٩٢، وضعفه الألباني في السلسلة برقم ٢٥١٢، وذكر أن سند القضاعي ضعيف بسبب محمد بن حامد بن السري وقال: هذا لم أعرفه". قلت: ومحمد بن حامد بن السري هو خال السني توفي سنة تسع وتسعين ومائتين، وقد وثقه الذهبي في التاريخ، راجع: تاريخ الإسلام بتحقيق بشار، ج ٦ ص ١٠٢٠ الترجمة رقم ٤٠٨، وبهذا يكون الحديث مقبولاً والله الحمد.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق، برقم ١٠١٦، وسعيد بن منصور في سننه ج ٢ ص ٣٣١، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٩٠٠.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد، برقم ٣٣٤، ص ٥٢.

ومقتضياتها، حتى ينعكس ذلك في نصاعة التوحيد وإحسان الطاعة؛ إخباراً، وذكرًا، وتوكلًا، وصبرًا، وإحياءً للصلة بينه وبين ربه بالصلاة والزكاة والنفقة في سبيله، حبًّا لله، ورضًا بأمره ونهيه، ورغبًا ورهبًا لله رب العالمين، وذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥، ٣٤].

وقد فسرت أم الدرداء الوجل فقالت: «إنما الوجل في قلب ابن آدم كاحتراق السعفة؛ أما يجد لها قشعريرة؟» قالوا: بلى، قالت: «فادعوا إذا وجدتم ذلك، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك»^(١).

والمعنى البديع لو جل قلوب التالين لكلام الله والسامعين لآياته المحيين لخطابه: «أن يخرجهم الوجل عن أوطان الغفلة، ويزعجهم عن مساكن الغيبة. فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة وفاءوا إلى مشاهد الذكر نالوا السكون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقًا

(١) أرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم ١٠٩٨.

على تصديق، وتحقيقاً على تحقيق^(١).

وهذه الحالة من وجل القلوب عند تلاوة الكلام المقدس أو سماع الخطاب المعجز من روافع المؤمن من درجات التردد والمغالبة إلى مصاف التصديق واليقين، فيتحقق عندئذ كمال الإيمان المستحق بالتعبير له بالقصر والحصر ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...﴾، وكأنه يعني: من لم يجل قلبه إذا ذكر الله، ولم تزد تلاوة آيات الله إيماناً مع إيمانه، ولم يتوكل على الله، ولم يقيم الصلاة، ولم ينفق، لم يدرك كمال الإيمان الحق المتحقق بوجل القلب فاستحقوا شهادة القرآن وبشارته ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا!! لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

✽ ومن أحوال المتدبرين الممدوحة المرضية عند رب العالمين، الدالة على حسن التدبر لكتاب الله، والفهم لكلامه المعصوم وخطابه المقدس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ والتأثر البليغ العليم بمواعظ القرآن فيتنبه لمطلوباتها، ويفهم مدلولاتها، فتستجيش المواعظ في قلبه فيخفق شوقاً إلى ربه، فتسيل الجفون بماء العيون وتنهمر الدموع تبلل الأذقان المخرة ساجدة لربها، وتأبى الصدور من السكون فتضطرب أزيزاً كالمراجل والقدور، فتستجيب الألسن مناجية مقرّة لله بالتنزيه الذي لا يشوبه تنقيص ولا تشبيه: ﴿سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كَانُوا وَعُدُّوا رَبَّنَا لَمَفْعُولًا﴾، ثم يزدادون كلما

(١) راجع: تفسير القشيري، ج ١ ص ٦٠٢.

سمعوا القرآنَ لينَ قلبٍ ورطوبةَ عينٍ، وذلك قول الله تعالى ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ
أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كَانُوا وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُونَ لَا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

﴿ولعلَّ هذه الأحوال الراقية العالية التي يثمرها التدبر المتفاعل مع
آيات الله؛ هي حال العليين من صفوة الأمم، وما يكون عليه النبيون من
قادة البشر، المبشرين المندرين، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن!! وقرأ
معي إن شئت قول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ
وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا
وَبُكْيًا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿ومن تلك الأحوال حال أهل المعرفة حين تنساب آيات الرحمن
إلى آذانهم فيسمعون ما أنزل ربهم إلى الرسول الكريم ﷺ، ويسري بنشوة
إلى شغاف قلوبهم؛ فتستقر المعرفة بالله فيها فتفيض أعينهم من الدَّمْعِ مما
عرفوا من الحق، يصفهم ربهم بمشاهد دلائل الرضا والقبول،
فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى
أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ ﴿[المائدة : ٨٣]﴾^(١).

ومن كان مستنًا فليستنَّ بهؤلاء وأولئك، فإنهم صفوة الناس أجمعين،
وخير البشر وسادة المؤمنين، وأئمة المنتفعين بكتاب الله وآيات الرحمن
وسور القرآن، بتوفيق رب العالمين الفتح العليم.



(١) قيل: هم النجاشي والوفد الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وقيل: هم وفد
نجران وكانوا نصارى، وراجع في ذلك: تفسير ابن جزي التسهيل لعلوم التنزيل،
ج ١ ص ٣٧٥.

المطلب الثالث

دعوة السُّنة إلى التدبُّر

ومما يزيدك تعلقاً بتدبُّر كتاب الله ويرفع همتك إلى التفكُّر والتفهِّم والاستمتاع بتلاوة آيات القرآن على أجمل حال وأسعد حال، فتعرف حقَّ التدبُّر وفضله ومقام المتدبِّر ومكانه بين المتعبدين الناسكين والذاكرين المرتلين؛ دعوة السُّنة إلى التدبُّر وتحفيزها وترغيبها مع ما رأينا من دعوة القرآن.

وإليك بعضاً منها:

◀ ① حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ). وفي رواية: (إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) ^(١).

ف نجد صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يتأول هذا الحديث العظيم فيقول: «عليكم بالقرآن، فتعلموه وعلموه أبنائكم، فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون، وكفى به

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٥٠٢٧، و٥٠٢٨، وأبو داود برقم ١٤٥٤، والترمذي برقم ٢٩٠٧، وأخرجه عن علي رضي الله عنه برقم ٢٩٠٩، وابن ماجه برقم ٢١١ بلفظ (أفضلكم...).

واعظًا لمن عقل»^(١).

فجعل رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وتعليمه لتحقيق الاتعاظ والاعتبار والتحقق بالتعقل والتفهم لكلام الله، وليس ذلك إلا التدبر .

قلت: ومن رأى أَنَّ الأفضلية في الحديث إنما لمن تَعَلَّمَ قراءة القرآن وضبط حروفه وعَلَّمَ غيره قراءة حروفه دون فهمه وتدبره؛ نقول: إن كانت الخيرية للقراءة؛ فكيف لمن تَعَلَّمَ قراءته وعَلَّمه!! فتَعَلَّمَ مع مبانيه معانيه!! ووقف على مقاصده ومراميّه!! ووصل إلى حِكَمِ أوامره وعبر نواهيّه!! وحَصَّل غاياته ومواعظ آياته!!؟؟ لا شكَّ أَنَّ هذا الآخر أكثر خيرية من ذاك الأوَّل، وأنَّ المتدبِّر لما تَعَلَّمه ويعَلَّمه أعظم وأفضل، ويؤكد هذا المعنى قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ولا خير في قراءة لا تدبر فيه»^(٢).

وقد ورد هذا المعنى لدى الأئمة رَحِمَهُمُ اللهُ فنجد القاري رَحِمَهُ اللهُ في المراقبة يقول: «ولا يُتَوَهَّم أَنَّ العمل خارجٌ عنهما، لأنَّ العلم إذا لم يكن مورِّثًا للعمل؛ ليس علمًا في الشريعة، إذ أجمعوا على أَنَّ من عَصَى الله فهو جاهل».

ونجد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يقول: «ولهذا دخل في معنى قوله صلى الله

(١) شرح ابن بطلال لصحيح البخاري ج ١٠ ص ٢٦٦.

(٢) سبق تخريجه.

عليه وسلم: (خيركم من تعلّم القرآن وعلمه) تعليم حروفه ومعانيه جميعاً؛ بل تعلّم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان»^(١).

ويقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «فإن قيل: يلزم أن يكون المقرئ أفضل من الفقيه؛ قلنا: لا، لأنّ المخاطبين بذلك كانوا فقهاء النفوس، لأنهم كانوا أهل اللسان، فكانوا يدرون معاني القرآن بالسليقة أكثر مما يدريها من بعدهم بالاكتساب، فكان الفقه لهم سجية، فمن كان في مثل شأنهم شاركهم في ذلك لا من كان قارئاً أو مقرئاً محضاً لا يفهم شيئاً من معاني ما يقرؤه أو يقرئه»^(٢).

◀ ② ومما نجده في السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام حديث تميم الداري - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي جعل النووي رَحِمَهُ اللهُ مدارَ الإسلام عليه، وجعله جماعات من العلماء أحد أرباع الإسلام، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)^(٣).

(١) مجموع الفتاوى، ج ١٣ ص ٤٠٣، الفتاوى الكبرى، ج ٤ ص ٤٢٣.

(٢) راجع قوليهما في تحفة الأحوذى، ج ٧ ص ٢٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٠٥، وأبو داود برقم ٤٩٤٦، والنسائي برقم

٤١٩٧، وأحمد في مسنده برقم ١٦٩٨٢، وذكره البخاري في صحيحه باب قول

النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة.. ج ١ ص ٢٢. واللفظ لغير مسلم.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعْنَى النّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ: « وَالنّصِيحَةُ لِكِتَابِهِ: تَفْهَمُ عُلُومَهُ وَأَمْثَالَهُ، وَالْإِعْتِبَارُ بِمَوَاعِظِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِي عَجَائِبِهِ »^(١). وَهَذَا هُوَ التَّدَبُّرُ لَا غَيْرُهُ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: « النَّصْحُ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى: هُوَ الْإِيمَانُ بِهِ، وَتَحْسِينُ تِلَاوَتِهِ، وَتَفْهَمُ مَعَانِيهِ، وَتَدَبُّرُ آيَاتِهِ، وَتَوْقِيرُهُ وَتَعْظِيمُهُ، وَالدَّعَاءُ إِلَيْهِ، وَالذَّبُّ عَنْهُ »^(٢).

وَقَالَ ابْنُ رَجَبِ الْحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: « وَأَمَّا النّصِيحَةُ لِكِتَابِهِ: فَشِدَّةُ حُبِّهِ، وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ، إِذْ هُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ، وَشِدَّةُ الرِّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ، وَشِدَّةُ الْعَنَاءِ فِي تَدَبُّرِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لَطَلَبُ مَعَانِي مَا أَحَبَّ مَوْلَاهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ، أَوْ يَقُومَ بِهِ لَهُ بَعْدَ مَا يَفْهَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّاصِحُ مِنَ الْعِبَادِ يَفْهَمُ وَصِيَّةَ مَنْ يَنْصَحُهُ إِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْ عُنْيٍ بِفَهْمِهِ لِيَقُومَ عَلَيْهِ بِمَا كَتَبَ بِهِ فِيهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ النَّاصِحُ لِكِتَابِ رَبِّهِ، يُعْنَى بِفَهْمِهِ لِيَقُومَ لِلَّهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا يَحِبُّ وَيَرْضَى ثُمَّ يَنْشُرُ مَا فَهَمَ فِي الْعِبَادِ، وَيُدِيمُ دِرَاسَتَهُ بِالْمَحَبَّةِ لَهُ وَالتَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِهِ وَالتَّأَدُّبَ بِأَدَابِهِ »^(٣).

وَهَذَا صَنِيعُ الْمُتَدَبِّرِ الْمُتَفَهِّمِ لِكَلَامِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

(١) شرح النووي لصحيح مسلم، ج ١ ص ١٤٤.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ج ٢ ص ٩.

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص ٨٩.

◀ ③ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نَفَسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده) الحديث^(١).

والشاهد من الحديث: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم...).

وأصل الدراسة الرياضة والتعهد للشيء، والقراءة والفهم من درس الكتاب يدرسه درساً ودراسة، والدَّرْس الطريق الخفي^(٢).

وهذا يكون من عَمَلِهِم الذي نالوا به تلك الخصال والمكافآت الأربع؛ مدارس القرآن قراءة وترتيلاً وتفهماً لخطابه وتفكيراً في آياته وتدبراً له.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم ٧٠٢٨، وابن ماجه في سننه برقم ٢٢٥، وأحمد في

المسند برقم ٧٤٢١.

(٢) راجع: القاموس المحيط للفيروزبادي، ص ٧٠١.

ولا شك أن هذه المدارس المحققة للفهم والتدبر؛ أعظم من مجرد قراءة بعضهم لبعض واستماع بعضهم لبعض، والله لا يشكر لطاعة ويترك ما هو أفضل منها.

وعلى هذا؛ فكل ما ورد من أحاديث في فضل قراءة القرآن كان دليلاً على فضل تدبره وتفهمه والعمل بما يقتضيه تدبره وتفهمه.

ومن ذلك:

① حديث أمنا عائشة⁹ قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَتَعَاهِدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ) هذا عند البخاري، وعند مسلم: (الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) وعند أبي داود والترمذي: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفارة الكرام البررة والذي يقرؤه وهو يشتد عليه فله أجران)^(١).

فإن كان هذا جزاء الحافظ والماهر في القراءة ومقامه!! فما بال الماهر في فهم الخطاب ومعاني القرآن؟! الماهر في استخراج درره ولآئمه من جميل المعاني والعبر؟! لا شك أنه مشمولٌ معهم بكونه مع السفارة الكرام

(١) في صحيح البخاري برقم ٤٩٣٧، وفي صحيح مسلم برقم ١٨٩٨، وفي سنن أبي داود برقم ١٤٥٦، وفي سنن الترمذي برقم ٢٩٠٤.

البررة، بل أولى بذلك من القارئ غير المتدبر، لأن القارئ المتدبر قد حقق مقصود التنزيل وتحقق بمقصود الترتيل.

وهذا عيسى بن يونس رَحِمَهُ اللهُ تعالى يقدم نصائح عظيمة جليلة لصاحب القرآن وقارئه خاصة الذي علمه الله القرآن وفصله على غيره، أقتطف منها جملاً تزيد مبحثنا حسناً ومقصودنا زيناً، فمما ينبغي لصاحب القرآن أن: «يتصفح القرآن؛ ليؤدب به نفسه، لا يرضى من نفسه أن يؤدي ما فرض الله بجهل، قد جعل العلم والفقه دليلاً إلى كل خير إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همته إيقاع الفهم لما ألزمه الله: من اتباع ما أمر، والانتفاء عما نهى، ليس همته متى أختتم السورة؟ همته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الراجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة متى أتوب من الذنوب؟ متى أعرف النعم المتواترة؟ متى أشكره عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله حق الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغض طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحي من الله حق الحياء؟ متى أشتغل بعبدي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسب نفسي؟ متى أتزود ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضياً؟ متى أكون بالله واثقاً؟ متى أكون بزجر القرآن متعظاً؟ متى أكون

بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أحب ما أحب؟ متى أبغض ما أبغض؟ متى أنصح لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أجلي؟ متى أتأهب ليوم موتي وقد غيب عني أجلي؟ متى أعمر قبري، متى أفكر في الموقف وشدته؟ متى أفكر في خلوتي مع ربي؟ متى أفكر في المنقلب؟ متى أحذر مما حذرني منه ربي من نار حرّها شديد وقعرها بعيد وعمقها طويل»^(١).

② حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ، قالوا: ومن هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)^(٢).

وأهل القرآن: من حفظ حروفه، والتزم قراءته، وداوم تلاوته، وعلمه الناس، ورغب إليه، وخدم طلابه، وأعان على الدنيا حفاظه، وأقام مؤسساته، وبذل حياته ووقته في إدارتها وترتيبها والإنفاق عليها، وغير ذلك.

ولكن فهل من فسّره، وبَيّن معانيه؛ يكون من غير أهل القرآن؟!

(١) أخلاق حملة القرآن، للأجري، ص ٣٦ - ٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٢٣٠١، وابن ماجه في السنن برقم ٢١٥، والنسائي في فضائل القرآن برقم ٥٦ وفي السنن الكبرى برقم ٧٩٧٧، والبخاري في مسنده برقم ٧٣٦٩، والطحاوي في مسنده برقم ٢٢٣٨. وحسن شعيب الأرنؤوط إسناده أحمد

(٣ / ١٢٧) وصحّح الألباني إسناده ابن ماجه (١ / ٧٨).

وهل من عصر فكره وأنعم نظره وعمّق فهمه في آياته؛ لا يكون من أهل القرآن؟!.

بل هم من أوّل صفوف أهل القرآن نرجو أن يبشروا بذلك الاختصاص، ويحشروا في زمرة من لم يكونوا قدامهم.

③ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن: يا رب! حَلِّهِ، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب! زده، فيلبس حُلَّة الكرامة. ثم يقول: يا رب! ارض عنه، فيرضى عنه. فيقال له: اقرأ وارق، ويزاد بكل آية حسنة) (١).

وصاحب القرآن القارئ له بفهم وتدبر يفتش في أدبار الظواهر والألفاظ معانيه، ويحصل مقاصده ومراميها، ويستخرج دُرَره وعِبَره، وقد زاد في الاعتناء بالقرآن من القارئ وأظهر من رغبته في فهم خطاب مولاه أزيد منهم، وعرض جلال القرآن وجماله للعالمين أكثر منهم؛ فكيف ينساه القرآن ويغفل عنه؟. فهو منهم إن لم يكن سابقهم ومقدمهم!!.

فكلّ هذه الأحاديث وغيرها داعية إلى تدبر القرآن مرغبة في تفهمه والتفكر في معانيه ومدلولاته، والتأمل في دلالاته وسياقاته، ليخرج

(١) أخرجه الترمذي برقم ٢٩١٥ بلفظ (يجيء القرآن..)، وقال الترمذي: هذا حديث

حسن صحيح. والبخاري برقم ٩٠٣٥، والحاكم في المستدرک برقم ٢٠٢٩ وقال:

هذا حديث صحيح الإسناد.

بمطلوبات التلاوة والترتيل من العلم اللائق بخطاب الله الرائق بأولي
الألباب. والحمد لله رب العالمين.



المطلب الرابع

حثّ العلماء على التدبّر

أكثر العلماء في كل عصرٍ وجيلٍ من التنبيه إلى فضل التدبّر ومكانه في أعمال المسلم ومقامه بين العلوم والطاعات، يدعون الناس إليه، ويحثونهم عليه رحمهم الله تعالى.

ومن القرون الخيرة وأجيال البررة بدأ الحثّ والدعوة إلى تدبّر القرآن..

◀ فنجد الصحابة رضوان الله عليهم يحثّون على تدبّر القرآن والسعي إلى تفهّمه، فيقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أديموا النظر في المصحف»^(١). وهو شاملٌ لنظر القراءة ونظر التأمل والتفهم والتدبّر.

ونجد حبر الأمة عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحثّ المسلمين على التدبّر ويحضّهم ويحرّضهم عليه فيقول: «لأنّ أقرأ البقرة وآل عمران أرّتلها وأتدبّرهما أحبّ إليّ من أن أقرأ القرآن هذرمةً». وقال: «لأنّ أقرأ إذا زلزلت والقارة أتدبرهما أحبّ إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً»^(٢).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم ٨٦٠٦.

(٢) راجعهما في: إحياء علوم الدين، ج ١ ص ٢٧٧، وكأن الرواية الثانية تنتمه لكلامه

ويقول زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأن أقرأ القرآن في شهر أحب إلي من أن أقرأه في خمس عشرة، ولأن أقرأه في خمس عشرة أحب إلي من أن أقرأه في عشر، ولأن أقرأه في عشر أحب إلي من أن أقرأه في سبع أقف وأدعو»^(١).

وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لأن أعرب آية من القرآن أحب إلي من أن أحفظ آية»^(٢).

كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أعربوا القرآن، فإنه عربي، وتفقهوا في السنة»^(٣).

وروي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله

الأول، وكأنها: "لأن أقرأ البقرة وآل عمران... أحب إلي من أن أقرأ القرآن هزيمة، ولأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً" والله أعلم. والهدمة: سرعة الكلام والقراءة، والهدر الكثير الكلام، والذي لا يعبأ من الكلام، ولعله يقصد هذا المعنى، بقوله: تهذيراً، أي: لا يعبأ بمعانيه، وأنه يكثر منه دون نظر وتدبر. والله أعلم. ويراجع: القاموس المحيط للفيروزابادي ص ٦٣٩، وص ١٥٠٩، وتاج العروس، ج ١٤ ص ٤١٨.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٨٦٧٣،

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، برقم ٦٢١، ص ٣٤٨ تحقيق مروان العطية وآخرين، وانظر الإتيان للسيوطي، ج ٢ ص ٤٩٥.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٠٩٨، سعيد بن منصور في سننه برقم ٧٠ ج ٢ ص ٢٧٠.

أجر شهيد»^(١).

وقال ابن عمر وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أعربوا القرآن»^(٢).

والإعراب هو الإبانة والإفصاح وتهذيب المنطق من اللحن^(٣)، ولعله في إبانة الغريب أقرب للرواية في طلب الغريب والتماسه، كما في رواية أبي يعلى مرفوعاً: (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبهم)^(٤). وليس هو المعروف في الأزمنة المتأخرة بتغيير أو آخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديرًا. فهذا مصطلح حديث مخصوص بالنحو، بل الإعراب في أصله هو البيان والفهم لا سيما للغرائب.

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إعراب القرآن أصلٌ في الشريعة، لأنَّ بذلك

(١) الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، ج ٢ ص ٤٩٥.

(٢) أما عن ابن عمر فقد أخرجه سعيد بن منصور في سننه برقم ٧١، وكذلك أخرج عن ابن مسعود في سننه برقم ٢٩، ج ١ ص ١٤٦، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود في المعجم الكبير برقم ٨٦٠٤، ٨٦٠٥، ج ٨ ص ٤٧. وأعربوا القرآن روي مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة عند الحاكم برقم ٣٦٤٤ وصححه، وعند أبي يعلى في المسند برقم ٦٥٦٠، والطبراني في المعجم الكبير من حديث ابن مسعود برقم ٨٦٠٣، وفي المعجم الأوسط برقم ٧٥٧٤، وضعفوا المرفوع لضعف عبد الله المقبري مع أن الطبراني أخرجه بغير طريق المقبري.

(٣) راجع: القاموس المحيط، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٤) مسند أبي يعلى برقم ٦٥٦٠، ج ٦ ص ٩٠.

تقوم معانيه التي هي الشرع»^(١).

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى هذه الآثار عندي إرادة البيان والتفسير لأن إطلاق الإعراب على الحكم النحوي اصطلاح حادث»^(٢).

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لا تنثروه "أي القرآن" نثر الدَّقْل»^(٣)، ولا تهذّوه هذّ^(٤) الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»^(٥).

وكان يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إلزموا كتاب الله، وتتبعوا ما فيه من الأمثال،

(١) تفسير ابن عطية المحرر الوجيز، ج ١ ص ١٥٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ج ٢ ص ٤٩٥.

(٣) الدَّقْل - بفتح الدال والقاف، وفي آخره لام - ثمر الدَّوْم وهو يشبه النخل وله حب كبير وفيه نوئ كبير عليه لحيمة عَفِصَةٌ تؤكل رطبة، فإذا يبس صار شبه الليف. وقيل: الدقل أردأ التمر، والبرني أجوده، وتراه ليسه وردائته لا يجتمع ويكون منثوراً، وقيل: شبهه بتساقط الرطب اليابس من العذق إذا هُزّ. راجع: نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، للعيني، ج ٥ ص ٤٤٠.

(٤) والهدّ: سرعة القراءة أي: أسرع كسرعة من يسرع في قراءة الشعر. وقال النووي: الهدّ - بتشديد الذال - هو شدة الإسراع والإفراط في العجلة، ففيه النهي عن الهدّ، والحث على الترسّل والتدبر، وبه قال جمهور العلماء. راجع: المصدر السابق، نخب الأفكار، الموضوع السابق نفسه.

(٥) أخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن بسنده ص ١٩.

وكونوا فيه من أهل البَصَر»^(١).

وكل هذا دعوة لنا للتدبّر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لزموا القرآن وفهموه وتدبّروه.

◀ وفي عصر التابعين بإحسان نجد الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ يدعو ويحثّ على التدبّر منكرًا على أهل عصره وأيامه كيف اكتفوا بقراءة القرآن دون تدبّره وتفهم معانيه واستخراج درره ولآلئه فيقول: «إنكم اتخذتم القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً تركبونه، فتقطعون به المراحل، وإنّ من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبّرونه بالليل، وينفذونها بالنهار»^(٢).

وهو الذي قال رَحِمَهُ اللهُ: «ما أنزل الله آيةً إلّا وهو يحبّ أن تعلم فيما أنزلت وما أراد بها»^(٣).

وفي معنى قوله تعالى ﴿لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] قال رَحِمَهُ اللهُ: «وما تدبّر آياته إلّا اتباعه، ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده»^(٤).

ومن أجمل ما يعبر عن حقيقة القرآن وما يدعو إلى تدبّره الذي كان

(١) أخلاق حملة القرآن، للأجري ص ٢٠.

(٢) إحياء علوم الدين، ج ١ ص ٢٧٥. وتفسير ابن عطية، ج ١ ص ١٥٢.

(٣) الإتيان نفسه ج ٢ ص ٤٩٥.

(٤) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، برقم ٥٩٨٤، وشرح السنة للبغوي، ج ١ ص ١٨٩.

يردده عطاء رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى: « إِنَّمَا الْقُرْآنُ عِبْرٌ، إِنَّمَا الْقُرْآنُ عِبْرٌ »^(١).

◀ وقال الحافظ ابن حجر رَحْمَةُ اللَّهِ: « مَنْ رَتَّلَ وَتَأَمَّلَ كَمَنْ تَصَدَّقَ بجوهرة واحدة ثمينة، ومن أسرع كمن تصدق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات »^(٢).

و كأنه يتأول قول الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٤] ولقد قال ابن جزي رَحْمَةُ اللَّهِ في تفسيره: « الترتيل هو التمهّل والمدّ وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك مُعِينٌ على التفكّر في معاني القرآن، بخلاف الهذر الذي لا يفقه صاحبه ما يقول، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقْطَعُ قراءته حرفاً حرفاً، ولا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب، إلا وقف وتعوّذ »^(٣).

◀ وقال ابن الجوزي رَحْمَةُ اللَّهِ: « لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ أَشْرَفَ الْعُلُومِ، كَانَ الْفَهْمُ لِمَعَانِيهِ أَوْفَى الْفَهْمِ، لِأَنَّ شَرَفَ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ »^(٤). وعليه:

وإذا طلبت العلم فاعلم أنه

(١) أخلاق حملة القرآن، للأجري، ص ٢١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، ج ٩ ص ٨٩.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، ج ٤ ص ١٥٧.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ج ١ ص ٣.

حِمْلٌ فَأَبْصِرْ أَيَّ حِمْلٍ تَحْمِلُ

وَإِذَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ مُتَفَاضِلٌ

فَاشْغَلْ فُؤَادَكَ بِالَّذِي هُوَ أَفْضَلُ.

ولا شكَّ أنَّه الاشتغال بفهم الكتاب وتدبر آياته والوقوف عند عظاته.

◀ ولعلَّ صاحب الكشف رَحِمَهُ اللهُ يَقْصِدُ التَّدَبُّرَ بِمَقَالِهِ وَإِنْ نَصَّ عَلَى التَّفْسِيرِ فِي قِيلِهِ، بِقِرَائِنِ الْوَصْفِ الَّذِي فِي كَلَامِهِ حِينَ قَالَ: «إِنَّ أَمْلَأَ الْعُلُومِ بِمَا يَغْمُرُ الْقِرَائِحَ، وَأَنْهَضُهَا بِمَا يَبْهَرُ الْأَلْبَابَ الْقَوَارِحَ، مِنْ غَرَائِبِ نَكْتٍ يَلْطَفُ مَسْلُكُهَا، وَمُسْتَوْدَعَاتِ أَسْرَارٍ يَدِقُ سَلْكُهَا»^(١). فِهَذَا أَلِيقٌ بِالتَّدَبُّرِ وَأَصْدَقُ فِيهِ.

◀ وَيَجْعَلُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ التَّدَبُّرَ مِنْ أَعْظَمِ النَّوَافِلِ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَقُولُ: «وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ النَّوَافِلِ: كَثْرَةُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَسَمَاعُهُ بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَفْهَمٍ»، نَاقِلًا قَوْلَ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِرَجُلٍ: «تَقَرَّبْ إِلَى اللهِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ»^(٢). أَيُّ: فَهَمًّا وَتَدَبُّرًا وَتَخْلُقًا وَأَدَبًا وَسُلُوكًا.

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج ١ ص ٥.

(٢) جامع العلوم والحكم نفسه، ص ٣٨٢ شرح الحديث (٣٨).

◀ ولنستمع إلى الإمام الآجري رَحْمَةُ اللَّهِ يَحْتِ وَيَدْعُو إِلَى الْاَعْتِنَاءِ بتدبر القرآن فيقول: « أمر الله خلقه أن يؤمنوا به، ويعملوا بمحكمه فيحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويعتبروا بأمثاله ويقولوا آمنا به كل من عند ربنا، ثم وعدهم على تلاوته والعمل به النجاة من النار، والدخول إلى الجنة، ثم ندب خلقه عز وجل إذا هم تلوا كتابه أن يتدبروه، ويتفكروا فيه بقلوبهم، وإذا سمعوه من غيرهم أحسنوا استماعه، ثم وعدهم على ذلك الثواب الجزيل، فله الحمد، ثم أعلم خلقه أن من تلا القرآن وأراد به متاجرة مولاه الكريم، فإنه يربحه الربح الذي لا بعده ربح، ويعرفه بركة المتاجرة في الدنيا والآخرة »^(١).

ويقول في موضع آخر: « ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلو؟ ولم يكن مراده متى أختتم السورة؟ وإنما

(١) أخلاق حملة القرآن، للآجري، ص ١٤ - ١٥.

مراده متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق»^(١).

◀ ويوجه الإمام النووي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي أَذْكَارِهِ أَهْلَ الذِّكْرِ إِلَى أَفْضَلِ الذِّكْرِ فيقول: « اعلم أن تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار، والمطلوب القراءة بالتدبر ».

ثم يدعو رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى التَّدَبُّرِ حَاشًا عَلَيْهِ وَعَلَى آدَابِهِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ مُسْتَحَبًّا ذَلِكَ يَقُولُ: « يَنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ، وَالتَّدَبُّرَ، وَالْخُضُوعَ، فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، وَدَلَائِلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْصُرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تَذْكَرَ. وَقَدْ بَاتَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَتْلُو الْوَاحِدَ مِنْهُمْ آيَةً وَاحِدَةً لَيْلَةً كَامِلَةً أَوْ مَعْظَمَ لَيْلَةٍ يَتَدَبَّرُهَا عِنْدَ الْقِرَاءَةِ »^(٢).

◀ وَرَحِمَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ الْخَوَاصَّ وَهُوَ يَنْبَغِي إِلَى أَنْ دَوَاءَ الْقُلُوبِ وَسَلَامَةُ الصُّدُورِ وَنُورُ النُّفُوسِ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَمَعِينَاتِهِ، لِيَحْثَ عَلَيْهِ فيقول: « دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ، خَلَاءُ الْبَطْنِ، قِيَامُ اللَّيْلِ، التَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ، مَجَالِسَةُ الصَّالِحِينَ »^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨ - ١٩.

(٢) راجعهما في الأذكار للنووي، الأول في ص ١٢٩، والثاني ص ١٣٥.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ٦١.

فخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالس الصالحين إنما تهيب القلوب وتعدّه لتلقي القرآن وتدبره.

◀ ونجد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يعلّل الدّعوة والترغيب في تدبّر القرآن فيقول: «ينبغي تدبّر القرآن ومعرفة وجوهه، فإنّ أكثر ما يتوهم النّاس أنّه قد خولف ظاهره وليس كذلك، وإنّما له دلالات يعرفها من أعطاه الله فهماً في كتابه»^(١).

ويقول في موضع آخر مبيناً أهمية التدبّر والتفكّر لمعاني القرآن طلباً لفهمه وما يقبله وما يردّه: «وأما في "باب فهم القرآن" فهو دائم التفكير في معانيه والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن فإن شهد له بالتركية قبله وإلا رده وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه»^(٢).

وَأَجْمَلَ رَحِمَهُ اللهُ المطلوب من القرآن قائلاً: «والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه، والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم، والدين»^(٣).

(١) مجموع الفتاوى، ج ٢٢ ص ٩٢.

(٢) مجموع الفتاوى، ج ١٦ ص ٥٠.

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج ٢ ص ٢٣٥، مجموع الفتاوى، ج ٢٣ ص ٥٥.

◀ ويقول الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مِنْبَهًا إِلَى أهمية التدبُّر ونفعه والحاجة إليه: «تبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب، وشفاء لما في الصدور، وبالجمل، فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكر، فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرَّجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه»^(١).

ثم يتمنى العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ لو علم الناس ما في التدبُّر من الخير والنفع وصلاح القلوب وشفائها فيقول: «فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مرَّ بآية، وهو محتاجًا إليها في شفاء قلبه؛ كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خيرٌ من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن.. فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب»^(٢).

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم، ج ١ ص ٥٣٥.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم، ج ١ ص ٥٣٥.

ومن جميل ما قال فجمع يدعو إلى التدبّر لمن رام العلم والهدى^(١):

فتدبّر القرآن إن رُمّت الهدى فالعلم تحت تدبّر القرآن.



(١) شرح نونية ابن القيم ، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، ج ١ ص ٣١٥.

المبحث الثاني

أهمية التدبّر والحاجة إليه

إنّ مقام التدبّر — كما تقرّر — سامقٌ، ومكانه عالٍ، فكانت الدعوة إليه للترُّع بالعقل والقلب على العلوّ السامق والتطلّع إلى المكان العالي؛ لتكون حياته كلّها تنزّهاً سعيداً في حدائق القرآن البهيّجة، يرتع عقله وفهمه في آياته فيقطف المعاني البهية، فيثمر ذلك الحياة الطيبة على الأرض، والهداية الناصعة على القلب، ثم يوصل إلى اليقين الراسخ بالله وبدينه وبكتابه، ويرفع بالمتدبّر إلى الشرف الباذخ بين المؤمنين العالمين العاملين..

نعم والله!! لا يرتاب في سموّ علوّ تدبّر القرآن إلّا جهول، ولا يشكّ في سموّ شأنه إلّا معلول، ولا يعمى عن مكانه العليّ ومقامه الجليّ إلّا أعمى البصيرة أعشى البصر، ولا أدلّ على علو شأن التدبّر ومكانه السامي ومقامه السامق وأهميته والحاجة إليه مثل هذه العشرة الوجوه الوافية الآتية:

◆ موافقة المقصود الأول للقرآن..

◆ مفتاح كنوز القرآن ومعارفه..

◆ مورث اليقين..

♦ تحقيق النصيحة لكتاب الله..

♦ الصحبة الصادقة..

♦ القربة العليمة العليّة..

♦ الدُّربة على تفهّم القرآن..

♦ سبيل الاعتاز والاعتبار..

♦ وطريق التخلية والتحلية..

♦ ماء حياة القلوب..

ويمكن بيان هذه الوجوه على ما يلي:

[١] موافقة المقصود الأول للقرآن:

فإنَّ المتدبّر لكتاب الله تعالى يوافق بصنيعه الجميل المقصودَ الربّانيَّ الأول من إنزال القرآن الكريم على قلب الحبيب المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، إذ مقصوده الأول من إنزاله القرآن هو تدبُّره بفطر الذهن وقوة القريحة، إذ القرآن هو كلام الله وخطابه ودعوته ورسالته ومنهاجه للعالمين.

ولقد صرّح منزل الكتاب الكريم بالمقصود العظيم من إنزاله في قوله الكريم: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. ففيه أن الله جلّ وعلا إنما أنزل كتابه إلى محمدٍ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثم جعله مباركاً؛ لا ليقرأوه قراءة المطلع بنظره، ولا ليرددوا مكتوبه ترديد اللسان لا يجاوز حناجرهم، فهذا منكور على صاحبه، وقد جاء النكير في وصف طائفتهم على لسان الذي أنزلت إليه هذه الآية ﷺ وهو يقول في وصفهم: (يَخْرُجُ قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ) ^(١).

ومن كان كذلك؛ يُخْشَى عليه أن ينتهي به حال القراءة الجافة الجوفاء للقرآن المبارك إلى المروق من الدين وإلى البغي والتعدي على إخوانهم من المسلمين، يسلم منهم المشرك ولا يسلم المسلم، كما جاء في صحيح البخاري: (يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ) ^(٢).

لذلك؛ فإنَّ كلَّ مطلوب لبيان القرآن رتبته تالٍ لتدبره، وكل طريق لكشف معاني القرآن يأتي في أهميته بعد التدبر، سواء أكان تفسيراً لألفاظه، أو تأويلاً لآياته، أو استنباطاً لمدلولاته وأحكامه، أو بياناً لمعانيه؛ بأي طريقٍ مسلوک، إذ التدبر متقدّم على ما سواه في حكم التنزيل ومقاصد الترتيل.

فالتدبر هو المقصود الأول، والتدبر هو الأعظم مطلوباً في التعامل

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١١٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٣٣٤٤، ومسلم في صحيحه برقم ١٠٦٤.

مع القرآن، والتدبر هو الأبلغ حكمة من حِكَم التنزيل البالغة. كما يقول السعدي رَحِمَهُ اللهُ عند قوله عز وجل ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾: «أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تُدرِكُ بركته وخيرُه»^(١).

ويقول الهري رَحِمَهُ اللهُ في حقائق الروح والريحان: «وفي الآية دليل على أن الله سبحانه، إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة، بدون تدبر»^(٢).

ويقول الزحيلي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: «أنزله تعالى للناس للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر، وليتعظ أهل العقول الراجحة به وببيانه»^(٣).

وقد قال من قبلهم الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: «.. الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر»^(٤).

ومن قبلهم قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «التأمل في القرآن هو

(١) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٧١٢.

(٢) تفسير حقائق الروح والريحان في رواي علوم القرآن، للهري، ج ٢٤ ص ٣٧٤.

(٣) التفسير المنير، أ.د. وهبة الزحيلي، ج ٢٣ ص ١٩٥.

(٤) تفسير الشوكاني، فتح القدير، ج ٤ ص ٤٣٠.

تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر^(١). وقال رحمه الله: «أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه»^(٢).

وقد سبقهم إلى تقرير ذلك الإمام المحقق ابن الجزري رَحِمَهُ اللهُ فِي النشر فقال: «المقصود من القرآن فهمه، والتفقه فيه، والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه»^(٣).

[٢] مفتاح كنوز القرآن ومعارفه:

فالتدبر هو مفتاح علوم القرآن ومعارفه، فمن أراد التفسير الحق لمعاني الكتاب الكريم؛ فعليه بمفتاح التدبر حتى تجتمع المعاني عليه في قصر البيان!!، ومن ابتغى التأويل لمدلولاته؛ فليستخدم مفتاح التدبر حتى يصدق التأويل فيتزّه في حدائقه البهيجة!!، ومن قصد الاستنباط لحكمه وأحكامه؛ فلا بدّ له من مفتاح التدبر حتى يصل إلى فناء المراد على ربوة البيان.

فبالتدبر يزيد الناظر في القرآن بصيرته في معانيه، ويفتح عليه كنوز

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، ج ١ ص ٤٤٩.

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج ١ ص ١٨٧.

(٣) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ج ١ ص ٢٠٩.

الدقائق من علمه ومعارفه، فيكرمه الكريم فيعطى قياد فوائده، ويرفع الحجاب عن جواهره وفرائده.. وكلّما ازداد تدبّراً؛ كلما حباه المَنَّان بكنز من أسرارهِ، ومهما زاد من تدبّره؛ زاده من لوازم أنواره، لأنّ التدبّر هو جالب كنوز لطائف الخطاب الإلهي الكريم، ومفتاح أقفال المتشابهات، ومصباح أنوار الآيات.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: « فَإِنَّ تَدَبُّرَ كِتَابِ اللَّهِ مِفْتَاحَ لِلْعُلُومِ والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلّما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرةً، لذلك أمر الله بذلك وحثّ عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن^(١)... وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار^(٢) ».

وكما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: « في تدبّر القرآن وتفهمه من مزيد العلم

(١) تفسير السعدي، ص ١٩٠.

(٢) تفسير السعدي نفسه، ص ٢٩.

والإيمان ما لا يحيط به بيان»^(١).

[٣] مورث اليقين:

ولذلك نرى الله جل وعلا قد دعا إليه وحثّ عليه لنفي كل شكّ وارتباب، ودفع كلّ تردد واضطراب في كون القرآن من عنده عزّ وجلّ، فلو لم يستعمل التدبّر في التعامل مع القرآن لما حصّل اليقين في أنه خطاب الله للناس الذي أنزله على قلب سيّد الناس حبيب الحقّ صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

فاليقين في حقيقة القرآن وصدقه وصدق من جاء به وصدق كونه من عند الله الباري جلّ وعلا؛ إنما يحصل بتدبّره وتمحيص ما فيه من الدلائل السائقة إلى ذلك، وكما يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: « وهم إذا تدبّروه؛ لا يلبثون أن يعلموا صدقه، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله، فإنه إذا جاز ذلك، وكانوا قد كفروا به دون تأمل؛ كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد، وإذا كانوا كذلك فقد حقت عليهم كلمات الوعيد»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ، ج ١٠ ص ٨١ ، وأمراض القلوب وشفافؤها، لابن

تيمية ، ص ٧٥ .

(٢) التحرير والتنوير ، لابن عاشور، ج ٢٥ ص ١٦ .

وقد عدّ ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ التَّدْبِيرَ من محصّلات اليقين ومورثاته فقال:
« يحصل اليقين بثلاثة أشياء:

أحدها: تدبّر القرآن.

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنّه حقّ.

والثالث: العمل بموجب العلم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ والضمير عائد على القرآن^(١).

[٤] الصُّحْبَةُ الصَّادِقَةُ:

صحبة القرآن ماعةٌ نافعةٌ، والقرآن هو الصاحب الصادق الذي لا يَغُشُّ، والجلس الأنيس الذي لا يُملُّ، والصديق النافع الذي ما صحبته إلا عزّك، وما تلوته إلا رفعك، وما بحثت فيه إلا دعاك إلى أصناف الموائد المشتهية وأنواع الفرائد المبتغاة للعقول والألباب، ولذلك؛ كان الصحابي صاحب القرآن الجليل المشهود له بالترتيل غَضًّا طريًّا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لم يجالس أحدٌ هذا القرآن إلا قام عنه بزيادةٍ ونقصانٍ، زيادةٍ من هُدى ونقصانٍ من عَمَى». ويقول الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ: «إِنَّ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج ٣ ص ٣٣٠ - ٣٣١.

هَذِهِ الْقُلُوبَ سَرِيعَةَ الدُّثُورِ، اقْدَعُوهَا، اْمْنَعُوهَا هَوَاهَا، حَادِثُوهَا بِعِمَارَاتِهَا،
وَرَبِّعُوهَا الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ إِمَامُ الْمُؤْمِنِينَ اتَّهَمُوا عَلَيْهِ رَأْيَكُمْ، وَاسْتَغْشَوْا عَلَيْهِ
أَنْفُسَكُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأَهْوَاءَ وَالْعُجْبَ وَالتَّزَكِيَّةَ، الْقُرْآنَ الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ
مُشَفَّعٌ، وَمَا حِلٌّ مُصَدَّقٌ، وَاللَّهُ مَا دُونَ الْقُرْآنِ مِنْ غَنَى، وَمَا بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ
فَقْرٍ^(١).

✓ فتلاوته تجارة لا تبور وقد قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾
[فاطر: ٢٩]..

✓ ومن افترض على نفسه صحبتته ومجالسته كثيراً موعوداً بالجنة،
وقد قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ قال ابن
عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَرَادُّكَ إِلَى الْجَنَّةِ، وبه قال أبو سعيد الخدري ومجاهد
والسُّدِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

✓ ويكفي صَاحِبَ الْقُرْآنِ رَفْعُ حَسِّهِ التَّنْبِيهِ الْحَذَرِي مِنْ مَكَائِدِ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وكما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « وَالْقُرْآنُ مَثْلُهُ
كَمَثَلِ قَوْمٍ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ، لَا يَأْتِيهِمُ الْعَدُوُّ إِلَّا وَجَدَهُمْ حَذِرِينَ، كَذَلِكَ

(١) مختصر قيام الليل، ص ١٦٩.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ج ٩ ص ٣٠٢٥، برقم ١٧١٨٩، وتفسير السمرقندي، ج ٢

مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ مِنَ الشَّيْطَانِ «^(١)» .

٧ ويكفي مَنْ صَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مَعْطَرُ الذَّاتِ طِيبَ الْعَطَاءِ مَهْمَا قَلَّ
أَوْ ضَعُفَ وَفِي الْخَبَرِ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَجِرَابٍ فِيهِ مِسْكٌ إِنْ
فَتَحْتَهُ، أَوْ فُتِحَ فَاحَ رِيحُهُ، وَإِنْ أُوكِيَ أَوْ كِيَ عَلَى طِيبٍ»^(٢) .

٧ ويكفي صَاحِبِ الْقُرْآنِ شَفَاعَةُ الْقُرْآنِ لَهُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ يَقُولُ الْقُرْآنُ:
(رَبِّ! مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفَّعْنِي فِيهِ " فَيُشَفَّعُ فِيهِ)^(٣) .

ويكفيه إِكْرَامُ الْقُرْآنِ لَهُ يَوْمَ يَتَغَابِنُ النَّاسُ فَيُعْلَا قَدْرُهُ وَيُرْفَعُ شَأْنُهُ
يَلْبَسُهُ قِرَانُهُ تَاجَ الْكَرَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ وَيَرْقَى فِي دَرَجَاتِ الْكَرَامَةِ
بِقَدْرِ ارْتِبَاطِهِ بِهِ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، قَالَ: (يَجِيءُ صَاحِبُ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيَقُولُ: الْقُرْآنُ يَا رَبِّ حَلَّهْ
فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ فَيَرْضَى عَنْهُ،
وَيُقَالُ لَهُ اقْرِهِ وَارْقَهُ، وَيَزْدَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً)^(٤) .

(١) مصنف عبد الرزاق برقم ٥١٤١ .

(٢) مصنف عبد الرزاق برقم ٦٠١٨ مرسلا عن سليمان بن يسار .

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد في مسنده برقم ٦٦٢٦، ومختصر قيام الليل

ص ٤٦، والطبراني في المعجم الكبير برقم ٨٨، والحاكم في المستدرک برقم ٢٠٣٦

وقال صحيح الإسناد (١/ ٧٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٨٣٩ .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٢٠٢٩، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وهكذا؛ كلما زادت صحبتك للقرآن، وصدقتها بالتزام ورّدك في تلاوته، وإحكام لفظه، وإدامة النظر فيه طويلاً، وإجالة الفكر في آياته كثيراً، وإطالة التدبّر في لفظاته وكلماته؛ كلما تجلّت صحبتته «إرشاداً لمحجّة، وتبصرةً لعبرة، وتذكّرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، ورداً على ضلالة، وإرشاداً من غيٍّ، وبصيرةً من عمى، وحثّاً على تقى، وحياةً للقلب، وغذاءً للروح، وجلاءً لبصيرة، وأمرّاً بمعروف ومصلحة، ونهيّاً عن منكر ومضرة، وهدايةً إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى، وكشفاً لشبهة، وإيضاحاً لبرهان، وتحقيقاً لحقّ، وإبطالاً لباطل، وغذاء ودواء وشفاء وعصمة ونجاة»^(١).

فالتدبّر إذن هو السلوك الأدلّ الأصدق على الصّحبة الصادقة للقرآن العظيم.

[٥] تحقيق النصيحة لكتاب الله:

وبالتدبّر يحقّق المتدبّر النصيحة لكتاب الله الذي حثّ عليها نبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم في حديث تميم الداري رضى الله عنه وهو يقول: (الدين النصيحة) قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة

(١) ويراجع: مدارج السالكين لابن القيم، ج ١ ص ٥٣٥، ونصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، المقدمة ص ٥٥.

الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ^(١).

✓ لأنه بتدبر كتاب الله يصدق الإيمان به..

✓ وبتدبره يكون تعظيمه..

✓ وبتدبره يقع العمل به..

✓ وبتدبره يعطيه المتدبر التالي حق تلاوته..

✓ وبتدبره يديم دراسته بالمحبة له ولمنزله ﷺ ولمن نزل على قلبه صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً..

✓ وبتدبره يحقق المتدبر الوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه، والاعتبار بأمثاله وقصصه..

✓ وبتدبره يصل المتدبر الموفق إلى أن القرآن هو كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الناس، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق..

✓ وبتدبره يكون التصديق بما فيه، والوقوف على أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله وقصصه، وتحصيل حكمه وغاياته، وإصابة دلالاته ومراداته، والاعتبار بمواضعه، والانبهار بنواضعه، والتفكر في عجائبه،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٥٥، وأحمد في المسند برقم ١٦٩٤٠، والشافعي في

مسنده برقم ١٨٠٥، وابن أبي شيبة في المسند برقم ٨٢٠.

والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه..

٧ وبتدبره يطلب القارئ المتدبر معاني ما أحبّ مولاه أن يفهمه عنه، ثمّ يقوم به لمولاه العظيم بعد ما يفهمه، ليحقق أمره كما يحبّ ويرضى.. فهذه ما قيل في معنى النصيحة لكتاب الله^(١)؛ وكلّها يتحقّق بالتدبر، وإلاّ؛ « فمن اقتنع بظاهر المتلوّ، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها »^(٢).

وبذلك نعلم مقام التدبر للقرآن ومكانه.

[٦] القربة العليمة العليّة:

إنّ مطلق الارتباط بكتاب الله قراءة وتلاوة وإن تجردت القراءة عن التفهم وخلت التلاوة من التدبر للآيات والسور؛ مما يتقرّب به المتقربون إلى الله، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ [فاطر:

(١) راجع إن شئت: معالم السنن للخطابي، ج ٤ ص ١٢٦، شرح النووي لصحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٦، شرح الأربعين لابن دقيق العيد، ص ٥١، جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ج ١ ص ٢٢١، فتح الباري لابن حجر، ج ١ ص ١٣٨،

(٢) كما يقول الزمخشري في الكشاف ج ٤ ص ٩٠. والدور كثيرة الدر للبن، والنثور كثيرة الولد تنثر بطنها..

وأحب ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى عبادته جلّ وعلا بتلاوة كتابه وترتيل كلامه، فكلامه هو أحب شيء إليه، وقد قال خباب بن الارت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل: « تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه »^(١).

ومن جميل ما روي في ذلك أن أبا جعفر الحذاء قال: سَمِعْتُ الْعُمَرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: « أَكْثَرُ قِرَاءَتِكَ الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَقُودُكَ إِلَى الْجَنَّةِ »^(٢).

وروى في ذلك عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه إمام أهل السنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ: « رَأَيْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّوْمِ، فَقُلْتُ: يَا رَبُّ مَا أَفْضَلُ مَا تَقَرَّبُ الْمَتَقَرِّبُونَ بِهِ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: «كَلَامِي يَا أَحْمَدُ» فَقُلْتُ: يَا رَبُّ بِفَهْمٍ أَوْ بَغَيْرِ فَهْمٍ؟ قَالَ: « بِفَهْمٍ وَبَغَيْرِ فَهْمٍ »^(٣).

هذا مجرد القراءة والتلاوة لكتاب الله؛ فكيف تكون القراءة بتفكير

(١) جامع العلوم والحكم، ج ١ ص ٢٢١.

(٢) حلية الأولياء، ج ٨ ص ٢٨٣.

(٣) أخرجه الحسن الخلال في المجالس العشرة الأمالي، ص ٥٠، برقم ٥٠، والقاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات لآيات الصفات، برقم ١١٤، ج ١ ص ١٣٧، وابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد، ص ٥٨٣ - ٥٨٤.

وتفهم؟؟.. وكيف تكون التلاوة بالتدبر؟؟.. فلا شك أنها القربة الأعظم والتقرب الأفضل إلى الله تعالى. إذ هي القربة الجامعة بين التلاوة وحق التلاوة!! المجتمع فيها القراءة والفهم!! المتشارك فيها العقل مع النطق، والذهن مع اللفظ، فقامت القراءة على علم، فكان التدبر هو القربة العليمة العلية.

قال الحافظ ابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ: «ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكير وتدبر وتفهم»^(١). بالتدبر إذن يترقى القارئ المرتل مع القرآن إلى أعالي القرب وأعلمها.

[٧] الدربة على تفهم القرآن:

وبالتدبر تقوم الدربة على تفهم القرآن، وتفهم القرآن غاية عظيمة من غايات التلاوة ومقصد من مقاصد التنزيل، فإن تلاوته من غير تقصد فهمه والتناصر عن السعي إلى تفهمه والاستكفاء بقراءته دونه لا يعطي القارئ القرآن بذلك حق التلاوة، فحق التلاوة صرفُ الهمة إلى تفهم القرآن، وبذل وسع العقل إلى تحصيل معاني آياته. وكما قال أبو حامد الغزالي رَحْمَةُ اللَّهِ: «وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ج ٢ ص ٣٤٢.

والقلب، فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظّ العقل تفسير المعاني، وحظّ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ «^(١)».

وسبيل تفهّم القرآن هو تدبره، فكُلّمَا جاهد القارئ قلبه لتدبر القرآن كُلّمَا ازداد خبرة في تفهّمه، وكُلّمَا تقاعس عن تدبره كُلّمَا تكاسل عقله عن فهم خطاب الباري العظيم، فالتدبر هو سبيل التفهم، والدربة العليمة عليه.

ولذلك كان الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إِنَّ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَأَوْا الْقُرْآنَ رِسَائِلَ مِنْ رَبِّهِمْ، فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهَا بِالذِّلِّ، وَتَفْقَدُونَهَا فِي النَّهَارِ..»^(٢).

ولو لم يكونوا يتدبرون القرآن لم يكونوا فهموه، ولو لم يفهموا آياته لم يروها رسائل من ربهم يجب تلقيها بالقلوب والعقول ويلزم جوارحهم تفقدها والعمل بها.

ولما جاء نَهْيُكَ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: ...إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَذَا كَهَذَا الشُّعْرِ. إِنَّ

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ١ ص ٢٨٧.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ٥٤، قوت القلوب، لأبي طالب المكي،

أَقْوَامًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِلِسَانِهِمْ لَا يَعْدُو تَرَاقِيهِمْ، وَلَكِنَّهُ إِذَا دَخَلَ فِي قَلْبٍ
فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعٌ»^(١).

والهذه سرعة القراءة، قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ معلقاً على
كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا: « إِنَّمَا عَابَ عَلَيْهِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَسْرَعَ
القراءة ولم يرتلها؛ فاتته فهم القرآن وإدراك معانيه»^(٢).

فالقراءة التي يتصل فيها اللسان بالقلب فتخرج الكلام من سويدائه
ويتلقاه شغافه يستخرج مراد الباري الجليل من خطابه؛ لا يكون إلا
بالتدقيق لمعانيه والتحقيق لمراميهِ، فيرسخ القرآن في القلب فينفع قارئه
وتاليه. وهذا لا يكون إلا بالفهم، لا يمكن أن يتحقق بمجرد القراءة
والتلاوة بالتصويت بالحروف، ولا يكون فهمٌ أبداً إلا بالتفهم، والتفهم
مفتقر إلى التدبر، فكان التدبر هو وسيلة الفهم للقرآن العظيم، وطريق
تحصيله، وبه تكون الدربة العليمة لتحصيل الفهم للقرآن الكريم.

ولهذا نجد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يَنْبَهُ إِلَى ذَلِكَ فيقول: « من تدبر القرآن
طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق ». ويقول: « فمن تدبر القرآن، وتدبر
ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن تبين له المراد، وعرف

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم ٥٣٨.

(٢) معالم السنن، للخطابي، ج ١ ص ٢٨٣.

الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج»^(١).

فبالتدبر إذن يقوم الفهم السليم للقرآن، ويستبين للقارئ طريق الحق، ويتعرف على مقصود القرآن ومراده، ويحصل الهدى، ويستوعب الرسالة، ويسلم من الانحراف والاعوجاج. وهذه من أعظم المنافع الدينية والمصالح الشرعية المترتبة على قراءة القرآن، فعلاً شأن التدبر وسماً مقامه العلي في علوم الكتاب على مقامات المرتلين.

[٨] سبيل الاتعاظ والاعتبار:

قلّما يحقق القارئ لكتاب الله مطلوب الاتعاظ بقراءته إن لم يتدبر ما يقرؤه؛ وقل من يسعد بشرف الاعتبار بتلاوته إن لم يتدبر ما يتلوه من الذكر الحكيم.. فسبيل الاتعاظ والاعتبار هو التدبر..

والكتاب الكريم من مرادات تلاوته الاتعاظ بمواعظه وتنبهاته وإرشاداته، ومن غايات ترتيله الاعتبار بما فيه من الأحوال المذكورة والقصص المنشورة والعبر والعظات. ولقد جاء النداء الإلهي يطلب إلينا الاعتبار لنكون من أهل الاستبصار فنقيم أمرنا على الاستقامة وتقام لنا الحياة الطيبة على منطق القرآن ومراد منزل القرآن، فننادي علينا الباري جلّ وعلا لنعلو مقام أهل البصيرة ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:

(١) راجعهما في: مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج ٣ ص ١٣٧، وج ١٥ ص ٩٤.

٢]. ولن يكون قارئٌ من أولي الأبصار إن لم يكن متدبراً للكلام الأمر بالاعتبار؛ إذ التبصرة من آلات التدبر، والاعتبار من مآلات التدبر..

وينبّه المولى الجليل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى أَنَّهُ سَبْحَانَهُ شَحَنَ كِتَابَهُ بمواضع الاعتبار قصداً إلى الاعتبار بها، كما قال ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].. واللبّ أداة التدبر، فالاعتبار سبيله التدبر..

والقرآن موعظةٌ لأهل التدبر، أنزلت آياته مبينات ليتعظ المتدبرون ويستقيم على بيناتها المتقون ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]. والمراد بالآيات هنا القرآن^(١).

والقرآن أنزل للناس عامّة بياناً لما يحتاجونه من الهدى والأحكام، لأنه ما من ذي فكرة استمع إليه إلا حصل منه بيان ما. وأنزل للمتقين خاصّةً للاتعاظ والاعتبار، يشهد له قول الله تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. والإشارة بهذا هنا مرادٌ بها القرآن، كما قال الحسن وقتادة ومقاتل وابن جريج والربيع بن أنس^(٢).

(١) انظر: تفسير البضاوي، ج ٤ ص ١٠٦.

(٢) راجع: تفسير الطبري، ج ٧ ص ٢٣٢، والمححر الوجيز لابن عطية، ج ١ ص ٥١٢، وزاد المسير لابن الجوزي، ج ١ ص ٣٢٨، وتفسير الماوردي النكت والعيون، ج ١

وهو اختيار السمرقندي، والبغوي، والراغب الأصفهاني، والقرطبي والنسفي، وابن عادل، وابن كثير، وغيرهم رحمهم الله تعالى^(١).

وبالله عليكم!! إِنْ كَانَ الْإِنْجِيلُ آتَاهُ اللَّهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَدًى وَنُورًا وَمَوْعِظَةً؛ أَفَلَا يَكُونُ الْقُرْآنُ "الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ" بِأَوَّلَى وَأَحْرَى هَدًى وَمَوْعِظَةً؟؟!!، والله يقول عن الإنجيل ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]..

فالقُرْآنُ هو الكتاب المليء بالمواعظ الإلهية من قوارع النفوس، والعبر الوافية بنوافع الدروس، من القصص والأخبار والأمثال، وسبيل الانتفاع بذلك والاتعاظ به؛ هو التدبّر.

ولذلك كثيرٌ من السلف الصالحين رحمهم الله حرصوا على التنبيه إلى ذلك، فرى عمر بن ذر رَحِمَهُ اللهُ يعظ قائلاً: « من غدا يلتبس الخير وجد الخير، أعليّ يحملون جمود أعينكم وقسوة قلوبكم؟ احملوا العيَّ

ص ٤٢٦، وتفسير الراغب، ج ٣ ص ٨٧٢.

(١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي، ج ١ ص ٢٤٩، وتفسير البغوي، ج ٢ ص ١٠٩،

وتفسير الراغب الأصفهاني، ج ٣ ص ٨٧٢، وتفسير القرطبي، ج ٤ ص ٢١٦،

والنسفي ج ١ ص ٢٩٥، واللباب لابن عادل، ج ٥ ص ٥٥٠، وتفسير ابن كثير، ج ٢

ص ١٢٦.

عَلَيَّ إِنْ لَمْ أَسْمَعْكُمْ الْيَوْمَ وَاعْظًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٣] حَتَّى إِذَا بَلَغَ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، ثُمَّ قَالَ: اسْمَعُوا إِلَيَّ يَا عَرَضَ الدُّنْيَا، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ؟ هَلْ تَطْمَعُ أَنْ يَبْلُغَ بِكَ الْهَوْلُ مَا بَلَغَ مِنْهُمْ؟، بَلْ أَعْظَمُ مِمَّا بَلَغَ مِنْهُمْ مَا لَا يَطِيقُهُ قَلْبُكَ فَلَا يَقُومُ بِهِ بَدَنُكَ، فَهَذِهِ عَقُولُهُمْ ذَاهِلَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ، فَكَيْفَ بِعَقْلِكَ وَمَا حَلَّ بِكَ، وَأَنْتَ الْخَاطِئُ الْعَاصِي الْمَتَمَادِي فِيمَا يَكْرَهُ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ؟، فَكَانَ ابْنُ ذَرٍّ يَقُولُ: هَيْهَاتَ الْعِشَارُ وَأَهْلُ الْعِشَارِ، عَطَّلَهَا أَهْلُهَا بَعْدَ الضَّنِّ بِهَا»^(١).

وَعَقَدَ الْبِيهَقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَعْبِ الْإِيمَانِ بَابًا فِي تَعْظِيمِ الْقُرْآنِ يَنْقُلُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَلِيمِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ مِنْ تَعْظِيمِ الْقُرْآنِ اسْتِشْعَارَ مَوَاعِظِهِ، فَقَالَ مَنِهَاجًا إِلَى مَظَاهِرِ تَعْظِيمِ الْقُرْآنِ: «.. تَعَلَّمْهُ، وَإِذَا مَا تَلَاوْتَهُ بَعْدَ تَعَلَّمْهُ، وَإِحْضَارَ الْقَلْبِ إِيَّاهُ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ، وَالتَّفَكُّرَ فِيهِ، وَتَكَرُّرَ آيَاتِهِ وَتَرْدِيدَهَا، وَاسْتِشْعَارَ مَا يَهِيجُ الْبُكَاءَ مِنْ مَوَاعِظِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ فِيهَا..»^(٢).

وَلَا يَكُونُ هَذَا الْاسْتِشْعَارُ بِمَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَتَهْيِيجِ الْبُكَاءِ مِنْهَا إِلَّا

(١) حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الْأَصْفِيَاءِ، ج ٥ ص ١١٠، وَالتَّوَهُّمُ فِي وَصْفِ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ،

لِلْحَارِثِ الْمَحَاسِنِيِّ، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) شَعْبُ الْإِيمَانِ، لِلْبِيهَقِيِّ، ج ٣ ص ٣٢٧.

بالتفكر والترداد والتكرار للآيات وذلك هو التدبر..

ومن النصائح الغالية للصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما دعوته الحكيمة: «عليكم بالقرآن؛ فإنه عنه تسألون، وبه تجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل»^(١).

فلا واعظ كالقرآن لمن عقل، وكما قال أحد العلماء واعظاً أحد تلاميذه^(٢):

أَيَا نَجَلَ إِبْرَاهِيمَ تَطْلُبُ وَاعِظًا
وَلَا وَعَظَ كَالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الْغَرَّا
تَدَبَّرَ كِتَابَ اللَّهِ عِنْدَ تَهَجُّجٍ
وَلَا سِيَّمَا وَالنَّاسُ فِي نَوْمِهِمْ سَكْرَى
يُلَاقِيكَ مِنْ مَوْلَاكَ أَكْبَرُ وَاعِظٍ
عَلَى قَلْبِكَ الْمُشْتَاقِ أَنْوَارُهُ تَتَرَى

فنبه رحمه الله تعالى إلى أن القرآن هو كتاب المواعظ لمن طلب واعظاً، وأن سبيل الاتعاظ هو التدبر لكتاب الله، فعندئذ يلاقي المتدبر أكبر المواعظ وتهل على قلب المتدبر أشع الأنوار الهادية إلى مراد الله جل وعلا.

(١) شعب الإيمان، ج ٧ ص ١٦٩ برقم ٤٨٣٤.

(٢) مجموعة القصائد الزهديات، ج ٢ ص ٢١٨ - ٢١٩.

إِذَنْ: سبيل الاعتاظ والاعتبار بلا ريب هو التدبّر

[٩] طريق التَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ:

التَّاهُلُ بصحبة القرآن إنما يتحقّق بالتخلّي عن منهيّاته ومباغضه، والتحلّي بأخلاق القرآن، ولقد كان سيد أهل القرآن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خلقه القرآن كما وصفت حبیبها أمّنا الحصانُ الرزان عائشة رضي الله تعالى عنها حين أتاها سعد بن هشام بن عامر يسألها يقول: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَّا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]»^(١). والتدبّن الحق لا يكون إلا بالتخلية والتحلية، بالتخلية عن المعصية، وبالتحلية بالطاعة المؤمّية..

ومعلوم أنّ التخلية قبل التحلية، وأنّ التطهير قبل التزيين، ولذلك جاء القرآن مرشداً أولي النهي والألباب إلى ذلك الطريق في آيات، ففهموها، واستوعبت عقولهم مرادها، وانفتحت قلوبهم على مطلوبها، فتحلّوا بأخلاق القرآن، بعد أن تخلّوا عن نواقضها، وتزيناها بجمائل ما

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم ٢٤٦٠١، و٢٥٣٠٢، والبخاري في خلق أفعال العباد، ص ٨٧، وفي الأدب المفرد برقم ٣٠٨، والطبراني في المعجم الأوسط عن أبي الدراء عن عائشة برقم ٧٢، بلفظ (كان خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه). والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٣٥٩، عن طريق أبي الدراء أيضاً.

أرشدت الآيات وأمرت، بعد أن تطهروا من رذائل ما نهت عنه الآيات ونفرت، ولن يتمكن مريدٌ من سلوك هذا الطريق إلا على متن التدبّر.

فتجد المتدبّر يتنبّه إلى تقديم القرآن التقوى على العمل الصالح في مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]..

✓ وتقديم التقوى على القول الصالح في مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]..

✓ وتقديم التقوى على القصد الصالح والهمة الصالحة في مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

✓ وتقديم التقوى على الهمة الصالحة في مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].. ولذلك كرّر الأمر بالتقوى، إذ الأول للقصد والهمة، والثاني للعمل.

والمتدبّر للقرآن هو الذي يتنبّه إلى أنّه يجب أن يتخلّى عن كل شيء شين للتحلّي بكل خير زين لأنّ القرآن ارتفع به إلى أعلى مراتب سادات أهل التقوى حين أشبع حشاه بزد التقوى، وزين باطنه بلباس التقوى، وبني محرابه على أسس التقوى، وأطلق لسانه بكلمة التقوى، فألقى في رُوع المتدبّرين أنّ ﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾

[البقرة: ١٩٧]..

وَأَنَّ ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]..

وَأَنَّ مَا ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾
[التوبة: ١٠٨]..

وَأَنَّ اللَّهَ أَلَزَمَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَسَيَدَهُمُ الْمَعْصُومَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]..

وأهل التدبر لكتاب الله هم الذين يتنبهون إلى أن التحلي بالخلق
الجميل وبالأدب الجميل في كل سلوك؛ هو المحبوب لربهم جلّ وعلا،
لأنه سبحانه "جميلٌ يحبُّ الجمال"^(١)، ولقد وصف كل سلوك محبوب
إليه بالجمال فأمر به..

فأمر بالتحلي بجميل الصفح فقال ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾
[الحجر: ٨٥]..

وأمر بالتحلي بالصبر الجميل فقال ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾
[المعارج: ٥]..

(١) هو حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٤٧، وأحمد في مسنده برقم ٣٧٨٩،
والترمذي في سننه برقم ١٩٩٩، وابن حبان في صحيحه برقم ٥٤٦٦، والطبراني في
الأوسط برقم ٤٦٦٨.

٧ وأمر عند مفارقة الأزواج بالتسريح الجميل فقال ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]..

٧ وحتى عند الهجر والمخاصمة أمر بالهجر الجميل فقال ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]..

وكلّ هذا دالٌّ على أنّ طريق التخلّي عن سوء الصنائع والتحليّ بالأخلاق الروائع إنما يسلك على متن التدبّر، إذ التدبّر هو السائق العائق؛ السائق إلى محاسن الآداب ومكارم الأخلاق والهدي الحسن والسمت الصالح، والعائق عن سوء الأخلاق وشرور الأعمال ومراتع الشيطان ورذائل الصفات وحبائل الشهوات.

وإلاّ:

كَمْ أَسِيرٍ لِّشَهْوَةٍ وَقَتِيلٍ أَفٍّ لِّلْمَشْتَهَى خِلافِ الْجَمِيلِ
شَهَوَاتُ الْإِنْسَانِ تُورِثُهُ الذُّلَّ وَتُلْقِيهِ فِي الْبَلَاءِ الطَّوِيلِ^(١).

[١٠] ماء حياة القلوب:

لأنّ القرآن هو روح القلوب، وقد سمّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن بالروح في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:

(١) التبصرة لابن الجوزي، ص ٢٠٠، وذم الهوى لابن الجوزي، ص ٣٣. والمتحل،

للثعالبي، ص ١٠٢.

[٥٢] ^(١). ولهذا شبه القرآن بالمطر في قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، «لأنَّ في المطر حياة الخلق وإصلاح الأرض، وكذلك القرآن حياة القلوب، فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح، فلهذا المعنى شبه القرآن بالمطر» ^(٢). كما شبه القرآن بالماء في قوله تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، وقد قيل: «هذا مثلٌ ضرب به الله تعالى للقرآن، والقلوب، والحق، والباطل. فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب، وبقاء الشرع والدين، والأودية مثل للقلوب، ومعنى بقدرها على سعة القلوب وضيقها، فمنها ما انتفع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه، فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه، ومنها دون ذلك بطبقة، ومنها دونه بطبقات» ^(٣).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ فِي معنى لما يحييكم من قوله تعالى ﴿اسْتَجِيبُوا

(١) راجع: معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ج ٣ ص ٢٥٨، وتفسير الخازن، لباب التأويل،

ج ٣ ص ١٤٥.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، بحر العلوم، ج ١ ص ٣٢. وتفسير السمعي، ج ١ ص ٥٥،

والتفسير الوسيط للواحدي، ج ١ ص ٩٦. والوجيز له ص ٩٤، والتفسير القيم لابن

القيم ص ١٢٩، والسراج المنير للشربيني، ج ١ ص ٣٠، وتفسير الخازن لباب

التأويل، ج ١ ص ٣٠.

(٣) راجع: البحر المحيط في التفسير، ج ٦ ص ٣٧٢. ونظم الدرر في تناسب الآيات

والسور، للبقاعي، ج ١٠ ص ٣١٨.

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿[الأنفال: ٢٤]، أَنَّهُ: « القرآن، لأنه حياة القلوب، وفيه النجاة والعصمة في الدارين »^(١).

وكما قيل:

كَلَامُ الْحَكِيمِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ كَوْنُ السَّمَاءِ غِيَاثُ الْأُمَمِ
فَقَوْلُ الْحَكِيمِ جَلَاءُ الْقُلُوبِ كَضَوْءِ النَّهَارِ يُجَلِّي الظُّلُمَ

فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور ..

فإن كان القرآن هو حياة القلوب؛ ولا حياة تقوم أبداً بلا ماء؛ فإن ماء هذه الحياة هو تدبر القرآن، فمن تدبره أحيا قلبه، وفتح مغاليقه، وتأهل لتلقي العطايا العلوية والمنح الإلهية وأسعد عمره وحياته وأحواله بالفيوضات الربانية، فيغمر الربُّ قلبه بالمحبة والشوق والرجاء والإنابة والتوكل والرضا ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم.

ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: « فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي

(١) تفسير حدائق الروح والريحان للهري، ج ١٠ ص ٣٨٢، وتفسير الخازن، ج ٢ ص

بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها»^(١).

✓ فمن وجد من قلبه كسلاً وتراخياً؛ فعليه بالتدبر؛ ينشط من عقل العجز والكسل..

✓ ومن لاحظ على قلبه خموداً أو جموداً أو تبلداً أو قساوة؛ فعليه بالتدبر؛ فسرعان ما ينهض ويشرق فيه النور..

✓ ومن شكا من قلبه مرضاً أو إعياء؛ فعليه بالتدبر؛ يُشْفَى من كل علة وسقم، ودواء القلب المريض في خمسة كما يقول إبراهيم الخواص رَحِمَهُ اللهُ: «قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»^(٢)..

✓ ومن خشي على قلبه موتاً وبات يائساً من حياته فعليه بالتدبر؛ فسرعان ما ينبض بالحياة ويزهر بعد موات، فمع التدبر لا فوات، فمفتاح حياة القلب التدبر كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومفتاح حياة القلب :

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج ١ ص ١٨٧.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ٤٦، ولجلالة هذا الكلام ودلالته على مرادي؛ أعدته ههنا مع ذكره من قبل في مطلب حث العلماء على التدبر ص ٩٨، ومبحث أهمية التدبر ص ١٢٨.

تدبّر القرآن ، والتضرّع بالأسحار ، وترك الذنوب^(١) ..

وهكذا تدلّنا على علو شأن التدبّر ومكانه السامي ومقامه السامق هذه الوجوه العشرة، إذ في التدبّر موافقة المقصود الأول للقرآن، وهو مفتاح كنوز القرآن وعلومه، وهو مورث اليقين، وبه تتحقق النصيحة لكتاب الله، والصحبة الصادقة، والقربة العليمة العليّة، والدّربة على تفهّم القرآن، وهو سبيل الاتعاظ والاعتبار، وطريق التخلية والتحلية، وهو ماء حياة القلوب والأرواح.. فأَي عمل أكبر من التدبّر، وأي سعي أسعد للمؤمن منه!!.. اللهم ارزقنا القرآن حفظاً، وتلاوةً، وتدبّراً، وتعلّماً، وتعليماً، وتفسيراً.



(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم، ص ٤٨.

المبحث الثالث

في حُكْمِ التَّدَبُّرِ

تكلّم كثيرٌ من أهل التفسير وبيان القرآن وغيرهم من العلماء في حكم التدبّر، ولم يتفقوا في حكمه، بل اختلفوا بين الوجوب والندب، فمنهم من ذهب إلى أنّ التدبّر واجبٌ على القارئ للقرآن، وآخرون ذهبوا إلى أنّ التدبّر مندوب إليه مستحبٌ له.

أما المذهب الأول: فهو مذهب الوجوب:

وقد قال بوجوب تدبّر القرآن ثلّةٌ من الأئمة، منهم: أبو العباس المهدوي، والرازي، والقرطبي، وابن تيمية، وابن كثير، والشوكاني، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ محمد المبارك عبد الله، ورشيد رضا، والزحيلي، رحمهم الله تعالى.

✓ فالمهدوي رَحِمَهُ اللهُ يوجب النظر والتدبّر والتفكّر في القرآن مستدلاً بقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، فيقول: «أي: يتفكّرون فيه، وفي هذا دليلٌ على وجوب تعلّم معاني القرآن.. قال: وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال»^(١).

وعند قوله جلّ ذكره ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] قال: «دليلٌ على

(١) التحصيل لفوائد كتاب التفصيل، لأبي العباس المهدوي، ج ٢ ص ٣٢١.

وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهدّ، إذ لا يصحّ التدبّر مع الهدّ»^(١).

✓ والرازي رَحِمَهُ اللهُ كذلك يوجب النظر في كتاب الله والاستدلال بآياته، وذلك في تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، فقال: «دلت الآية على وجوب النظر والاستدلال»^(٢).

✓ أمّا القرطبي رَحِمَهُ اللهُ؛ فقد صرّح بوجوب تدبّر القرآن، يقول: «دلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ على وجوب التدبّر في القرآن، ليعرف معناه... وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال»^(٣).

وينفي رَحِمَهُ اللهُ وجود العذر في ترك التدبّر، مما يفهم أنه يرى التدبّر واجباً عينياً على كل أحد، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]: «حثّ على تأمل مواضع القرآن، ويبيّن أنه لا عذر في ترك التدبّر، فإنّه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشقة من خشية

(١) التحصيل نفسه، ج ٥ ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، ج ١٠ ص ١٥٢.

(٣) تفسير القرطبي، ج ٥ ص ٢٩٠.

✓ ونجد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ قد أدخل التدبّر في فروض الكفاية، حين قال: « لا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرضٌ على الكفاية، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل في تدبّر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحظ الذكر والدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٢).

ويجعل رحمة الله تعالى عليه تارك تدبّر القرآن ممّن يتناوله الذمّ مع أولئك الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أمانى وإن هم إلّا يظنون، ممّن ذمّهم الله تعالى في قوله عز وجل ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. فقال: «فإن الله ذمّ الذين يحرفون الكلم عن مواضعه وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصله هو من البدع الباطلة، وذمّ الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أمانى، وهو متناول لمن ترك تدبّر القرآن ولم يعلم إلّا مجرد تلاوة حروفه» (٣). وهذا ذمّ دالٌّ على التحريم، مما يعني أن ترك التدبّر عنده محرّمٌ لا يجوز، فكان تدبّر القرآن على هذا الوجه واجباً.

(١) تفسير القرطبي، ج ١٨ ص ٤٤.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج ١ ص ١٤١.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج ١ ص ٤٢.

مع أنّه في موضع آخر يدعو إلى تدبّر القرآن بما يفهم منه النّدى والاستحباب لا الوجوب، وذلك في قوله: « فينبغي تدبّر القرآن، ومعرفة وجوهه، فإنّ أكثر ما يتوهم النّاس أنّه قد حُولف ظاهره وليس كذلك، وإنما له دلالات يعرفها من أعطاه الله فهمًا في كتابه »^(١).

✓ ونجد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ يقول ما يفيد أنه يوجب التّدبّر لكتاب الله في تفسير قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ فيقول: « يقول تعالى أمرًا عباده بتدبّر القرآن، وناهياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهّم معانيه المحكّمة وألفاظه البليغة »^(٢).

✓ ويصرّح الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ بوجوب تدبّر القرآن في تفسير قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] فقال: « ودلّت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] على وجوب التّدبّر للقرآن؛ ليعرف معناه »^(٣).

✓ ويرى الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في أضواء البيان أنّ تدبّر القرآن الكريم من ضرورات فهم القرآن، وأنّه أمرٌ لا بدّ منه للمسلمين، وأنّ الإعراض عنه وعن تفهّم القرآن والعمل به؛ من أعظم المناكر وأشنعها.

(١) مجموع الفتاوى، ج ٢٢ ص ٩٢.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٢ ص ٣٦٤، دار طيبة.

(٣) تفسير الشوكاني (فتح القدير) ج ٢ ص ١٨٠.

وهذا يعني أنه يذهب إلى وجوب التدبر.

وقد استدلَّ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] على ذلك، فقال: « ومعلومٌ أنَّ كلَّ من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفَّحها، وتفهمَّها، وإدراك معانيها، والعمل بها، فإنَّه معرضٌ عنها، غير متدبِّرٍ لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات؛ إنَّ كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكَّا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. وهذه الآيات المذكورة تدلُّ على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلِّمه والعمل به، أمرٌ لا بدَّ منه للمسلمين».. قال: «... فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبيَّنة له، من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى»^(١).

✓ ويرى الشيخ محمد المبارك عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ وجوب التدبر على كل قارئ بقدر طاقته، مستدلاً بحديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (والقرآن حجة عليك أو لك)^(٢). فقال رحمه

(١) أضواء البيان للشنقيطي، ج ٧ ص ٢٥٧ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢٢٩٥٣، ومسلم في صحيحه برقم ٥٥٦، والترمذي برقم ٣٥١٧، والنسائي برقم ٢٤٣٧، وهذا لفظ أحمد، رحمه الله.

الله: «على كل إنسان أن يفهم ما يقرأ من القرآن بقدر طاقته، لأنه كما قال صلى الله عليه وسلم إما حجة له أو عليه، ولا يكون كذلك إلا بفهمه والإصابة من حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، ويكاد يكون هذا من فروض الدِّين، وهو أن يفهم كل أحدٍ بقدر طاقته من القرآن ما يشرب قلبه عظمة الله وتنزيهه، ويصرف نفسه عن الشرّ ويجذبها إلى الخير» اهـ المراد نقله^(١).

✓ ونرى الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ في تفسير المنار عند قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ يصرّح بوجوب التدبّر وفرضيته على جميع المسلمين المكلفين علمائهم وعوامهم، فيقول: «وفيه أن تدبّر القرآن فرضٌ على كلّ مكلف لا خاصٌّ بنفر يسمون المجتهدين»^(٢). مع أنه رَحِمَهُ اللهُ جعل للتدبّر شرطاً ضرورياً لا بدّ منه ولا غنى عنه، هو معرفة لغة القرآن، وهذا الشرط يُخرج العامة من وجوب التدبّر ويجعل التدبّر من شأن الخاصة، وإن قال: «الشرط الذي لا بدّ منه ولا غنى عنه، هو معرفة لغة القرآن مفرداتها وأساليبها، فهي التي يجب على من دخل في الإسلام ومن نشأ فيه أن يتقنها بقدر استطاعته بمزاولة كلام بلغاء أهلها ومحاكاتهم

(١) تفسير جزء عم مع مقدمة التفسير للشيخ محمد المبارك عبد الله، شيخ علماء

السودان في زمانه، ص ٧-٨.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ج ٥ ص ٢٤٠.

في القول والكتاب حتى تصير ملكة وذوقاً...^(١). وإيجابه إتقان لغة القرآن على كل من دخل في الإسلام ومن نشأ فيه؛ قد يلحق بالتكليف بما لا يطاق، ولو بقدر استطاعته؛ لأنّ الكثيرين إن لم يكونوا الأكثرين قدر استطاعتهم لا يمكنهم من تدبر القرآن.

ونرى الشيخ وهبة الزحيلي رَحِمَهُ اللهُ يذهب أبعد من هؤلاء حيث أوجب التدبر على الناس جميعاً مسلمهم وكافرهم، وهو يصرح بذلك قائلاً: « يجب على المسلمين وغير المسلمين تدبر القرآن وتفهمه للتعرف على أحكامه ومراميه وغاياته، وليعلم ما أعد الله للذين تولوا عن الإسلام، فإن لم يفعلوا أقفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قُلُوبُهُمْ بأقفال الكفر والعناد، فهم لا يعقلون »^(٢).

والمذهب الثاني: مذهب الاستحباب والندب:

وأهل هذا المذهب ممن يرى عدم وجوب التدبر على قارئ القرآن وأنه مستحبٌ في حقّه؛ جماعة من أئمتنا، منهم: النووي، والزركشي، والسيوطي، والشيخ السعدي، ومن وافقهم رحمهم الله تعالى.

✓ فنجد الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ يعبر عن ذلك بقوله: « ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع، فهذا هو المقصود المطلوب،

(١) تفسير المنار، الموضع السابق نفسه.

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ج ٢٦ ص ١٢٧.

وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر^(١).

وينبغي في استخدامات الفقهاء والأصوليين غالباً يراد به الدلالة على الاستحباب.

✓ ونجد الإمام الزركشي رَحِمَهُ اللهُ يجعل التدبّر مستحباً من كمال الترتيل حيث قال: «فحقّ على كل امرئ مسلم قرأ القرآن أن يرتله وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل بكل ما بعده»^(٢).

✓ وينصّ السيوطي رَحِمَهُ اللهُ على أنّ التدبّر من سنن القراءة، وقد قال: "وتسنُّ القراءة بالتدبّر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]. وقال ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤]. وصفة ذلك؛ أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمّل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى؛ اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة؛ استبشر وسأل، أو عذاب؛ أشفق وتعوذ، أو تنزيه؛ نزّه وعظّم، أو دعاء؛ تضرع وطلب" اهـ^(٣).

(١) الأذكار للنووي ص ١٣٥

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج ١ ص ٤٤٩.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، ج ١ ص ٢٩٥.

٧ ونرى الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ يجعل التدبّر من أفضل الأعمال، وأنّ القراءة المتدبّرة أفضل من القراءة المتسّعة من غير تدبّر، وتفضيل عمل على غيره لا يدلّ على كونه واجباً، بل أظهر في الاستحباب، فقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى ذكره ﴿لِيَذَّبُرُوا آيَاتِهِ﴾: «أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبّر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبّر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدلّ على الحثّ على تدبّر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأنّ القراءة المشتملة على التدبّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود»^(١).

والمذهب الثالث: مذهب المنع من التدبّر:

وهو ما ذهب إليه الرافضة، وقد منعوا من إمكان التدبّر لأيّ قارئٍ اللهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إمام من أئمتهم، وقالوا: «إنّ القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو تفسير الإمام»^(٢).

(١) تفسير السعدي، ص ٧١٢.

(٢) تفسير البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، ج ٣ ص ٧٢٦، والأساس في التفسير، لسعيد حوى، ج ٢ ص ١١٣٣، الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، ص ٩٥.

وهذا القول غير مرضيٍّ في حقِّ القرآن ومنزل القرآن، وإلا لما عرّض القرآن بتاركي التدبّر من الناس، وما استفهم إنكاراً للمعرضين عن التدبّر بمثل قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء: ٨٢]. وما جعل المنع من التدبّر أقفالاً لقلوب العباد ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]. فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وتمكّن كل ناظر في كتاب الله يبتغي تدبّره من تحصيل ما فيه من الحكّم والمعاني.

لذلك؛ فقولهم مردودٌ عليهم، لا يسنده دليل، أو يسعده برهان، أو تؤيّد حجة، فما ينبغي أن يُشغل بمثله البال.

الراجع في حكم التدبّر:

والراجع في وجوب التدبّر أو ندبه واستحبابه؛ أنّه على التفصيل، إذ التدبّر في حكمه التكليفي على ثلاث حالات، بحسب المتدبّرين:

❖ الحالة الأولى:

أن يكون التدبّر لازماً للقارئ وواجباً عليه وجوباً عينياً جملة وتفصيلاً، وهذا الوجوب العيني في حق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم..

والذي يجعل التدبّر واجباً في حق النبي صلى الله عليه وسلم على التفصيل بتدبّر القرآن كلّّه، فهو ظاهر، لا يظنّ به عليه الصلاة والسلام إلا متدبّراً للقرآن كلّّه، لأنّه المأمور الأوّل بفهم الخطاب وتبليغه مع التخلّق به،

والأوامر الإلهية متوجهة إليه بعينه صلى الله عليه وسلم قبل ورثته وخلفائه رضي الله عنهم وقبل أتباعه وأمته.

• فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ المأمورين بالتدبر والتذكر في قوله جل ذكره ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩]. فهو من أنزل إليه وإليك مخاطب به هو عليه الصلاة والسلام، والجمع في ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾، هم من أخذ عنه وتعلم منه وورث علمه ومنهجه. و﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أولهم وسيدهم وإمامهم ومعلمهم هو عليه الصلاة والسلام.

• وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ المأمورين بالترتيل المحصل للتدبر والمحقق للتفهيم والتفكير في القرآن في قوله تعالى ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ١ - ٤]. وحكمة الترتيل: التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها، لأن الترتيل به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب^(١). «وأكثر العلماء يستحبون الترتيل في القراءة ليتدبره القارئ ويفهم معانيه». كما يقول القرطبي رحمه الله تعالى^(٢).

• وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ المأمور الأول بالتخلق بالقرآن، وقد

(١) انظر: المجالس القرآنية في تدبر الآيات والسور، د. عبد الملك القاسم، ص ٧٧٤.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ص ١٤٣.

كان، وبالتهجّد بالقرآن، وقد كان، فجاء الأمر له فرضاً عليه بخصوصه فقال جَلَّ وَعَلَا ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وبه عائد إلى القرآن، والنافلة الزيادة لا التي تقابل الفريضة، بل التهجد في حقه بقي فرضاً عليه واجباً في حقه عليه الصلاة والسلام^(١).

• وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ المأمور الأوّل بتلاوة القرآن لاستكمال العبادة الحقّة ولا استحقاق صاحبة الإسلام عليه الصّلاة والسّلام، فبعد أن قال تعالى ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تلا بقوله ﴿وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

التلاوة من التَّلَوِّ والتَّلَوِّ والتَّلَوِّ: القراءة والاتباع والدعوة إلى تلوّه واتباعه وإتباع ما بعده مما يتليه وقضاء نذره ومطلوبه وإعطاء حقّ الشيء^(٢). وهذا كلّهُ إنّما تحقيقه بالتدبّر.

وفي تفسيرها يقول أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي أو اظب على تلاوته

(١) راجع: تفسير البغوي، ج ٥ ص ١١٥، والوجوب عليه بخصوصيته صلى الله عليه وسلم هو مذهب الشافعي وجمهور أصحابه، ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، ج ٢ ص ٢٣٩.

(٢) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، ص ١٦٣٤.

لتنكشفَ لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً، أو على تلاوته على الناسِ بطريقِ تكريرِ الدعوةِ وتثنيةِ الإرشادِ، فيكونَ ذلكَ تنبيهاً على كفايته في الهدايةِ والإرشادِ، من غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعْجَزَةٍ أُخْرَى»^(١).

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ في معناها: «لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه فهذا الذي عليّ وقد أدَّيْتُهُ»^(٢).

• وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي فُرضَ عليه القرآن فقال له في معرض الامتنان على حبيبه المصطفى في العالمين ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ [القصص : ٨٥]. والمفروض عليه قراءته، وترتيبه، وتلاوته، وتفهمه، وتدبر سورته وآياته، والعمل به، وتبليغه للعالمين، وإقامة حدوده وأحكامه.

قال عطاء رَحِمَهُ اللهُ في معنى فرض عليك القرآن: «أوجب عليك العمل بالقرآن»^(٣).

وقال النسفي رَحِمَهُ اللهُ: «أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه»^(٤).

(١) تفسير أبي السعود، ج ٥ ص ٢١٦.

(٢) تفسير السعدي، ص ٦١١.

(٣) تفسير البغوي، ج ٦ ص ٢٢٦.

(٤) تفسير النسفي، ج ٣ ص ٥٩.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «افترض عليك أداءه إلى الناس»^(١).

فكان التدبّر لازماً عليه صلى الله عليه وسلم وواجباً في حقّه مفروضاً ليعمل به وبما فيه يؤديه إلى الناس دعوة وتبليغاً.

• وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ المأمور الأول ببيان القرآن وما أنزله الله على قلبه للناس، وقد قال عز وجل ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] وكان من مقاصد المنزل تعالى ذكره من إنزاله الكتاب؛ أن يقوم صلى الله عليه وسلم بتبيينه للناس، فيقوم الناس بالتفكر فيه وتدبر معانيه والعمل بما فيه، فكان التفكير والتدبر متوقفاً على تبينه الواجب عليه عيناً.

وبهذه الوجوه والأدلة يتضح وجوب التدبّر للقرآن كلّ جملة وتفصيلاً على النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه.

❖ والحالة الثانية:

أن يكون التدبّر في حقّهم لازماً واجباً على الجملة، وهم: أئمة الدين وعلماء المسلمين، ممن يبلغون رسالة الإسلام للعالمين، ويعلمون الناس ويرشدونهم ويوجهونهم بما أمرهم به ربهم تبارك وتعالى ويفتونهم بما يصحّ عباداتهم ومعاملاتهم.

(١) تفسير ابن كثير، دار طيبة، ج ٦ ص ٢٥.

فيجب التدبّر على هؤلاء الأئمة وعلماء الأمة فيما يجب عليهم فهمه ومعرفته من القرآن مما يجب عليهم التزامه في أنفسهم والتخلّق به في سلوكهم وسيرهم بين الناس، وما يجب عليهم تبليغه إلى الناس بفئاتهم وطبقاتهم وأحوالهم. لا أنّ التدبّر يلزمهم في كلّ القرآن، فهذا واجبٌ مخصوصٌ وفرض متعيّنٌ على سيّدهم وإمامهم ونبّيهم الذي فرض عليه القرآن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

والذي ألزم التدبّر في حقّ علماء الدّين وأئمة المسلمين وأوجه عليهم فيما يجب عليهم التزامه وفيما يجب عليهم تبليغه؛ عدّة واجباتٍ لا تتمّ إلا بالتدبّر، وما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب:

أولها: أنّهم خلفوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في مهمّة التبليغ والدعوة، فما يجب عليه يجب عليهم، ولكن على الجملة.

ثانيها: أنّهم في ضرورة من معرفة مراد كلام الله الذي يجب تبليغه حتى يبلغوه.

ثالثها: أنّهم واجبٌ عليهم أن يقفوا على مقصود الأحكام حتى يحكموا على أفعال المكلفين في الفُتيا، وعند إنزال تلك الأحكام على وقائع الناس وحوادثهم، وإلّا فقد يباينون مقصود الحكم ولو وافق مقصود الشرع عموماً، فقد يقصد التيسير، وهو مقصد الشرع في الأحكام عموماً، مع أنّه قد يكون مقصود الحكم الأخذ بالعزيمة والسّدة على مثل

حالته، وهذا من دقائق ضرورات التدبّر للمبلّغين والمفتين والحكّام.

رابعها: أنّهم أهل البلاغ، وأهل البلاغ من العلماء والدعاة محتاجون إلى النظر في أدبار النصوص والظواهر، لاستخراج الحكم والمواظ والعبّر، لأنّ التبليغ يجب أن يكون خطابه جامعاً بين الحكمة والموعظة، متضمّناً العبرة الحاملة على الطاعة والامثال ائتماراً أو انزجاراً.

❖ والحالة الثالثة:

أن يكون التدبّر مستحبّاً مندوباً إليه في حقّ قارئ القرآن من عامة المسلمين، لا ينبغي أن يمرّ قارئ القرآن ومرتلّه وتاليه على كلام الله مرور الكرام، ولا يليق بمن تعرّض لأن يخاطبه مولاه وإلهه وربّه وخالقه وباريه ورازقه أن يمضي دون تفهّم لمراده من خطابه، ولا بحثٍ عن مقصوده من كلامه، ولا تأمّلٍ في مطلوب آياته، وذلك هو التدبّر وبذلك يكون التدبّر.

ومع أنّ ترك التدبّر شينٌ غير حسن، والإعراض عن التدبّر لا يليق بقارئ كتاب الله؛ لكنّ؛ أن يكون محرّماً عليه تركه أثماً به، معاقباً على عدم تدبّره؛ فهذا في حقّ غير النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وورثته من العلماء وأئمة العلم والدين؛ لا يقوم عليه دليلٌ، فيما بحثنا.

❖ وفي هذا المعنى نسمع الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في مقدمة تفسيره:

«فهم القرآن العظيم — المشتغل على الأحكام الشرعية التي هي مدار السعادة الأبدية وهو العروة الوثقى والصراط المستقيم — أمر عسير لا

يهتدى إليه إلا بتوفيق من اللطيف الخبير حتى إن الصحابة رضي الله تعالى عنهم على علو كعبهم في الفصاحة واستنارة بواطنهم بما أشرق عليها من مشكاة النبوة كانوا كثيراً ما يرجعون إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بالسؤال عن أشياء لم يرجوا عليها ولم تصل أفهامهم إليها بل ربما التبس عليهم الحال ففهموا غير ما أراده الملك المتعال كما وقع لعدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود، ولا شك أنا محتاجون إلى ما كانوا محتاجين إليه وزيادة»^(١).

❁ ومما يؤكد أن التدبر في حق عامة المسلمين ممن ليسوا بعلماء ولا مجتهدين؛ أن التدبر متوقف على الفهم، والفهم للقرآن غير متاح لكل أحد من الناس، بل هو خاص لبعضهم ممن يخصهم الله بإيتائه، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين سأله أبو جحيفة رضي الله عنه: هل عندكم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شيء سوى القرآن؟ فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتى عبد فهماً في القرآن..»^(٢) الخبر.

(١) تفسير الآلوسي، روح المعاني، ج ١ ص ٦.

(٢) أخرجه الشافعي في مسنده برقم ١٦٢٦، بهذا اللفظ وابن ماجة في سننه برقم ٢٦٥٨ بلفظ (هل عندكم شيء من العلم ليس عند الناس؟ قال: لا والله ما عندنا إلا ما عند الناس، إلا أن يرزق الله رجلاً فهماً في القرآن..). وصحح الألباني والأرنؤوط إسناد ابن ماجة (٢/٨٨٧).

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْفَهْمَ فِي الْقُرْآنِ إِيْتَاءُ رَبَانِيٍّ خَاصٍّ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، فَالْعَامِيَّ إِنَّمَا لَمْ يَنْلِ الْإِيْتَاءَ الرَّبَانِيَّ الْخَاصَّ بِفَهْمِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَكُنْ بِهِ عِلْمٌ يُمْكِنُهُ مِنْ فَهْمِ الْخُطَابِ الْإِلَهِيِّ فَكَيْفَ يَكُونُ وَاجِبًا عَلَيْهِ التَّدَبُّرُ مُعَاقِبًا عَلَى تَرْكِهِ لَهُ؟. وَقد فَسَّرَ حَبْرُ الْأُمَّةِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ بِالْفَهْمِ فِي الْقُرْآنِ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ^(١).

❁ وما يَزِيدُ تَأْكِيدَ أَنَّ الْفَهْمَ إِيْتَاءُ رَبَانِيٍّ خَاصٍّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وَقَوْلُهُ فِي شَأْنِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فَخَصَّ رَبُّ الْعِزَّةِ سُلَيْمَانَ بِفَهْمِ الْقَضِيَّةِ وَالْمَسْأَلَةِ دُونَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ مُقَدَّمٌ وَهُوَ أَبُوهُ وَوَالِدُهُ وَمُرِيْبُهُ وَمُعَلِّمُهُ وَقَدْ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَحُكْمًا كَمَا آتَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ الْفَهْمُ إِيْتَاءً خَاصًّا وَلَوْ اشْتَرَكْتَ فِئَةً فِي الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ، فَمَنْ كَانَ عَالِمًا لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فَاهِمًا، فَالْفَهْمُ زِيَادَةٌ فِي الْعِلْمِ بِتَخْصِيصِ الَّذِي عِلْمٌ بِالْقَلَمِ عِلْمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

(١) انظر: تفسير الطبري، ج ٥ ص ٥٧٦ - ٥٧٧، فقرة رقم ٦١٨٠، وتفسير السمرقندي، ج ١

ص ١٧٩، وتفسير ابن أبي حاتم، ج ٢ ص ٥٣٢، الفقرة رقم ٢٨٢٦. وإحياء علوم الدين،

ج ١ ص ٢٩٠.

فلَمَّا كان التدبّر مفتقراً إلى الفهم، والفهم لا يؤتاه كلّ أحد، والعامّة من باب أولى، فلا يجب عليهم التدبّر وهم كذلك، ولا يأثمون إن تركوه، وهم تاركون له عجزاً لا رغبةً عنه ولا انصرافاً ولا استكباراً.

❁ ثم إن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم وهم من هم سليقة لسان وأهل لغة القرآن وقد عاصروا الوحي وشاهدوا التنزيل وصاحبوا من تنزلت على قلبه الآيات صحبة تلقّ وتعلّم وأخذ وإفادة وتدرب وتربية؛ وكانوا على علم بالآيات ونزولها وأسبابها، ومع ذلك فات عليهم فهم بعضها، ولم يلمّوا بفهم جميع القرآن، ومن شواهد ذلك:

[١] ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث عدي بن حاتم الطائي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في فهمه لآية: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، حيث ظنّ أنّ المراد هو الخيط المعروف من الحبل أو الصوف وما يربط به الشيء، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لما نزلت: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾؛ عمدت إلى عقالٍ أسود، وإلى عقالٍ أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل، فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فذكرت له ذلك فقال ﷺ: (إِنَّ وَسَادَتَكَ لَعَرِيضٌ، إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ)» ^(١).

(١) صحيح البخاري برقم ١٩١٦، و٤٥٠٩، و٤٥١٠، ومسلم في صحيحه برقم ١٠٩٠.

[٢] وكثيرٌ من الصحابة رضوان الله عليهم فهموا قول الله تعالى ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] على غير المراد منها، فإنهم حين نزلت هذه الآية شقَّ عليهم حتى على سيدهم وإمامهم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم جميعاً، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا رسول الله! كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فكل سوء عملنا جزينا به؟» فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (غفر الله لك يا أبا بكر، أأست تمرض؟ أأست تنصب؟ أأست تحزن؟ أأست تصيبك اللأواء؟) قال: بلى. قال: (فهو ما تجزون به) (١).

وهاجر أبو المهلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يسألها عنها فقالت: «هو ما يصيبكم في الدنيا» (٢).

ولما سألت أمية بنت عبد الله عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن هذه الآية أخبرتها أنها سألت عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقال لها: (هذه متابعة الله عز وجل للعبد مما يصيبه من الحمى والحزن والنكبة حتى البضاعة

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم ٦٨ ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠، وابن حبان في صحيحه برقم ٢٩١٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٣٢٠٣، وصححه ووافقه الذهبي، ج ٢ ص ٣٣٧.

يضعها في كفه فيفقدوها، فيفزع لها فيجدها في ضنبه^(١) حتى إن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير^(٢).

فكان المراد أن المسلم يجازي على خطايه في الدنيا بالمصائب فتكون كفارة لذنوبه، إذا مرض بسقم أصابه في جسده، أو حزن أطبق على صدره لسوء ألم به، أو خسر تجارة أو صفقة من صفقات يده، أو ساءت عليه أخلاق زوجه أو ولده، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها، كان ذلك كله كفارة له، وهذا معنى ما يجزى به الذي في الآية، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (ما من مرض أو وجع يصيب المؤمن إلا كان كفارة لذنوبه، حتى الشوكة يشاكها أو النكبة ينكبها)^(٣).

[٣] ومما غاب فهمه عن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مراد الآية ﴿الَّذِينَ

(١) الضنب بسكون الباء الموحدة: الجنب والناحية والحضن ونحوه.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده برقم ١٦٨٩، وأحمد في المسند برقم ٢٥٨٣٥، والترمذي برقم ٢٩٩١، وقال الترمذي في السنن (٥/ ٢٢١): "هذا حديث حسن غريب".

(٣) أخرجه معمر بن راشد في الجامع برقم ٢٠٣١٢، وانظره في الموطأ لمالك، برقم ٣٤٦٦، ومسند إسحاق بنت راهويه برقم ٨٨٠، وفي مسند أحمد برقم ٨٠٢٧، ومسند الحميدي، برقم ١١٨٢، ومسند سعيد بن منصور برقم ٦٩٤، كلهم عن أبي هريرة، وفي البخاري برقم ٥٦٤٠، ومسلم برقم ٢٥٧٢ كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]. فهموا أنّ من وقع منه ظلم أيما ظلم مهما كان هذا الظلم لم ينفعه الإيمان ولا يدخل في فريق المؤمنين الذين لهم الأمن وهم مهتدون. فشقّ عليهم ذلك فجاءوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقولون: «يا رسول الله؛ أينما لا يظلم نفسه؟» قال ﷺ: (ليس ذلك، إنّما هو الشرك. ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣])^(١).

وهكذا؛؛؛

فإن كان فهم بعض القرآن قد تأبى على الصحابة رضوان الله عليهم وهم أعلم المسلمين بأحوال الكتاب وبلغه القرآن وتنزلاته وأسباب نزول آياته، مع أنهم عاصروا الوحي الأمين وهو يتنزل بالقرآن على النبي الأكرم ﷺ، ومع « مشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن فسدّدهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٣٤٢٩، ومسلم في صحيحه برقم ١٩٧، وأحمد في المسند برقم ٣٥٨٩، والترمذي في سننه برقم ٣٠٦٧، والنسائي في السنن الكبرى برقم ١١٣٢٦، وابن أبي شيبة في المسند برقم ٢١٦.

يحرصهم في الأكثر عن الخطأ»^(١)؛ فلا يمكن أن يجب التدبر على عامة المسلمين من غيرهم ممن ليسوا بعلماء، ولا يمتلكون أداة نظر وفهم، ولا هم يقدرّون على شيء من الاجتهاد أو الاستنباط أو التأويل.

❖ بل إننا لو أوجبنا على العامي من المسلمين التدبر؛ للزم من ذلك أن يكون التدبر واجباً حتى على العجمي الذي لا يمكنه أن يفهم شيئاً من القرآن، لأنه لا يعرف كلمات القرآن العربية، وإن كان قادراً على ترديدتها وحفظها، فيكون هذا من التكليف بالمحال وبما لا يطاق، وهو متفق على نفيه.

❖ توجيه نصوص ذم الإعراض عن التدبر:

وكل ما ورد من نصوص القرآن الكريم وأحاديث رسول الله الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الإنكار على تارك التدبر المعرض عنه، الغافل عن تفهم خطاب الله تعالى، والمنصرف عن التفكير في آياته؛ مصروفٌ عن عوام من يقرأ القرآن من المسلمين، وأكثرها في الكفار والمنافقين، وبيان ذلك ما يلي:

❖ أولاً:

قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام : ٢٥]..

(١) من إحياء علوم الدين للغزالي، ج ١ ص ٧٩.

والآية نزلت في جماعة من كفار قريش فيهم أبو سفيان والوليد والنضر وأبو جهل وأضرابهم اجتمعوا يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا للنضر: ما يقول محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؟ فقال: والله ما أدري ما يقول محمد، ألا إنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية. فقال أبو سفيان: إنني لأراه حقاً. فقال أبو جهل: كلا، فنزلت: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً..﴾ الآية (١).

فالآية ليست في المؤمنين أصلاً، كما ترى.

❁ ثانياً:

قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَكُنْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

فالإنكار هنا على المنافقين والتوبيخ من حالهم مع القرآن بسبب مرض النفاق الذي في قلوبهم، لأن المؤمن ليس كالمنافق، بل هو يزداد إيماناً بالقرآن، كما شهد الله له بذلك في الآية نفسها ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

(١) تفسير النسفي، ج ١ ص ٣٢٢.

قال الثعالبي رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الآية نزلت في شأن المنافقين»^(١).

قال ابن جزي رَحِمَهُ اللهُ: «أي من المنافقين من يقول بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه إيماناً على وجه الاستخفاف بالقرآن، كأنهم يقولون: أي عجب في هذا؟ وأي دليل في هذا؟»^(٢).

فالآية في المنافقين وليست في المؤمنين كما ترى.

❖ ثالثاً:

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان : ٣٠]. وهم القوم الذين بُعث فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بكتاب الله ورسالة الإسلام، فأبوا وأشركوا بعد أن آتاهم الله بينات القرآن، وذلك أصل هجرانه.

وقد رجح الطبري رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُم المشركون، فقال: «الخبر عن المشركين أنهم هجروا القرآن وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له. قال: وهذا القول أولى بتأويل ذلك، وذلك أن الله أخبر عنهم أنهم قالوا: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه)، وذلك هجرهم إياه»^(٣).

هذا هو أصل الهجران للقرآن، وإن كان يدخل في عمومه كل هجر

(١) تفسير الثعالبي، ج ٢ ص ١٨١.

(٢) تفسير ابن جزي، ج ١ ص ٦٣٧.

(٣) تفسير الطبري، ج ١٩ ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

من المشركين ومن غير المشركين، كل بحسبه، فالعلماء هجرهم للقرآن بترك فهمه وتدبره والاعتبار به والاتعاظ بمواعظه مع هجر قراءته وتلاوته، وعوام المسلمين من غيرهم — أي العلماء — هجرهم للقرآن ترك قراءته وتلاوته، والإعراض عن سماعه، وعدم العمل بأوامره ونواهيه الظاهرة مما أرشدهم إليه علماؤهم.

ولهذا قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى هذه الآية الكريمة ظاهر، وهو أن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شكا إلى ربه هجر قومه، وهم كفار قريش، لهذا القرآن العظيم، أي: تركهم لتصديقه والعمل به، وهذه شكوى عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال»^(١).

❁ رابعاً:

قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان : ٧].
قال النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعرض عن تدبرها متكبراً رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن»^(٢).

(١) أضواء البيان، للشيخ الشنقيطي، ج ٦ ص ٤٨.

(٢) تفسير النسفي، ج ٣ ص ١٠٥.

وحقاً! لا يمكن أن يُعرض المؤمن عن الإصغاء للقرآن ترفعاً، ولا أن يُعرض عن تدبره تكبراً، فهذا بلا ريب ليس من المؤمنين بالله وكتابه ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أبداً.

وإن كان في سبب هذا الإعراض وموجبه الخطر على المؤمنين ممن يقع في سببه ويتلبس موجبه، وهو اللهو واللعب والطرب والغناء، فالإقبال على هذه الملاهي مانعٌ من الإقبال على آيات الله، وصارفٌ عن تدبر قول الله وآيات كتابه جلّ وعلا.

ولذلك قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: « هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، وَلَّى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامَّ وما به من صَمَم، كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أَرَبَ له فيها » (١).

❖ خامساً:

قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: مَاذَا قَالَ أَنفَا، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وهذه نزلت في الذين مردوا على النفاق: عبد الله بن أبي بن سلول، ورفاعة بن التابوت، وزيد بن الصليت، والحارث بن عمرو، ومالك بن

(١) تفسير ابن كثير، ج ٦ ص ٣٣٢.

دخشم، نعوذ بالله من حالهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من هؤلاء الذين يمتنعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وزين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون: عبد الله بن أبي ابن سلول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت والحارث بن عمرو ومالك بن دخشم، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها؛ أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه، قاله الكلبي ومقاتل رَحِمَهُمَا اللهُ. وقيل: كانوا يحضرون عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر. "حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ" أي إذا فارقوا مجلسك. ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي الآن، على جهة الاستهزاء^(١). فهؤلاء ليسوا بعامة ولا خاصة من أهل الإسلام، بل هم منافقون مستهزئون.

❁ سادساً:

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وهذه الآية الكريمة أيضاً نزلت في أهل النفاق الذين مردوا عليه وهم يسمعون تلاوته ويشهدون نزوله، والمنزل على قلبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

(١) تفسير القرطبي، ج ١٦ ص ٢٣٨.

يعيش بين أظهرهم؛ ثم لا يصدّقون ولا به يؤمنون.

قال ابن عجيبة الفاسي رَحِمَهُ اللهُ: «يقول الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْقُرْآنَ، وينظرون ما فيه من البلاغة والبيان، ويتبصّرون في معاني علومه وأسراره، ويطلعون على عجائب قصصه وأخباره، وتوافق آياته وأحكامه، حتى يتحققوا أنه ليس من طوق البشر، وإنما هو من عند الله الواحد القهار، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا بَيْنَ أَحْكَامِهِ وَآيَاتِهِ، من تَفَاوُتِ اللَّفْظِ وتناقض المعنى، وَكَوْنِ بَعْضِهِ فَصِيحًا، وبعضه ركيكًا، وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل، وبعضه توافق أخباره المستقبل للواقع، وبعضه لا يوافق، وبعضه يوافق العقل، وبعضه لا يوافقه، على ما دلّ عليه الاستقراء من أن كلام البشر، إذا طال، قطعًا يوجد فيه شيء من الخلل والتناقض»^(١).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «المعنى: هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الطَّاعِنُونَ عَلَيْكَ الرَّافِعُونَ بغير برهان في صدر نبوتك، ألا يرجعون إلى النصفة. وينظرون موضع الحجة ويتدبرون كلام الله تعالى؟ فتظهر لهم براهينه، وتلوح أدلته»^(٢).

وقال الثعالبي رَحِمَهُ اللهُ: «المعنى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ كَلَامَ اللَّهِ

(١) البحر المديد في تفسير القرن المجيد، لابن عجيبة الفاسي، ج ١ ص ٥٣٥.

(٢) تفسير ابن عطية المحرر الوجيز، ج ٢ ص ٨٣.

تعالى، فتظهر لهم براهيئته، وتلوح لهم أدلته»^(١).

❁ سابعاً:

قول الله عز وجل ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]..

ومهجوراً كما قال السمرقندي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: «يعني متروكاً لا يؤمنون به، ولا يعملون بما فيه». وقال القتيبي رَحِمَهُ اللهُ: «يعني: جعلوه كالهذيان. ويقال: فلان يهجر في منامه، أي يهذي». وقال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «يهجرون منه بالقول، يعني: يقولون فيه بالقيح». وكما قال بعضهم: «كان اتخاذهم ذلك هجراً، قولهم فيه السييء من القول، وزعمهم أنه سحر، وأنه شعر»^(٢).

ونقل الطبري رَحِمَهُ اللهُ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ وَآخَرِينَ رَحِمَهُمُ اللهُ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: «الخبر عن المشركين أنهم هجروا القرآن وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له». ثم قال مرجحاً هذا المعنى: «وهذا القول أولى بتأويل ذلك»^(٣).

وإن كان بعض أهل العلم قد أدخل ترك التدبر في هجران القرآن مثل ابن القيم وابن كثير رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، فنجد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ قد عدّ من أنواع هجر

(١) تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٢ ص ٢٦٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري ج ١٩ ص ٢٦٤، تفسير السمرقندي بحر العلوم، ج ٢ ص ٥٣٦.

(٣) تفسير الطبري، ج ١٩ ص ٢٦٤.

القرآن، هجر التدبّر فقال: «والرابع هجر تدبّره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه»^(١).

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وترك تدبّره وتفهمه من هجرانه»^(٢).

ولكن! من يهجر التدبّر وهو قادر على أن يتدبّره وهو عالم يسهل عليه ذلك، ثم يهجره زهداً فيه أو انصرافاً عنه، أو استخفافاً به؛ فهو مضمون في الآية ملحق بمن شكاهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمّا العامي الذي لا علم له يحمله على القدرة على التفهم والتدبّر للقرآن؛ والعجمي الذي لا يفهم شيئاً منه؛ فهؤلاء لا تشملهم شكاية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ولا يكونون ممن هجر القرآن أو هجر تدبّر القرآن.

❁ ثامناً:

قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ) الذي أخرجه مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه^(٣).
قال جمال الدين القاسمي رحمه الله: «ولا يعقل هذا إلا بفهمه

(١) الفوائد لابن القيم، ص ٨٢.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٦ ص ١٠٨.

(٣) صحيح مسلم برقم ٢٢٣، وأحمد في المسند برقم ٢٢٩٠٨، والترمذي برقم ٣٥١٧، وابن ماجة برقم ٢٨٠، والنسائي برقم ٢٤٣٧، وابن حبان برقم ٨٤٤، كلهم عن أبي مالك الأشعري، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين برقم ١١١٤ وابن أبي عاصم في الأحاد والمثنائي برقم ٢٥٠٨ عن أبي عامر الأشعري رضي الله عنه.

والإصابة من حكمته وحكمه.. وقال: «خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية في أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايته.. ثم قال: يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته، لا فرق بين عالم وجاهل، يكفي العامي من فهم قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ... إلخ [المؤمنون: ١-٦]، ما يعطيه الظاهر من الآيات..»^(١).

قلت: نعم، ما يعطيه الظاهر من الآيات، وما فسّر به الأئمة، وما استنبطه الفقهاء ونشروه من أحكام القرآن، فهذا الذي يكون حجة له أو عليه، أما التدبر بمعناه المتجاوز للتفسير وما قيل في معاني القرآن الظاهرة؛ فهذا التدبر لا يجب على العامي، ولا يَأْثُمُ بتركه، لأنّه ليس من أهل الفهم والتدبر.

وهكذا نجد الآيات التي تشنّع على ترك التدبر وتنعى على أهل الانصراف عنه، وتذمّمهم، كلها لا تخاطب عامّة المسلمين، بل هي إما في الكفار أو المشركين أو المنافقين، أو فيمن تكبّر على الله وعلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فانصرفوا قصداً ورغبة وتأييماً على الإيمان بما جاء، وإلغاء فيه وتشويشاً للأسماع، إمعاناً في الفرار من الحق والهدى فرار

(١) تفسير القاسمي محاسن التأويل، ج ١ ص ٢٠٤.

الحُمْر من القسورة ، أو فيمن ترك التدبّر قادراً عليه متمكناً من علمه وأداته، زهداً وانصرافاً أو استخفافاً، وكذلك الحديث الذي أوردناه.

فهذه الآيات والأحاديث لا توجب التدبّر على عوام المسلمين، بل لا تنال أحداً من المؤمنين، اللهم إلا إذا نافق من بعد تصديق، وكفر من بعد إيمان، فهو بذاك يصير فيهم ويكون منهم.

❖ ترك التدبّر أقلّ أحواله الكراهة:

مع ما تقرّر أنه لا يجب التدبّر على كل قارئ يتلو القرآن؛ إلا أنه ينبغي أن لا يغفل المسلم القارئ لكتاب الله عن بذل جهدٍ للعيش مع القرآن وفهمه وتدبره، لأنّ ترك التدبّر أقلّ أحواله الكراهة، وتاركه بالكلية مع القدرة عليه مذموم، والمنصرف عنه مع الإمكان مقصّر غير محمود، فإنّ المسلم القارئ للقرآن وإن قلّ علمه، وكثر جهله، وضعف ذهنه، وتباطأ فهمه، وتعطلّ عقله، محمودٌ له أن يسعد بالسعي إلى تدبّر كلام الباري، ومشكور حاله لو يحمل عقله على تفهّم خطابه، حتى ينجو من مكروه شرعي.

فالإعراض عن تدبّر القرآن مع الإمكان مذمّة، وترك التفهّم لكلام الله ملامة.

والآيات التي تذمّ الإعراض عن تدبّر القرآن وإن لم تكن في المؤمنين بالله وبكتابه وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي نُزِلَ على قلبه؛ وكانت

مسوقة لغير المؤمنين الذين أعرضوا عن القرآن وفهمه وتدبره والعمل بموجبه كما تقرّر؛ إلاّ أنّ المؤمن لا يليق به التشبّه بهم في الإعراض عن القرآن وترك تدبره والغفلة عن تفهّم معانيه، فإنّ كان قادراً عليه؛ فقد أتى بمذمّة، وإنّ كان عاجزاً لا يمتلك أدوات التدبّر وهو من عامة المسلمين وليس من علمائهم فالذي يليق به السعي والمحاولة ببذل ما يمكنه للفهم والتدبّر، لأنّ القرآن إنّما أنزل للتدبّر والاتباع والعمل، وكما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «نزل القرآن ليُتدبّر ويُعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإنّ لم تكن هذه همة حافظه؛ لم يكن من أهل العلم والدين»^(٢).
فإنّ كان هذا القرآن قد نزل ليُتدبّر ويعمل به، وكان المطلوب منه هو فهم معانيه والعمل به؛ فإنّ مَنْ قَصَرَ أمره على التلاوة دون الفهم والتدبّر والعمل؛ فقد غفل عن مقصود القرآن ومقصود نزوله، ومن جمع بينهما تالياً القرآن عاملاً به؛ فقد تحقّق بمقصوده وحقّق مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقد قال ﴿وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢]. قال أهل العلم: «نتلو ونعمل به»^(٣).

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، ج ١ ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢) الفتاوى الكبرى، ج ٢ ص ٢٣٥، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج ٢٣ ص ٥٥.

(٣) تفسير السمعاني، ج ٤ ص ١١٩.

وكما يقول الحكيم الترمذي رَحِمَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ « مثل التَّالِي كتاب الله من غير تفهّم وَلَا تدبّر كمثّل رجل جَمَعَ الحَلِيّ من أناسٍ عَارِيَةٍ وفيهَا جَوَاهِر نفيسة مثمّنة، فَجَعَلَهَا فِي صِرَةٍ ثُمَّ عَلَقَهَا فِي عُنُقِهِ كَهَيْئَةِ جرس البَعِير، فَذَلِكَ الصَّوْتُ من الجرس كَأَنَّ والجرس مَثْمَنٌ عَظِيمُ الثَّمَنِ بجوهره، فَمَاذَا لَهُ من تِلْكَ الجَوَاهِر؟ وماذَا لَهُ من ذَلِكَ الضَّوءِ إِلَّا الإِخْبَارُ بِأَنِّي عَلَى الطَّرِيقِ؟!... وَمِثْل من يَقْرُؤُهُ من غير تدبّر كجرس على بعير فالسائق للجمال تسير من أَمَامِهِ بِصَوْتِ ذَلِكَ الجرس لثِقَالَتِهَا لَيْسَ عِنْدَهُمْ إِلَّا ذَلِكَ الصَّوْتُ فِي أَسْمَاعِهِمْ»^(١).

وعلى هذا؛ فلا يليق بالمسلم مهما يكن من حاله أَنْ يتعمّد ترك تدبّر القرآن، والغفلة عن تفهّم معانيه ثم العمل بما فيه من أوامر وتعاليم وتوجيهات، وإِلَّا كَانَ مقصّراً في حقّ القرآن، فَإِنَّ بذل ما يمكن بذله من جهد وسعي في تدبّر القرآن دلالة على محبة كلام الله يُشكر الباذل ولو كان من عامة المسلمين ليس له ما يكفيه من العلم للنظر والتأويل والاستنباط والتدبّر. وهذا مرادنا بأنّ التدبّر في حقّ عامة المسلمين ممن يقرأون القرآن مستحبٌّ.

وعليه؛ كان التدبّر لكتاب الله عز وجل يعتريه ثلاثة أحكام:

♦ الوجوب العيني في حقّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ هُوَ المنزّل على

(١) الأمثال من الكتاب والسنة، للحكيم الترمذي، ص ٧٠، ص ٧٢.

قلبه ليقوم لِمَا فيه مبلّغاً، وليكون للعالمين مبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله
بإذنه وسراجاً منيراً، وليكون مبيناً لأحكامه وحكمه، فواجب عليه عينا
أن يتدبّر ما في الكتاب ليقوم بمهمته ووظيفته النبوية ﷺ.

♦ والوجوب الكفائي في حق علماء الأمة من ورثة المصطفى الحبيب
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهم مكلفون على اختلاف علومهم وفنونهم ببيان
الكتاب وتعليم ما فيه من التشريع والتوجيه على منهاج النبوة O، فكل
واجب عليه أن يتدبّر من القرآن ما يليه من وجوب البيان ليقوم بواجبه، إذ
لا يتم واجب البيان إلا بفهم ومعرفة ما يبيّن، وما لا يتم الواجب إلا به فهو
واجب .

♦ والاستحباب في حق غيرهم من عامة المسلمين ممن ليسوا بعلماء
ولا من المجتهدين في علوم الدين ولا في علم الكتاب، ولا قدرة لهم على
الاستنباط والفهم على وجهه والتدبّر لمعاني القرآن، فهذا حقّه أن يبذل ما
يبذله استحباباً لا وجوباً لفهم ما يتلوه من الكتاب متحققاً بمقصود نزوله
والسعي بمجهود على قدر ما يمكنه لتحقيق مقصود التلاوة، وهذا يكفي
وبه يخرج من الذم على ترك التدبّر ولا يكون ممن أعرض عن الكتاب ولا
عن فهمه وتدبّره.

رزقنا الله الفهم لكتابه والتدبّر لآياته والارتباط بالقرآن والاشتغال به
ليلاً ونهاراً.

اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا بِالْقُرْآنِ، واجعله لنا إِمَامًا وَهْدَى وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ ذَكِّرْنَا مِنْهُ مَا نَسِينَا، وَعَلِّمْنَا مِنْهُ مَا جَهِلْنَا، وارزقنا فهمه وعلمه وتدبره، واجعلنا له تَالِينَ مُرَتَّلِينَ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرْضِيكَ عْنَا، واجعله لنا حِجَّةً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.



الفصل الثالث

ثمرات التَّكْبَرُ وفوائده

مدخل:

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَدْعُ أَرْبَابَ العقول والألباب، ممن زادهم إيماناً؛ إلى التدبّر لآيات الله الكريمات، والتفكّر في كلامه المعجز البديع، والتأمّل في معاني خطابه والوقوف على أسرار القرآن؛ لَمْ يَدْعُهُمْ إِلَى ذَلِكَ كُلَّهُ عَبَثًا، بل لما ينتججه التدبّر للقرآن والتفكّر في آياته من البركة والخير والنفع، ولما يجتنيه المتدبرون من ثمرات التدبّر اليانعة ولما يجتلبونه من لطائف المعارف، وما ينالونه من بدائع المعاني، وما يلتقطونه من الفرائد، وما يحوطونه من الفوائد.

فإنّ ثمرات التدبّر لا عدّ لأفرادها ولا حصر، وفوائده لا جمع يحويها ولا إحصاء، وهي تُسعد كل متدبّر وتهنيه، وتمدّد كل متفكّر في القرآن بباقياتٍ منها تُهديه، وتزيد كل واقف يتأمّل في آيات الكتاب حتى تغنيه.. فالحصر لثمرات التدبّر شاقٌّ عسير، وادعاء حدّها دعوى نادرة البينة، ومع ذلك؛ من الواجب التنبيه إلى ما تيسّر جمعه من فوائد التدبّر وثمراته وما قيل فيها..

مما قيل في فوائده وثمراته:

فقد أجمل كثيرٌ من الأئمة الأخيار رحمهم الله تعالى بعبارات لطيفة وجمل جامعة رشيقة فوائد التدبّر وثمراته..

♦ فنجد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منشوره»^(١).

♦ ويعقد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فَصلاً مفيداً في فوائد تدبر القرآن وتأمل معانيه، فقال في فوائد التدبر للقارئ المرتل لكتاب الله المتأمل في معانيه الواقف على دلالات آياته: « فلا تزال معانيه تُنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضرع والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعدها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل، وتحذو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، ج ٢ ص ٢٧٠.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد. وبالجمله فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه.

نزه فؤادك عن سوى روضاته فرياضه حلٌ لكل منزه
والفهم طلسم لكنز علومه فاقصد إلى الطلسم تحظ بكنزه
لا تخش من بدع لهم وحوادث ما دمت في كنف الكتاب وحرزه
من كان حارسه الكتاب ودرعه لم يخش من طعن العدو ووخزه
لا تخش من شبهاتهم واحمل إذا ما قابلتك بنصره وبعزه
والله ما هاب امرؤ شبهاتهم إلا لضعف القلب منه وعجزه
يا ويح تيس ظالع يبغي مسا بقه الهزبر بعدوه وبجمزه
ودخان زبل يرتقي للشمس يستر عينها لما سرى في أزه
وجبان قلب أعزل قد رام يأ سر فارساً شاكي السلاح بهزه^(١).

♦ ويقول رَحِمَهُ اللهُ قَبِيل هذا الموضع: « فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعادته، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، ج ١ ص ٤٥١.

يحذفيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل
أهلها، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد
الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وترى صورة الدنيا والآخرة
والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وترى أيام الله فيهم، وتبصره
مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته
وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد
الوصول والقُدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتا، وتعرفه النفس وصفاتها،
ومفسدات الأعمال ومصحاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار
وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة،
وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترون
فيه. وبالجملّة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من
الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه
الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة
والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروريٌّ للعبد معرفتها، ومشاهدتها، ومطالعتها،
فتشاهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها،
وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم. فترى الحق حقاً،
والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، والغى
والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة، وسعة وانسراحاً وبهجة وسروراً،

فيصير في شأن والناس في شأن آخر»^(١).

♦ ويقول الآجري رَحِمَهُ اللهُ مِنْبَهًا إِلَى ثمرات التدبُّر وفوائده وما يحققه في العبد القرآني الصالح المرتل بفهم، وإلى مدى حاجته إلى تدبُّر وتفهم كلام ربه جلَّ وعلا: «ألا ترون - رحمكم الله - إلى مولاكم الكريم؛ كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الربَّ عزَّ وجلَّ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه. ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن، وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند تلاوة السورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلو؟ ولم يكن مراده: متى أختتم السورة؟ وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق لذلك»^(٢).

♦ ويقول العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]:

(١) المدارج نفسه، ج ١ ص ٤٥٠.

(٢) أخلاق حملة القرآن، للآجري، ص ١٧-١٨.

«فإن تدبّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد العبد تأملًا فيه ازداد علمًا وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

ومن فوائد التدبّر لكتاب الله: أنّه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنّه كلام الله، لأنّه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضًا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: فلمّا كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً^(١).

(١) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ١٨٩ - ١٩٠.

♦ ويقول في موضع آخر: « تدبّر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر »^(١).

♦ ويقول الأستاذ سيّد قطب رَحِمَهُ اللهُ فِي الظلال: « تدبّر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير »^(٢).

♦ ويقول المراغي رَحِمَهُ اللهُ: « إنّ تدبّر القرآن وتأمّل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم، وصراط الحق المستقيم، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله، وإلى وجوب الاهتداء به، وإلى أنه معقول في نفسه موافق للفطرة ملائم للمصلحة، وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة.

ولو تدبّر المسلمون القرآن واهتدوا به في كل زمانٍ؛ لَمَا فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولَمَا ظلم واستبدّ حكامهم، ولَمَا زال ملكهم وسلطانهم، ولَمَا صاروا عالةً في معاشهم على سواهم »^(٣).

فترى من كلامهم رحمهم الله كثرة ما يجنيه المتدبّر للقرآن من الثمرات الغنية صدقاً وعدلاً، والفوائد النفيسة صلاحاً وفلاحاً، والدرر

(١) تفسير السعدي نفسه، ص ٥٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦ ص ٣٢٩٧.

(٣) تفسير المراغي، ج ٥ ص ١٠٣ - ١٠٤.

البهية الداعية للتعلق بكتاب الله وصدق الارتباط به..

منشورات من الفوائد والثمرات:

ويحسن أن ننبّه إلى بعض الفوائد والثمرات الظاهرة لتدبر القرآن من غير إحصاء لجميعها، مع شيء من البيان لها !!!..

فمن ثمرات التدبر وفوائده:

[١] تحصيل البركة الشاملة:

تلك البركة الموصوف بها الكتاب المبارك، الموعود بها من مُنزله الذي تبارك فنزل الفرقان، وتبارك فجعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً وقمرًا منيراً، وتبارك بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وتبارك اسمه ذو الجلال والإكرام.

فكتابه الكريم جلّ وعلا هو الكتاب المبارك، حرفاً، وصوتاً، ورسمًا، ونظمًا، ومعنىً، وقراءةً، وإطلاعًا، ونظرًا، ونسخًا، وتعلّمًا، وتعليمًا، وتصديقًا للرسول، وتأييدًا للكتب، وإنذارًا وتبشيرًا، وإنزالًا وترتيلًا، وتلاوةً واتباعًا..

وصدق الله القائل: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]..

والقائل: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]..

والقائل: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥]..

« فبركة القرآن شاملة لكل الجوانب والمجالات، فهو مبارك في مصدره، وفي حامله، وفي من نزل عليه، ومبارك في مهمته ورسالته ووظيفته، ومبارك في حجمه، وفي معانيه ودلالاته، وفي علومه ومعارفه. مبارك بركة دائمة شاملة حتى قيام الساعة»^(١).

والبركة الشاملة تغمر المتدبر للقرآن وبلاً وطلاً طالما اعتلا رتبة التدبر يفهم كلام الله ويتذكر آياته، وقد قال جلّ وعلا: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

[٢] تحقيق الوصال بين القلب والقرآن:

إذ القارئ غير المتدبر لا تجاوز قراءته تراقبه ولا يتعدى حناجره ويتردد صوت تلاوته بين شحمة أذنيه وصدغيه، وهذا الذي وصف به من أنزل القرآن على قلبه أهل البؤس والتعاسة من الخوارج الذين أكثروا من القراءة الجافة التي ترددها الألسن ولا تتلقاها القلوب، وأظهروا الطقوس اليابسة التي تراها ولا تعيشها وتحركها ولا تحييها، فقال في وصفهم عليه الصلاة والسلام: (يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ. وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ. وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ. يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ

(١) انظر: تصويبات في فهم بعض الآيات، د. صلاح الخالدي، ص ١٢.

خَاجِرُهُمْ.. وفي رواية (لا يجاوز تراقيهم) يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقُ
السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ. تَنْظُرُ فِي النَّصْلِ، فَلَا تَرَى شَيْئًا. وَتَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ، فَلَا
تَرَى شَيْئًا. وَتَنْظُرُ فِي الرِّيشِ، فَلَا تَرَى شَيْئًا. وَتَتَمَارَى فِي الْفُوقِ ^(١).

فليس الأهم في عالم التلاوة والترتيل ترديد اللسان حروف الكتاب،
ولا الأهم سماع الآذان أصوات التلاوة، بل الأهم رسوخ كلمات الله
التامات في قلب التالي المرتل؛ حينئذ ينتفع، لأنه يحقق الارتباط المقصود
بين الرب والعبد، والوصال الحق بين القلب والقرآن.

ولذلك لَمَّا جاء نبيك بن سنان إلى عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
فقال: يا أبا عبد الرحمن كيف تقرأ هذا الحرف؟ ألفاً تجده أم ياء (من ماء
غير ء اسن)، أو (من ماءٍ غير ياسن)؟، فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَكُلَّ
القرآن قد أحصيت غير هذا؟»، قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد
الله: « هَذَا كَهَذَا الشُّعْر، إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ
إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ؛ نَفْعٌ » ^(٢).

فوقوع القرآن في قلب القارئ هو الذي ينفع، لأنه يحقق الوصال بين
القلب والقرآن.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٠٥٨، ومسلم في صحيحه برقم ١٤٨، ومالك في
الموطأ برقم ٢٧٣، وبرقم ٦٩٤، ومعمر في الجامع برقم ٢٠٧٩٠، وعبد الرزاق في
مصنفه برقم ١٨٦٧٦، وأحمد في مسنده برقم ٧٠٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٨٢٢. والترمذي في سننه برقم ٦٠٢.

ولقد خشي شيخ القراء أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ اللهُ تعالى ظهور ورثة هؤلاء الذين لا يجاوز القرآن تراقيهم فيمن بعدهم من القرون الخيرة رضوان الله عليهم، يقول: «إِنَّا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ فَأَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْآخِرِ حَتَّى يَعْمَلُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعِلْمِ قَالَ: فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعاً وَإِنَّهُ سِيرَتْ هَذَا الْقُرْآنَ قَوْمٌ بَعْدَنَا يَشْرِبُونَهُ كَشَرْبِهِمُ الْمَاءَ لَا يَجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، قَالَ: بَلْ لَا يَجَاوِزُ هَهُنَا وَوَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ حَنَكِهِ»^(١).

وهذا الذي وصَّى به أبو الدراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أهل الكوفة وقد جاء رجلٌ إليه فقال له: إن إخواناً لك من أهل الكوفة يقرئونك السلام، ويأمرونك أن توصيهم. فقال: «أقرئهم السلام ومُرهم فليعطوا القرآن بخزائيمهم، فَإِنَّهُ سَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقَصْدِ وَالسَّهْوَةِ وَيَجَنِّبُهُمُ الْجَوْرَ وَالْحَزُونَ»^(٢).

والخزائم جمع خزامة وهي حلقة توضع في أنف البعير ليشد بها الزمام، والمراد: استسلم للقرآن، وأعطه زمامك، وملَّكه قلبك وصلَّه به، ثم اتركه يقودك، وسر وراءه تابِعاً مطيعاً.

قال عبد الرزاق الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ: «يعني بخزائيمهم: اجعلوا القرآن مثل الخزام في أنف أحدكم، فاتبعوه واعملوا به»^(٣).

(١) البدع لابن وضاح، ج ٢ ص ١٧٠ برقم ٢٥٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم ٥٩٩٦، والدارمي برقم ٣٦٤٩،

(٣) مصنف عبد الرزاق الصنعاني، ج ٣ ص ٣٦٨.

[٣] اليقين بصحة نبوة محمد ﷺ:

وبتدبر القرآن يعرف بيقين صحة نبوة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ آخِذِينَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى تَعَالَى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]: « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى احْتَجَّ بِالْقُرْآنِ وَالتَّدَبُّرِ فِيهِ عَلَى صَحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ فِي ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أحدها: فصاحة القرآن التي عجز الخلائق عن الإتيان بمثلها في أسلوبه.

والثاني: إخباره عن الغيوب، وهو ما يطلع الله تعالى نبيه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى أحوال المنافقين، وما يخفونه من مكرهم وكيدهم، فيفضحهم بذلك، وغير ذلك من الأخبار عن أحوال الأولين وأخبارهم، وما يأتي في المستقبل من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

والثالث: سلامته من الاختلاف والتناقض، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « يعني تفاوتاً وتناقضاً. وفي رواية عنه: لو كان من عند مخلوق؛ لكان فيه كذبٌ واختلافٌ ». وقيل معناه: لوجدوا في إخباره عن الغيب بما يكون وبما قد كان؛ اختلافاً كثيراً، لأنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله

تعالى. وإذا كان كذلك؛ ثبت أنه من عند الله، وأنه ليس فيه اختلاف ولا تناقض، وقيل: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً من حيث البلاغة والفصاحة. والمعنى: لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق، بعضه فصيحٌ بليغٌ حسنٌ، وبعضه مردودٌ ركيكٌ فاسدٌ. فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد في الفصاحة والبلاغة؛ ثبت أنه من عند الله. فلو كانوا يتفكرون في القرآن ويتدبرونه لعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر به عن الغيوب أنه كلام الله عز وجل وأن من بلغ به صادق أمين صلى الله عليه وسلم»^(١).

[٤] أجمع الطرق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله:

والعلم بأن الله تعالى لا إله إلا هو واجبٌ عينيٌّ ضروريٌّ إذ بدونه لا يتحقق إيمان حق ولا توحيد ولا اعتقاد صحيح، وبدون ذلك لا يقبل عملٌ مهما صلح، ولا يرتضى بصرف ولا عدل من أحدٍ، وكل عمل وتصرف وسلوك مبنيٌّ على هذا العلم، لذلك قال الله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

وللعلم بأنه لا إله إلا الله طرقٌ سرد منها الشيخ السعدي رحمه الله على وجه الإجمال والعموم تسعة طرق:

(١) انظر: تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، بتصرف يسير، ج ١ ص ٤٠٢.

« أحدها: - وهو أعظمها وأوضحها وأقواها - تدبر أسماء الله وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله؛ فإن معرفتها توجب العلم بأنه لا يستحق الألوهية سواه، وتوجب بذل الجهد في التأله والتعبد لله الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير، فبذلك يعلم أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به محبة وإنابة، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما يراه العباد ويسمعونه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر لرسله وأتباعهم، ومن النعم العاجلة المشاهدة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا برهان على أنه وحده المستحق للألوهية.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها فقيرة إلى الله من كل وجه، ناقصة من كل وجه، لا تملك لنفسها، ولا لمن عبدها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؛ فالعلم بذلك يعلم به بطلان إلهيتها، وأن ما يدعون من دون الله هو الباطل، وأن الله هو الإله الحق المبين.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: اتفاق الأنبياء والرسل والعلماء الربانيين على ذلك،

وشهادتهم به، وهم خواص الخلق، وأكملهم أخلاقاً وعقولاً وعلماً و يقيناً.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة والآيات الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وأوضحها، وتنادي عليه بلسان المقال ولسان الحال، بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

التاسع: ما أودعه الله في شرعه من الآيات المحكمة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير، وجلب المنافع كلها ودفع المضار، ومن الإحسان المتنوع، وذلك يدل أكبر دلالة أنه الله الذي لا يستحق العبادة سواه، وأن شريعته التي نزلت على السنة رسله شاهدة بذلك.

ثم أكدّ رحمه الله تعالى أن الطريق الأعظم الجامع لذلك كله؛ هو تدبر القرآن العظيم والتأمل في آياته، وأنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجُمُله ما لا يحصل من غيره « اهـ المراد نقله بتصرف^(١) .

[٥] التخلّق بأخلاق القرآن:

إنّ من غايات تدبر القرآن الكريم؛ العمل اللائق بالقرآن خُلُقاً وسلوكاً، مما يرضي الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصالحه

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، للسعدي، ص ٢١ - ٢٣ .

المؤمنين ويشرّفه بين يدي ربه يوم القيامة ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وسيد الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إنما شهد له ربه بعظمة خلقه فقال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]؛ لأنه استوعب القرآن وعرف غاياته وفهم عن الحكيم الباري جلّ وعلا مراده بأوامره ونواهيه، فتخلّق بخلق القرآن، يشهد له بذلك أقرب من معه وأكثر من عاشره وصاحبه خلوةً وجلوةً الصديقة بنت الصديق رضوان الله تعالى عليها، تقول لسعد بن هشام بن عامر حين سألها عن خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كان خُلُقُهُ القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه)^(١).

ورحم الله البوصيري يصف خلق نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ينشد:

أكرم بخلق نبيّ زانه خُلُقٌ بالحسن مشتمل بالبشر متسم

كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في همم

كأنه، وهو فرد من جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم

كأنما اللؤلؤ المكنون في صدف من معدني منطق منه ومبتسم

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم ٢٤٦٠١، والبخاري في خلق أفعال العباد ص ٨٧، وفي الأدب المفرد برقم ٣٠٨، والبيهقي في شعب الإيمان ج ٣ ص ٢٣ والطبراني في المعجم الوسيط برقم ٧٢، واللفظ للبيهقي والطبراني.

وأحسن والله أنس الدغيم حفظه الله وهو يقول:

سبحان مَنْ أَسْرَى بِهِ لَيْلاً وَمَنْ أَدْنَاهُ مِنْ قَوْسِ الْجَلَالَةِ قَابَا

وَارْتَدَّ مَنْ أَعْلَى لِيَخْصِفَ نَعْلَهُ وَيَطَاعِمَ الْفُقَرَاءَ وَالْأَصْحَابَا

خُلِقَ كَأَنَّ الْوَدْقَ مِنْ أَعْطَافِهِ وَخِلَالَهُ يُهْدِي الْوُجُودَ سَحَابَا

خُلِقَ هُوَ الْقُرْآنُ هَذَّبَ حُسْنُهُ عَرَبًا، وَزَكَّى يُمْنُهُ أَعْرَابَا

وبهذا يُعلم أَنَّ الغاية من قراءة القرآن التخلق بخلقه، وأنَّ هذا التخلُّق تشبُّهًا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وتأسيًا به؛ إنما ينتجه التدبُّر للقرآن، ويثمره التفهُّم لمعانيه والتبصُّر لمراميهِ، والتنبُّه لجلالِ أَلطافهِ، والتعلُّق بجمائل آدابه، فيتحقَّق بها خلقًا وسلوكًا حتَّى يصير بها مسلمًا محمديًا قرآنيًا عظيمًا تسعد به الأرض والسماء.

ولتحقيق هذه الثمرة اليانعة بتدبُّر القرآن حرص السلف الصالح على التنبيه عليه والدعوة إليه، فينادي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أهل القرآن وحملة العلم بالتدبُّر والتحقيق بمقتضياته والتخلُّق بمطلوباته يقول: « يا حملة القرآن أو قال يا حملة العلم! اعملوا به فإنما العلم من عمل بما علم ووافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم »^(١).

(١) البيان في آداب حملة القرآن، ص ٣٦.

ونسلم ما لك بن دينار رَحْمَةُ اللَّهِ ينادي حملة القرآن يدعوههم إلى التدبر والعمل بموجباته يقول: «يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض، فقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش فيكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتحسن، فيا حملة القرآن ما زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟»^(١).

ونجد الحسن البصري رَحْمَةُ اللَّهِ يتألم لحال من يقرأ القرآن على الغفلة عن مراداته بلا فهم ولا تدبر ولا عمل به فيقول رَحْمَةُ اللَّهِ: «إن هذا القرآن قرأه عبید وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من قبل أوله، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾» [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا أتباعه، ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله، فما أسقط منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له في خلق ولا عمل وحتى عن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفسٍ، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كانت القراء تقول مثل هذا، لا أكثر الله في

(١) مختصر قيام الليل وقيام رمضان، ص ١٧٧، وحلية الأولياء، ج ٢ ص ٣٥٨، والعقوبات لابن أبي الدنيا، برقم ٩٤.

الناس مثل هؤلاء»^(١).

والحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ يَصْنَفُ قِرَاءَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ، يَنْعَى عَلَى مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ، وَيَحْمَدُ لِمَنْ تَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ وَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ، يَقُولُ: «قَرَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ: رَجُلٌ أَخَذَهُ بَضَاعَةٌ يَنْقُلُهُ مِنْ مِصْرٍ إِلَى مِصْرٍ، يَطْلُبُ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ، وَقَوْمٌ قَرَأُوا الْقُرْآنَ وَحَفَظُوا حُرُوفَهُ وَضَيَعُوا حَدُودَهُ وَاسْتَنْزَلُوا بِهِ الْوَلَاةَ وَاسْتَطَالُوا بِهِ عَلَى أَهْلِ بِلَادِهِمْ، فَقَدْ كَثَرَ هَذَا الضَّرْبُ فِي حِمْلَةِ الْقُرْآنِ لَا كَثَرَهُمُ اللَّهُ. وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَتَدَاوَى بِدَوَاءِ الْقُرْآنِ، فَوَضَعَهُ عَلَى دَاءِ قَلْبِهِ فَسَهَرَ لَيْلَهُ، وَهَمَلَتْ عَيْنَاهُ، تَسْرِبُلُوا الْحَزْنَ وَارْتَدَّوْا بِالْخُشُوعِ، ذَكَرُوا فِي مُحَارِبِهِمْ، وَأَخْفَوْا فِي بَرَانِسِهِمْ، بِهِمْ يَسْقِي اللَّهُ الْغَيْثَ، وَيَنْزِلُ النُّصْرَ، وَيُدْفَعُ الْبَلَاءُ، وَاللَّهُ لِهَذَا الضَّرْبِ فِي حِمْلَةِ الْقُرْآنِ أَقَلُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ»^(٢).

وَنَرَى الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ يَنْبِّهُ تَنْبِيَهُ الْحَازِرَ النَّاصِحَ مِنْ انْحِرَافِ النَّاسِ عَنْ مَقْصُودِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّدَبُّرِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنْ غَايَاتِ التَّنْزِيلِ مِنَ التَّخَلُّقِ وَالْإِتْبَاعِ وَالْعَمَلِ بِهِ فَيَقُولُ: «إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيَعْمَلَ بِهِ فَاتَّخِذِ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا، قِيلَ: كَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ؟ قَالَ: لِيَحْلُوا حِلَالَهُ،

(١) مختصر قيام الليل نفسه ص ١٧٦.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، ج ٤ ص ١٩٣، برقم ٢٣٨١، والرقعة والبكاء لابن قدامة،

برقم ١٥٩.

ويحرّموا حرامه، ويأتَمروا بأوامره، وينتَهِوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه»^(١).

ولهذا وضع الفاروق أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معيار الذهب في التعرّف على أهل القرآن وَمَنْ هُمْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ؟ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يغرركم من قرأ القرآن، إنّما هو كلامٌ نتكلّم به، ولكن انظروا من يعمل به»^(٢).

فالمعيار الكاشف عنه إِذَنْ؟ هو: العمل بمقتضاه، والتجمل بمرتضاه، والسعي للتحقق بمبتغاه، والنأي عما يأباه.

فالتخلّق بخُلق القرآن والتأدّب بأدابه من غايات التدبّر وثمراته وفوائده الجليلة، ومن لم يستفدْ بقراءته القرآن؛؛ فأتى ما نهى عنه القرآن؛؛ واستخفّ بما أمر به القرآن؛؛ فليس بقارئ! كما نبّه إلى ذلك سيّد شباب أهل الجنة الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك؛ فلست تقرأه»^(٣).

(١) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ص ٧٦، وانظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ج ٣ ص ٩١٣.

(٢) اقتضاء العلم العمل، نفسه، ص ٧١، وانظر: نضرة النعيم، ج ٧ ص ٣٠٤٨.

(٣) فضائل القرآن للقاسم بن محمد ص ١٣٤، وأخرجه الدولابي في الكنى والأسماء برقم ١١٥٩ عن الحسن البصري، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١٤٥٤٣ مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله

فأهل التدبّر هم أهل القرآن، المتخلّقون بأخلاقه، المتحقّقون بآدابه،
العاملون بأوامره ونواهيه، المقبلون على محابه، الفارّون عن مساخطه،
فهم يرضون لرضاه، ويسخطون لسخطه، يحبون محابه، ويبعضون
مباغضه.

ولهذا؛ تمنّى الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في خاتمة كتابه "التبيان في آداب
حملة القرآن" أن يصنّف في أهل القرآن الجامعين بين حسن التلاوة
وحسن الاتباع، وأن ينظم في سلوكهم، فيدعو ربه يقول: « فالله أسأل أن
ينظمني في سلك حَمَلَةِ القرآن، الذين يحلّون حلاله، ويحرّمون حرامه،
ويرعون حدوده، ويجيدون تلاوته، وأن يميّتي على حبهم، وأن يحشرنني
في زميرتهم وتحت لوائهم » اهـ^(١).

ومن جميل ما أنشدوه^(٢):

وأضاء للناس طريقاً مشرقاً	نورٌ على مرّ الزّمان تألّقاً
للصالحات وللمكارم والتقوى	وهُدًى من الرّحمن يهدينا به
أنعم به من مورد لمن استقى	هذا كتاب الله أعذب منهل
وشفاؤنا من كل داء أَرهقنا	هذا كتاب الله زاد قلوبنا
فبه تبوأنا المكان الأسمقاً	هذا هو القرآن مصدر عزنا

عنه، وفي مسند الشاميين برقم ١٣٤٥، وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن مكحول.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ٢٣٠.

(٢) من كلمات حسان القاضي، جزاه الله خيراً.

قد صانه ربّ العباد بحفظه وحماه حتى لا يضيع ويخلقاً
طوبى لمن حفظ الكتاب بصدرة فبدا وضيئاً كالنجوم محلّقاً
وتمثّل القرآن في أخلاقه وفعا له، فيه الفؤاد تعلّقاً
وتلاه في جنح الدجى متدبّراً والدمع من بين الجفون ترقّقا
هذي صفات الحافظين كتابه حقّاً فكن بصفتهم متخلّقاً
يا حافظ القرآن رتل آيّه فالكُل أنصت للتلاوة مطرّقا
يا حافظ القرآن لست بحافظٍ حتى تكون لما حفظت مطبّقاً
ماذا يفيدك أن تسمّى حافظاً وكتاب ربك في الفؤاد تمزّقا
يا أمّتي القرآن جبل نجاتنا فتمسكي بعراه كي لا نغرقا
ولتجمعي حول الكتاب شتاتنا حتى نزيل تناحراً وتفرّقاً
ولتجعليه مُحْكَمًا في أمرنا وثقي بوعد الله أن يتحقّقاً

[٦] الوقوف على وجوه الإعجاز القرآني:

فمن تدبّر القرآن وقف فيه على وجوه الإعجاز القرآني الباهرة فنوناً
ظاهرة وخفية، من جهة اللفظ ومن جهة المعنى^(١)، حيث أحكمت ألفاظه
وفصلت معانيه، وكلّ من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، وكما

(١) راجع بتوسع: تفسير ابن كثير، ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠، وانظر: صفوة التفاسير

للصابوني، ج ١ ص ٣٦، والأساس في التفسير، لسعيد حوى، ج ١ ص ١٠٤.

يقول الصلاح الصفدي رحمه الله^(١) :

رَأَيْتُ كِتَابَ اللَّهِ أَعْظَمَ مُعْجَزٍ لِأَفْضَلِ مَنْ يَهْدِي بِهِ الثَّقَلَانِ
وَمِنْ جَمَلَةِ الْإِعْجَازِ كَوْنُ اخْتِصَارِهِ بِإِيجَازِ أَلْفَاظٍ وَبَسْطِ مَعَانِي.
وَالْحَكِيمُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُعْجَزاً فِي
النِّظْمِ، وَمُعْجَزاً فِي اللَّفْظِ، وَمُعْجَزاً فِي الْمَعْنَى، بَلْ وَمُعْجَزاً فِي الْحَرْفِ، بَلْ
حَتَّى فِي الْخَطِّ الَّذِي كَتَبَ بِهِ الْمَصْحَفَ الشَّرِيفَ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ^(٢) :

وَالْخَطُّ فِيهِ مُعْجَزٌ لِلنَّاسِ وَحَائِدٌ عَنْ مَقْتَضَى الْقِيَاسِ
لَا تَهْتَدِي لِسْرَهُ الْفَحُولُ وَلَا تَحُومُ حَوْلَهُ الْعُقُولُ
قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ دُونَ جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمَنْزُولَةِ
لِيُظْهِرَ الْإِعْجَازَ فِي الْمَرْسُومِ مِنْهُ كَمَا فِي لَفْظِهِ الْمَنْظُومِ.

وَالْإِعْجَازُ الْقُرْآنِيُّ لَا يُدْرِكُ وَجُوهَهُ إِلَّا الْمَتَدَبِّرُ الْمَوْفَّقُ !!! ..

♦ فَأَنَّى لغير المتدبر أن يقف على إعجاز النظم من الفصاحة المعجزة
للبلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثله في أقصر سورة؟! وإن كان بليغاً فذاً، أو
شاعراً فرداً، أو فصيحاً خطابة ونثراً!! ..

♦ وَأَنَّى للقارئ من غير تدبر أن يقف على الإعجاز التاريخي

(١) تفسير القاسمي، محاسن التأويل، ج ٧ ص ٥٥.

(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن، فيصل بن عبد العزيز النجدي، ج ١ ص ٧٩ - ٨٠.

والخبري؟! وإن غاص في علم التاريخ واطَّلَعَ على قصص الغابرين وجمع مصادر الأخبار وتتبَّع آثارها!!..

♦ وَأَنَّى لَهُ أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ وَجْهِهِ الإعجاز التشريعي من غير تدبُّر وإن كان حافظاً لكتب الفقه جامعاً لآراء الفقهاء دارساً لأقوال المذاهب؟!..

♦ وَأَنَّى لَهُ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ وَجْهِهِ الإعجاز الطبي أو العلمي أو الكوني أو الفلكي أو الجيولوجي أو الطبيعي أو النفسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي وغيرها وإن درس علوم الطب أو الفيزياء أو الفلك أو علم البحار وعلم الجيولوجيا وباطن الأرض وعلوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة إلا أن يجمع إلى ذلك ما يمكنه من تدبُّر القرآن؟!..

فلن يُنَالِ شيءٌ من ذلك إلا بالتدبُّر. فيثمر له الوقوف علىٰ وجوه إعجاز القرآن المختلفة؛ صدق القرآن وهيمته علىٰ كل كتاب منزل أو سفر مصنوع مجموعٍ بحقٍّ وصدق.

وأهل التدبُّر حين يُفْتَحُ عليهم بركات التدبُّر من وجوه الإعجاز!! لا يتملِّكون أنفسهم، تهتزَّ جوارحهم، وتقشعر جلودهم، وكيف لا؛؛ والقرآن تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، والآذان الواعيات، والعقول المتفتحات؟!.. وصدق الله الذي قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وهو ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

[٧] مزيد العلم والإيمان:

لا شكَّ أنَّ تدبّر القرآن يزيد المتدبر علماً يعلو على علوم من سواه ممن لا يتدبّر وإن كان حافظاً للمسائل، عارضاً للعلوم عن ظهر، باسطاً لقضاياها في كل مجلس، فصاحب التدبّر لا شك يفوقه علماً، لأنّه فهم عن الله مراده من خطابه، وتحصل بتدبره لكلامه المعاني التي لا تُحصّل إلا بالتفهم والتبصّر.

والتدبّر يزيد المتدبّر إيماناً على إيمانه فيفوق به المؤمنين، لأنّ تدبره لكتاب الله واشتغاله بهذا التدبّر يفضي به إلى الاستبصار لحقائق الإيمان الماثلة في ثنايا المعاني القرآنية التي إن مرّ عليها القارئ مرور الكرام بالاطّلاع بالبصر؛!! فالمتدبّر يغوص فيها بالبصيرة فيزداد تعلقاً بالله وبكتاب الله، وتذكراً بمطلوبات الإيمان يرتقي في سلم الإحسان فيكون من سادات المحسنين، والقرآن كما نعلم منزل للتدبّر ثم التذكّر مصداق قول سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وهذا المتدبّر الموفق هو الذي يستبشر بحاله وما وفق إليه من تفهم القرآن وما أثمر له تدبره علماً بكلام الله وإيماناً بمقتضياته، وقد قال تعالى فيهم يعظّمهم ويمتدحهم دون غيرهم: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ

يُسْتَبْشِرُونَ ﴿ [التوبة: ١٢٤] . وإنما ازداد المؤمنون إيماناً بسبب فهمها وتدبرها، واعتقاد ما فيها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، ثم يبشر بعضهم بعضاً بهذه النعمة الجليلة والمنة العظيمة، من إنزال الآيات وفهمها، والعمل بها، مما يدل على أن صدورهم منشروحة، وقلوبهم مطمئنة، فيبادرون إلى العمل مع فرح واستبشار.

ولعل هذه المعاني هي ما أراده ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ حين قال: « إِنَّ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفْهَمِهِ مِنْ مَزِيدِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مَا لَا يَحِيطُ بِهِ بَيَانٌ »^(١).

لأنَّ أشْهَقَ وَأَرْسَى وَأَوْسَعَ وَأَضْخَمَ وَأَجْمَلَ وَأَكْمَلَ وَأَبْدَعَ صُرُوحَ الْعِلْمِ؛ إِنَّمَا يُبْنَى فِي الْأَصْلِ بِأَعْطِيَّاتِ الْقُرْآنِ وَهَدَايَاهِ وَمِرَاشِدِهِ وَإِشَارَاتِهِ، وَلِهَذَا كَانَ مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: « مَا نَسَأَلُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَعِلْمُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ عَلِمْنَا قَصَرَ عَنْهُ »^(٢)، وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ، إِذْ يَصَدِّقُهُ الْقُرْآنُ: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ..

(١) مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٨١، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، لابن تيمية، ص ٧٥، أمراض القلوب وشفائها لابن تيمية، ص ٧٥.

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، ص ٩٦. والعلم لزهير بن حرب، ص ١٥ برقم ٥٠، وشعب الإيمان للبيهقي برقم ٢٠٨٧ ج ٣ ص ٥٤٢، بلفظ: " ما نسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء إلا وجدناه في كتاب الله إلا أن رأينا يقصر عنه".

[٨] وصول مراتب اليقين:

واليقين من الإيقان الذي هو العلم المحصّل بالبحث والسعي، القائم على الحجة والبرهان، والمستقرّ في العقل والجَنَان بقوة الإيمان، وقد تقرر أن التدبّر فيه مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان، ليتقرر ههنا أنّ مراتب اليقين "علمًا وعينًا وحقًا" إنما يوصل إليها بالتدبّر.

فأهل التدبّر باشتغالهم بتدبّر كلام الله تعالى يجدون رَوْح القلوب، وتفتح العقول، واتساع الألباب، وعمق الفهوم، وانسراح الصدور، وإضاءة النفوس بمصاييح الهداية والحقّ المبين، حتى يغمرهم برد اليقين.

وإن كان القرآن العظيم هو حقّ اليقين كما قال تعالى في وصفه ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]. وإن كان هو الحقّ يقينًا، وهو اليقين حقًا، كما شهد بذلك الحقّ سبحانه فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٥، ٩٦]. وقد قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ فيها: « إِنَّ الله ليس بتارك أحدًا من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين »^(١).

(١) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج ١٧ ص ٢٣٤.

فإن كان كل مؤمن يقف على اليقين من هذا القرآن؛ فالمتدبرون من المؤمنين أصدق في الوقوف على يقين القرآن، وأوعب لمراتب اليقين، وأوعى بحق اليقين، بتدبرهم له ولآياته.

والموقنون هم أهل الثبات على الحق، قلوبهم موقنة بالحق، وجوارحهم عاملة بالحق، وأذانهم واعية للحق، وعقولهم متفتحة على كل يقين، وأفعالهم كلها ناطقة بالقول الثابت من الحق اليقين، فأهل التدبر المحصّلين لمراتب اليقين هم ممن قيل فيهم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].. لأنّ «اليقين: استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً، فقد يكون علم العبد جيداً، لكن نفسه لا تصبر على المصائب بل تطيش. قال الحسن البصري رحمه الله: «إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيت، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيت، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]»^(١).

فالتدبر يوصل إلى اليقين، ثم يزيد المتدبر بركة فيعصمه بالثبات على الحق بيقين، ينظر بعين اليقين، ويعقل بعلم اليقين، ويصاحب حق اليقين

(١) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية، جمعه محمد بن عبد الرحمن بن قاسم،

في كل حين وعمل وموقف وسلوك وخلق، فلا يزيغنه متشابهة، ولا يفتتنه تأويل، ولا يزينن له شيطان، ولا يتبع خطي مضل، ولا يستخفنه طاغوت ناعق، لأنه ثابت باليقين الذي وصله، والمستخف لا يثبت إذ لا يوقن، وصاحب اليقين ثابت لا يزيغ ولا يطيش، ﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

ولهذا عدّ ابن تيمية رحمه الله التدبر من محصلات اليقين ومورثاته فقال: «يحصل اليقين بثلاثة أشياء:

✓ أحدها: تدبر القرآن.

✓ والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق.

✓ والثالث: العمل بموجب العلم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ والضمير عائد على القرآن «^(١)».

[٩] التعلق بكتاب الله:

وصاحب القرآن المرتبط بتلاوته بإحسان قراءة وحسن اتباع، لا يشغله بعد بلوغ هذه الحال؛ عن كتاب الله؛ شيء، مهما ظن أنه شاغل

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية، ج ٣ ص ٣٣٠ - ٣٣١.

كبير، لأن قلبه سلبته روائع الخطاب، ونفسه أسعدها بدائع المعاني، فأبت روحه إلا التنزه في حدائق القرآن البهيجة، وأبى عقله أن ينتشي إلا أن يبقى في رياضه لا يحتمل البعد عنها يرتع فيها، يفتّر من عجبٍ إلى عجبٍ، وكما قال محمد بن واسع رَحِمَهُ اللهُ: « القرآن بستان العارفين، فأينما حلّوا منه حلّوا في نزهة »^(١).

هذا التعلّق الجليل بكتاب الله لا يتحقّق إلا بالتلاوة بلسان الصدر، والاستماع بأذن الفؤاد، والنظر ببصر القلب، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. وهذا هو التدبّر الموفّق.

وكم من الأخيار من عبّاد المؤمنين وعلمائهم من تندّم في آخر عمره أن لم يوقف حياته في تعلّم القرآن وتدبّره وفهمه وتفسيره والعمل به، مع ما بذلوه في حياتهم من جهود جبارة وخدمات جليلة في التعليم والتعلم والتصنيف والتأليف، فاسمع إلى إمام من أئمة الدين الذين بلغ نفعهم الأعصار والأمصّار، وأطبق صيتهم الآفاق رحمهم الله تعالى، الإمام العالم الفقيه المحدث سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ وهو يعلن ندمه يقول: « ليتني كنت اقتصررت على القرآن »^(٢).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ٢ ص ٣٤٦.

(٢) تاريخ ابن معين، ج ٢ ص ١٥٩، العلل ومعرفة الرجال لأحمد برواية ابنه عبدالله،

واسمع إلى العالم العامل الزاهد الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ كَيْفَ
يَتَنَدَّمُ عَلَى عَمْرِهِ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ فَيَقُولُ: «لَوْ رُزِقْتُ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَقِيَامِ
الليل فِي أَوَّلِ أَمْرِي مَا رُزِقْتُ الْآنَ؛ مَا كَتَبْتُ حَدِيثًا قَطُّ، وَلَا اشْتَغَلْتُ بِغَيْرِ
الْقُرْآنِ»^(١).

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ فِي سَجْنِ القلعة
الذي مات فِيهِ يعلن ندمه عَلَى تَضْيِيعِ عَمْرِهِ فِي غَيْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ..

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ عَنْ حَالِهِ فِيهِ: «وَبَقِيَ مَدَّةٌ فِي القلعة يَكْتُبُ
العلم وَيَصَنِّفُهُ، وَيُرْسِلُ إِلَى أَصْحَابِهِ الرِّسَالِ، وَيَذْكُرُ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ فِي
هَذِهِ المَرَّةِ مِنَ الْعُلُومِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأَحْوَالِ الْجَسِيمَةِ. وَقَالَ: «قَدْ فَتَحَ اللهُ
عَلَيَّ فِي هَذَا الْحَصْنِ فِي هَذِهِ المَرَّةِ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَمِنْ أَصُولِ الْعِلْمِ
بِأَشْيَاءَ، كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَمَنَوْنَهَا، وَنَدِمْتُ عَلَى تَضْيِيعِ أَكْثَرِ أَوْقَاتِي فِي
غَيْرِ مَعَانِي الْقُرْآنِ»^(٢).

عَجَبًا لِهَذَا الْإِمَامِ الْفَخْمِ الضَّخْمِ الشَّمِ الشَّهْمِ الْكَبِيرِ، مَعَ كُلِّ مَا وَرَّثَهُ
مِنَ الْعُلُومِ، وَمَعَ كُلِّ مَا عُرِفَ مِنْ حَيَاتِهِ جِهَادًا وَزَهْدًا وَتَأَلُّفًا وَتَصْنِيفًا

ص ١٥٣. برقم ١٠٨٣.

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي، ج ١ ص ٧٦.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، ج ٤ ص ٥١٩، وانظر العقود الدرية من مناقب ابن

تيمية لابن عبد الهادي، ص ٤٤،

ومناظرة وإفتاء وتدریساً وتربيةً وتوجيهاً ونصحاً للسلطين والأئمة
والعامة؛ يرى أنه ضیع أوقاته في غير تدبر القرآن !!! كيف هذا؟؟ فهل
تدبر القرآن وملء الأوقات كلها وبذل العمر والحياة برمتها بساعاتها
ودقائقها وثوانيتها ولحظاتها في تدبر القرآن واستنباط معانيه هو الأولی
بالمسلم العالم؟؟!!..

نعم!!

إنها دعوة صريحة من شيخ الإسلام للعلماء ونصيحة خالصة ناصعة
لطلاب العلم والمشايخ والدعاة وأهل الفكر من المسلمين أن يبذلوا
أوقاتهم لمعاني القرآن واكتشاف عجائبه وغرائبه واستخراج كنوزه واجتلاء
لطائفه واجتناء رياضه، والعيش مع القرآن في صحبة عليمه ورفقة صادقة
تسوق إلى أعلى منازل الجنان.

ولقد — والله — مرّ على هذا الزمان الموبوء بالشواغل الباطل من
أفاضل الأئمة وأخيار العبّاد من صالحی الأمة، بقية سلفٍ تزيّن بأموره
وأحواله العصر، الشيخ الإمام أحمد علي الإمام رَحْمَةُ اللَّهِ^(١)، وجدناه

(١) الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام، مستشار رئيس الجمهورية لشؤون
التأصيل والتخطيط الاستراتيجي، عضو المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث،
مؤسس مجمع الفقه الإسلامي بالسودان ورئيسه الأول، مؤسس جامعة القرآن
الكريم والعلوم الإسلامية ومديرها الأول، له مصنفات مفيدة من أهمها تفسيره :
مفتاح فهم القرآن. وقد سعدنا بصحبته والتلمذ عليه، رحمة الله تعالى عليه.

الصاحب الصادق للقرآن الكريم. فلقد رأيناه وهو في أشدّ أوقات العمل زحمةً وانشغالاً في مكتبه، يفتحُ كتب التفسير ومعاني القرآن يوزعها على منضدة مكتبه، وما بين دخول وزير وخروج سفير يسارع إلى القرآن والتفسير يطالع ويستقي وينتقي البدائع ويلتقط درر المعاني وغررها..

وقد شاهدته الناس بتواترٍ في التلفاز الناقل لاجتماعات مجلس الوزراء وهو بجوار رئيس البلاد إذ كان مستشاره وشيخه، والوزراء في نقاشاتهم، إن لم تكن المسألة تعنيه؛ يرونه يطالع في كتاب تفسير . وكان رَحْمَةُ اللَّهِ يستصحبنا في مهام، فلا يلتفت إلى أحد ولا ينشغل بطريق أو بمارّة أو بمنظر، بل لا يرفع عينه عن المصحف تلاوة وتفكيراً، ومهما كان في حال لا يترك تلاوة القرآن، في عيادة طبيب ينتظر استدعائه، أو في مطار يوشك الإقلاع، أو على متن طائرة يطير في الفضاء، أو في توجهه إلى فندق وقد خرج من المطار، أو في طريقه إلى المطار، أو إلى المكتب، أو إلى القصر، أو إلى البيت من عمله، أو في جلسة مؤتمر لا يروق له التداول أو لا تعنيه القضية، وهكذا؛؛ يزيد في كل يوم ورده من القرآن مع كل هذه المشاغل والمهام حتى بلغ ورده من القرآن لا ينقص عن العشرة الأجزاء كل يوم، فيختم في ثلاثة أو في يومين وأحياناً في نهار يومٍ أو ليله، رحمة الله تعالى عليه، وهو الذي قلتُ فيه ^(١):

(١) في رثائه رحمه الله الذي نُشر في صحيفة الانتباهة عدد يوم ٥/١٢/٢٠١٢ م.

صَحِبْتَ كِتَابَ اللَّهِ رَوْحًا وَغَدَوَةً
 فَحَظُّ سِوَى الْقُرْآنِ مِنْكَ قَلِيلُ
 وَآخَيْتَ آيَ الذِّكْرِ صِدْقًا تَوَاقُفًا
 فَتُصْبِحُ تُمَسِّي وَالْقُرْآنُ خَلِيلُ
 أَنْزَلْتَ دُجَى الْأَسْحَارِ مَا مَرَّ لَيْلُهَا
 فَهَاجَرَكَ التَّخْلِيْطُ وَالتَّبْدِيلُ
 وَصُغْتَ عَلَى أَنْوَارِهِ الْقَلْبَ وَالْحَشَا
 فَكُنْتَ عَظِيمَ الْخُلُقِ مَا بِكَ قِيلُ
 فَصِرْتَ بِهِ لِلْعَالَمِينَ إِمَامَهُمْ
 وَأَنْتَ لِطُلَابِ الْهُدَى الْقَنْدِيلُ
 وَأَنْتَ بِهِ شَيْخُ السَّلَاطِينِ عِنْدَنَا
 وَسُلْطَانُ أَشْيَاخِ النَّهْيِ الْبُهْلُولُ
 فَزَاهِبْ لَيْلٍ بِالْقُرْآنِ تِلَاوَةً
 وَفَارِسُ سَاحِ الْمُنْكَرَاتِ تَزِيلُ
 تَدَبَّرْتَ قَوْلَ اللَّهِ فِي كُلِّ آيَةٍ
 وَقَلْبُكَ قَبْلَ الْعَيْنِ فِيهِ مُجِيلُ
 أَقَمْتَ عَلَى آيَاتِهِ كُلِّ مَوْقِفٍ
 بِكُلِّ مَعَانِي الْآيِ أَنْتَ فَعُولُ
 لِذَاكَ تَجَلَّى فِي جَبِينِكَ نُورُهُ

كَأَنَّ عَلَى جَنِيكَ جَا التَّنْزِيلِ

مَفَاتِيحُ فَهْمٍ لِلْقُرْآنِ أَدْلُهُ عَلَى

نِكَ وَأَجَلِي مِنْهُ ذَا التَّفْصِيلِ

جَمَعْنَ مَعَانَ كُلِّهَا مِنْ تَدْبِيرِ

حَدَائِقُ ذِكْرِ زَهْرُهَا التَّأْوِيلِ

وَعَى الْعَصْرَ فِي اسْتِنْبَاطِهِ وَصَرِيْفِهِ

تَعَاظَدَ فِيهِ النَّصُّ وَالْمَعْقُولُ

لِذَا كُنْتُ فِي التَّفْسِيرِ بَحْرًا وَلُجَّةً

تَرَانَا لِفَهْمِ الْآيِ مِنْكَ نَزِيلِ

يَسِيلُ لِعَابِ السَّامِعِينَ تَعْجَبًا

فَهَلْ لَكَ فِي هَذَا الْمَجَالِ مَثِيلُ؟

[١٠] الأَمَنُ مِنْ فِرْعَانَ الْآخِرَةِ:

وَمِنْ أَجْنَى ثَمَرَاتِ التَّدْبِيرِ، أَنَّ الْمَتَدَبِّرَ لِكِتَابِ اللَّهِ بِفَضْلِ هَذَا الْعَمَلِ

الْجَلِيلِ الْمَحْبُوبِ لِلَّهِ؛ يَكْرِمُهُ رَبُّهُ بِالْأَمَنِ مِنْ فِرْعَانَ الْآخِرَةِ.

إِنَّمَا فِرْعَانُ وَفِرْعَانُ وَفِرْعَانُ يَا إِخْوَانِي!! ، وَقَدْ حَكَى حُمَيْدُ

الرُّوَاسِيُّ، قَالَ: « كُنْتُ عِنْدَ عَلِيٍّ، وَالْحَسَنِ ابْنِي صَالِحٍ أَوْ رَجُلٍ يَقْرَأُ عَلَى

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فَالْتَفَتَ عَلَيَّ إِلَى الْحَسَنِ

وَقَدْ أَصْفَارَ وَأَخْضَارَ، فَقَالَ: يَا حَسَنُ! إِنَّهُ لَوْ كَانَ فَرْعٌ لَكْفَى؛ وَلَكِنَّهَا أَفْزَاعٌ

فَوْقَ أَفْزَاعٍ! قَالَ: وَرَأَيْتُ الْحَسَنَ أَرَادَ أَنْ يَصِيحَ ثُمَّ جَمَعَ ثَوْبَهُ فَعَضَّ عَلَيْهِ حَتَّى سَكَنَ، فَسَكَنَ عَنْهُ، وَقَدْ ذَبَلُ فَمُهُ وَاخْضَارَّ، وَاصْفَارَّ. وَفِي رَوَايَةٍ: فَانْتَفَضَ حَسَنٌ وَبَالَ مَكَانَهُ، فَقَامَ وَلَمْ يَعُدْ بَعْدُ إِلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ^(١)..

كل هذه الفزعات بدرجاتها من الأصغر إلى الأكبر؛ يأمنها صاحب القرآن المتدبر لآياته المتخلق بأخلاقه.

ففي شعب الإيمان عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثَلَاثٌ لَا يَكْتَرِثُونَ لِلْحِسَابِ، وَلَا تَفْزَعُهُمُ الصَّيْحَةُ، وَلَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ: حَامِلُ الْقُرْآنِ يُؤَدِيهِ إِلَى اللَّهِ بِمَا فِيهِ يَقْدُمُ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَيِّدًا شَرِيفًا حَتَّى يُوَافِقَ الْمُرْسَلِينَ، وَمَنْ أَذِنَ سَبْعَ سِنِينَ لَا يَأْخُذُ عَلَى أَذَانِهِ طَمَعًا، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ^(٢)).

فحامل القرآن المؤدِّي حَقَّ القرآن تلاوة وقراءة واتباعًا حتى يقدم إلى ربه تبارك وتعالى؛ هو أول من استحقَّ الأمان من الفزع الأكبر.

وأهل القرآن المشتغلون بتدبره وتفهمه والعمل به؛ هم المنعمون بالأمان الكامل من فزعَات يوم القيامة، إذ يسارع إليهم القرآن الذي صاحبه بصدق وهمّة يبرِّهم فيمنع عنهم الخوف والحزن والخلائق

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم، ج ٧ ص ٣٣٠، والإشراف في منازل الأشراف لابن أبي

الدنيا ص ٣٣١ برقم ٤٩٦.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، ج ٤ ص ٢٣٣ حديث رقم ٢٤٤٦.

فرعون والناس مضطربون خائفون، فيأمن صاحب القرآن ببرّ القرآن. ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، يقول لصاحبه: هل تعرفني؟ أنا الذي كنت أسهر ليلك، وأظمئ هواجرِك، وإنَّ كل تاجر من وراء تجارته، وأنا لك اليوم من وراء كل تاجر، فيعطى الملك يمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتان، لا يقوم لهما الدنيا وما فيها، فيقولان: يا رب، أنى لنا هذا؟ فيقال لهما: بتعليم ولدكما القرآن، وإن صاحب القرآن يقال له يوم القيامة: اقرأ، وارق في الدرجات، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية معك»^(١).

والناس وإذْهُمْ في خوفٍ ورعبٍ وفزعٍ؛ صاحب القرآن العالم به العامل به في أمانٍ جوار القرآن، بل هو في فخارٍ، يتبختر في العرصات بتاج الوقار ..

ولا يزال القرآن بصاحبه الصديق الصّدوق العالم العامل به المحبّ له؛ لا يزال به حتى يلبسه تاج الكرامة وتاج الملك، كما يروي أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (يَجِيءُ صَاحِبُ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ الْقُرْآنُ: «يَا رَبِّ حَلِّهِ»، فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «يَا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم ٥٧٦٣، ج ٦ ص ٥١، وحسنه الحافظ في

المطالب العالية برقم ٣٤٧٨ ج ١٤ ص ٣٢٤.

رَبِّ زِدْهُ يَا رَبَّ اَرْضَ عَنْهُ» فَيَرْصِي عَنْهُ، وَيُقَالُ لَهُ: اقْرِهِ وَارْقَهُ، وَيَزِدَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً^(١).

وكما في حديث سعيد بن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ شَارَةٍ، وَأَحْسَنِ هَيْئَةٍ، فَيَقُولُ: « يَا رَبِّ، قَدْ أَعْطَيْتَ كُلَّ عَامِلٍ أَجْرَ عَمَلِهِ، فَأَيْنَ أَجْرُ عَمَلِي؟ » قَالَ: فَيُكْسَى صَاحِبُ الْقُرْآنِ حُلَّةً وَيَتَوَجَّحُ تَاجَ الْمُلْكِ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ كُنْتُ أَرْغَبُ لَهُ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا، قَالَ: فَيُعْطَى الْخُلْدَ يَمِينِهِ، وَالنَّعِيمَ بِشِمَالِهِ، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: أَرْضِيتَ، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيَّ رَبِّ) ^(٢).

-
- (١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٢٠٢٩، ج ١ ص ٧٣٨، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٨٤١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
- (٢) أخرجه الحارث في مسنده برقم ٧٣١، وصححه الحافظ في المطالب العالية (١٤/ ٤٠١ برقم ٣٤٩٩).

♦ ومن نصرة القرآن لأصحابه المرتلين له بتدبر العالمين به العاملين به بعد موتهم، فيأمنون بسبب ذلك من فزعات الآخرة، ما رواه البزار في مسنده من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وهو خبر جميل مليء بالبشارات العظيمة لأهل القرآن، ولولا أنَّ فيه أمارات ضعف ظاهرة خاصة أنَّ خالد بن معدان لم يسمع من معاذ، فكان انقطاع بينه وبين معاذ رضي الله عنهم، وإلا لاستحق أن أدعم به هذه الثمرة من ثمرات التدبر، ومع ذلك أبت نفسي إلا أن أجعله في الحاشية لمن أراد الاطلاع عليه وقرآته والانتفاع بما فيه.

ففي مسند البزار رحمه الله (البحر الزخار) (٧/ ٩٩ حديث رقم ٢٦٥٥) : حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا بِسْطَامُ بْنُ خَالِدٍ الْحَرَّانِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا نَصْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو الْفَتْحِ، عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ صَلَّى مِنْكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَلْيَجْهَرْ بِقِرَاءَتِهِ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي بِصَلَاتِهِ، وَتَسْمَعُ لِقِرَاءَتِهِ، وَإِنَّ مُؤْمِنِي الْجَنِّ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي الْهَوَاءِ، وَجِيرَانَهُ مَعَهُ فِي مَسْكَنِهِ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، وَيَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ، وَإِنَّهُ لَيَطْرُدُ بِجَهْرِ قِرَاءَتِهِ عَنْ دَارِهِ، وَعَنِ الدُّورِ الَّتِي حَوْلَهُ فَسَاقَ الْجِنُّ، وَمَرَدَّةَ الشَّيَاطِينِ، وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ خِيَمَةٌ مِنْ نُورٍ يَقْتَدِي بِهَا أَهْلُ السَّمَاءِ كَمَا يَقْتَدُونَ بِالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ فِي لُجَجِ الْبَحَارِ، وَفِي الْأَرْضِ الْقَفْرِ فَإِذَا مَاتَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ رُفِعَتْ تِلْكَ الْخِيَمَةُ فَيَنْظُرُ الْمَلَائِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ فَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ النُّورَ فَتَنْعَاهُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ فَتُصَلِّي الْمَلَائِكَةُ عَلَى رُوحِهِ فِي الْأَرْوَاحِ، ثُمَّ تَسْتَقْبِلُ الْمَلَائِكَةُ الْحَافِظِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ تَعَلَّمَ كِتَابَ اللَّهِ، ثُمَّ صَلَّى سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَوْصَتْ بِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الْمَاضِيَةُ اللَّيْلَةَ الْمُسْتَقْبَلَةَ أَنْ تُنْبَهَ لِسَاعَتِهِ، وَأَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ خَفِيفَةً، وَإِذَا مَاتَ وَكَانَ أَهْلُهُ فِي جِهَازِهِ يَجِيءُ الْقُرْآنُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ جَمِيلَةٍ وَاقِفًا عِنْدَ رَأْسِهِ حَتَّى يُدْرَجَ فِي أَكْفَانِهِ فَيَكُونُ الْقُرْآنُ عَلَى صَدْرِهِ دُونَ الْكَفَنِ، فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَسُويَّ عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ أَنَاهُ مُنْكَرٌ، وَنَكِيرٌ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ يَجِيءُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا فَيَقُولَانِ لَهُ: إِلَيْكَ حَتَّى نَسْأَلَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَرَبِّ الْكُعْبَةِ إِنَّهُ لَصَاحِبِي، وَخَلِيلِي وَلَسْتُ أَخْذُلُهُ عَلَى حَالٍ فَإِنْ كُنْتُمَا أَمْرْتُمَا بِشَيْءٍ فَاْمْضِيَا لِمَا أَمْرْتُمَا، وَدَعَانِي مَكَانِي فَإِنِّي لَسْتُ أَفَارِقُهُ حَتَّى أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ الْقُرْآنُ إِلَى صَاحِبِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: اسْكُنْ فَإِنَّكَ سَتَجِدُنِي مِنَ الْجِيرَانِ جَارَ صَدِّقٍ وَمِنَ الْأَحْلَاءِ خَلِيلَ صَدِّقٍ، وَمِنَ الْأَصْحَابِ صَاحِبَ صَدِّقٍ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟، فَيَقُولُ: أَنَا الْقُرْآنُ الَّذِي كُنْتَ

♦ والقرآن يبشّرهم بهذا الكرم الربّاني الفيّاض، فيقول الله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وأولى المؤمنين بهذا الفضل الكبير أهل القرآن

تَجَهَّرْ بِي، وَتُخَفِّنِي، وَكُنْتُ تُحِبُّنِي فَأَنَا حَبِيبُكَ فَمَنْ أَحَبَّهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَعْدُ مَسْأَلَةٌ مُنْكَرٍ، وَنَكِيرٍ مِنْ عَمٍّ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، فَيَسْأَلُهُ مُنْكَرٌ، وَنَكِيرٌ، وَيَضْعَدَانِ، وَيَبْقَى هُوَ وَالْقُرْآنُ، فَيَقُولُ: لَا فِرَاشَ لَكَ فِرَاشًا لَيْنًا، وَلَا دُتْرَ نَكَ دِنَارًا حَسَنًا جَمِيلًا جَزَاءً لَكَ بِمَا أَشْهَرْتَ لَيْلَكَ، وَأَنْصَبْتَ نَهَارَكَ، قَالَ، فَيَضَعُ الْقُرْآنُ إِلَى السَّمَاءِ أَسْرَعَ مِنَ الطَّرْفِ فَيَسْأَلُ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ فَيُعْطِيهِ اللَّهُ ذَلِكَ، فَيَنْزِلُ بِهِ أَلْفُ أَلْفٍ مِنْ مُقَرَّبِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَيَجِئُهُ الْقُرْآنُ، وَيَقُولُ: هَلِ اسْتَوْحَشْتَ؟ مَا زِلْتُ مُذْ فَارَقْتُكَ أَنْ كَلَّمْتُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَتَّى أَخْرَجْتُ لَكَ مِنْهُ فِرَاشًا، وَدِنَارًا، وَمِصْبَاحًا وَقَدْ جِئْتُكَ بِهِ فَقُمْ حَتَّى تُفْرِشَكَ الْمَلَائِكَةُ، قَالَ: فَتَنْهَضُ الْمَلَائِكَةُ إِنْهَاضًا لَطِيفًا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِ مِائَةٍ عَامٍ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ فِرَاشٌ بِطَانَتُهُ مِنْ حَرِيرٍ أَخْضَرَ حَشْوُهُ الْمِسْكُ الْأَذْخَرُ، وَيُوضَعُ لَهُ مُرَافِقٌ عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَرَأْسُهُ مِنَ السُّنْدُسِ، وَالْإِسْتَبْرَقِ، وَيُسْرَجُ لَهُ سِرَاجَانِ مِنْ نُورِ الْجَنَّةِ عِنْدَ رَأْسِهِ وَرِجْلَيْهِ يُزْهِرَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تُضْجَعُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ مُسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِيَاسَمِينَ مِنْ يَاسَمِينَ الْجَنَّةِ، وَيَضَعُ عَنْهُ، وَيَبْقَى هُوَ وَالْقُرْآنُ فَيَأْخُذُ الْقُرْآنُ الْيَاسَمِينَ فَيَضَعُهُ عَلَى أَنْفِهِ غَضًّا فَيَسْتَنْشِقُهُ حَتَّى يُبْعَثَ، وَيَرْجِعُ الْقُرْآنُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُخْبِرُهُ بِخَبَرِهِمْ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَيَتَعَاهَدُهُ كَمَا يَتَعَاهَدُ الْوَالِدُ الشَّفِيقُ وَلَدَهُ بِالْخَيْرِ فَإِنْ تَعَلَّمَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ الْقُرْآنَ بَشَرَهُ بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ عَقْبُهُ عَقِبَ الشُّوْءِ دَعَا لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْإِقْبَالِ أَوْ كَمَا ذَكَرَ). قال البراز رحمه الله: "وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُهُ يُرَوَّى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَا اللَّفْظِ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَمْ يَسْمَعْ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ مِنْ مُعَاذٍ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِأَنَّا لَمْ نَحْفَظْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ" اهـ.

المتدبرون لآياته الذين قرع أسماع فهمهم حلاوة الدعوة القرآنية.

لا شك أنّ صاحب القرآن العالم به العامل به آمنٌ من قول المَلَك:
﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وآمنٌ من قول الزبانية:
﴿وَأَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] وآمنٌ من قول خازن النار:
﴿اٰخَسَّوْا فِيْهَا وَلَا تَكَلَّمُوْنَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فهو داخل في هؤلاء
الذين لا يحزنهم الفرع الأكبر، وذلك هو الفوز العظيم.

♦ وسمع محمد بن حاطب عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقرأ هذه
الآية على المنبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾
[الأنبياء: ١٠١]؛ فقال: سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إِنَّ
عثمان منهم)، وفي رواية قال علي: «عثمان وأصحابه»^(١) رضي الله تعالى
عنهم.

فما سرّ دخول عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الذين أبعدوا عن جهنم وزفيرها وفي
الذين آمنوا الفرع الأكبر؟!؛ ما الذي عُرف به عثمان وتميّز به رضي الله
تعالى عنه حتى يدخل في الذين لا يحزنهم الفرع الأكبر؟!

أهم ما عُرف به عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه صاحب قرآن، مرتبطٌ به، متعلّقٌ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٢٠٥٢، وابن أبي عاصم في السنة برقم

١٢١٦، والمحاملي في أماليه، برقم ١٩٥، وانظر: تفسير القرطبي، ج ١١ ص ٣٤٥،

والمحرر الوجيز لابن عطية، ج ٤ ص ١٠٢، وتفسير ابن كثير، ج ٥ ص ٣٣٢.

قلبه بتلاوته، مصاحبٌ له بصدقٍ وهمّة، يختمه كل ليلة في وتره، حتى إنه قُتل وهو مكبٌّ على مصحفه يتلو ويرتل رضوان الله عليه، وبكونه صاحب قرآن تميّز على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدَّمَهُ الصَّحَابَةُ والمسلمون في الخلافة، وهو الذي كان يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم ما شيعت من كلام الله»^(١). فأمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الفرع الأكبر، وأبعد عن جهنم وزفيرها، تتلقاه الملائكة بالبشرى.

وأصحابه المذكورون: هم الذين كانوا مثله مع القرآن في أوانه وبعد زمانه، آمنوا فزعات الآخرة بصحبة القرآن تلاوة وتدبراً.

♦ ومن بشارات القرآن لأهل القرآن بأنهم من فزعات الآخرة قول الله تعالى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه ضمن الهدى والفلاح لمن اتبع القرآن، والضلال والشقاء لمن أعرض عنه، فكيف بمن عارضه

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد، ج ١ ص ٤٧٩.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم، ج ١ ص ٣٥، والصواعق المرسلة في الرد على

الجهمية والمعطلة، لابن القيم، ج ٣ ص ٨٤٥.

بمعقول؛ أو رأي؛ أو حقيقة باطلة؛ أو سياسة ظالمة؛ أو قياس إبليسي، أو خيال فلسفي؛ ونحو ذلك، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [طه ١٢٦|١٢٣] فضمن سبحانه لمن اتبع هداه وهو كلامه الهدى في الدنيا والآخرة والسعادة في الدنيا والآخرة^(١).

♦ وبشارة أخرى من بشارات القرآن لأهل القرآن المتدبرين له العاملين به بالأمن من فزعات الآخرة، فنقرأ قوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وهذا الذي جاء بالحسنة موعود ببشارتين: إكرامه بخير من الحسنة التي جاء بها، وأمنه من فزع يوم القيامة..

ولكن ما هذه الحسنة المخصوصة التي بها ينال صاحبها هذا الخير والأمن من فزع الآخرة؟! إنها حسنة معرفة، فأين تعريفها؟!!

والجواب:

تعريفها فيما تليت بعدها في سياق آيات النمل نفسها، في قوله تعالى

(١) الصواعق المرسلّة، لابن القيم، ج ٣ ص ١١٢٨.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ..﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

لأنه لا حسنة أعظم مما أمر به سيد المرسلين وإمام المتقين صلوات ربي وسلامه عليه، وها هو قد أمر بأن يكون من المسلمين وأن يتلو القرآن.

إذن هي الحسنة التي تكون بشرط وعمل، والشرط الإسلام والعمل تلاوة القرآن، لا كل حسنة، فليس التعريف للعموم، ولا هو للجنس، بل للعهد والخصوص: أن تتلو القرآن وأنت مسلم من المسلمين.

♦ ومن بشارات القرآن لأهل القرآن المرتلين التاليين له بتدبر وتفهم وعمل بتأمينهم من فزعات الآخرة؛ آيات فاطر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ. لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: « هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل، وكذا في الإنفاق. وقد مضى في مقدمة الكتاب ما ينبغي أن يتخلق به قارئ القرآن »^(١). وقد أشار الإمام الرّازي رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً في مفاتيح الغيب أنها جاءت في العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه^(٢).

وقد بشر ربنا ﷻ أهل القرآن التاليين كتاب الله العاملين به العاملين بما

(١) تفسير القرطبي، ج ١٤ ص ٣٤٥.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ج ٢٦ ص ٢٣٦.

فيه بخمسة وعود رحمانية من الذي لا يخلف موعوده: التجارة التي لا تكسد ولا تفسد، ووفاء أجرهم بما يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، زيادة الفضل على ما عملوا بكرمه ومنه، المغفرة التامة لما نقصوا أو قصرُوا عفواً وتجاوزاً، والشكر لما فعلوا..

وهؤلاء الموعودون يمضون إلى ربهم حين يبعثون وهم على ثقة واطمئنان من وعد الله الكريم المنان، فيكونون في أمان من الفرع حين يفرع غيرهم، لا يتلبسهم الهلع والناس حولهم في هلع وجزع.

♦ ومن بشارات القرآن لأهل القرآن المتدبرين بالأمن من فزعات الآخرة قول الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

ومن ضمن الأقوال العديدة في المراد بالظالم والمقتصد والسابق في الآية مما نقلها القرطبي رحمه الله في تفسيره؛ ما قيل: « الظالم: التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد: التالي للقرآن ويعمل به، والسابق: القارئ للقرآن العامل به والعالم به »^(١).

وهذا القول هو الأوّل الموافق للسياق، إذ سياق الآيات السابقة

(١) تفسير القرطبي، ج ١٤ ص ٣٤٨.

واللاحقة؛ مخصوص بالكتاب ومرتليه وتلاته وقرائه، وبجزائهم عند الله يوم اللقاء الأكبر، ثم أول الآية أنهم مصطفون ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾، وآخر الآية أن لهم الفضل الكبير ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، فالأولى أن يشملهم الاصطفاء بدرجات الاصطفاء، والفضل بلطف اللطيف الخبير وكرم الكريم ورحمة الرحيم جَلَّ جَلَالُهُ. فكان الأليق أن يكونوا مؤمنين صالحين مقبلين بقسط على كلامه، لأنهم من المصطفين خاصة، لا من العباد عامة، والمصطفون ناجون جميعاً، وجميعهم في جنات عدن على ما قال عمر وعثمان وأبو الدرداء وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، فيكون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ عائداً على الجميع، حتى قال كعب الأحمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «استوت مناكبهم - ورب الكعبة - وتفاضلوا بأعمالهم». وقال أبو إسحاق السبيعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الذي سمعت منذ ستين سنة؛ فكلهم ناج»^(١).

ومن جميل ما قيل في هذه الأصناف الثلاثة، ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «أما السابق؛ فمن مضى في حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشهد له بالجنة والرِّزق، وأما المقتصد؛ فمن اتبع آثارهم فعمل بأعمالهم حتى يلحق بهم، وأما الظالم لنفسه؛ فمثلي ومثلك ومن

(١) كلها في تفسير القرطبي نفسه، ج ١٤ ص ٣٤٦.

اتَّبَعْنَا، وَكُلُّ فِي الْجَنَّةِ»^(١). تواضعاً منها - رضوان الله عليها..

وقد روى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: (كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ)^(٢).

وعن الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «أَدْرَكْتُ خَمْسِمِائَةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَقُولُ: عَلِيٌّ، وَعُثْمَانُ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ»^(٣).

وقرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سَابِقْنَا سَابِقٌ وَمَقْتَصِدُنَا نَاجٍ وَظَالِمُنَا مَغْفُورٌ لَهُ)^(٤).

وهكذا من أورشوا كتاب الله يتلونه حقَّ تلاوته يتدبرون آياته ويعملون بها؛ وإن وقعوا في شيءٍ من التقصير فهم ناجون سالمون معافون يوم القيامة، بل لهم الفضل الكبير من الربِّ الكريم المَنَّان الذي يعطي الجزيل ويعفو عن العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک علی الصَّحیحین، کتاب التَّفسیر، باب تفسیر سورة الملائكة، برقم ٣٥٩٣، ج ٢، ص ٤٦٢، والطَّبْرَانِي فِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ برقم ٦٠٩٤، ج ٦، ص ١٦٧.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي، برقم ٢٣٥٠، ج ٣، ص ٦٨١، وأمالی المحاملي، برقم ٣٤٩، ص ٣٢٦.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، اللالكائي، برقم ٢٧١٣، ج ٨، ص ١٤٩٣.

(٤) تفسير القرطبي، ج ١٤، ص ٣٤٦.

♦ ومن أصناف أهل القرآن المكرمين من الربّ الكريم جَلَّ جَلَالُهُ أولئك الذين يعيشون مع القرآن يتأثرون بمواعظه وتحيا قلوبهم وتطمئن بها، وتتجاوب أسماع فهمهم، وترجم مُقْلَهُمْ فتسيل جفونهم وتفيض عيونهم من خشية الله، فيجزّيهم ربّهم عن ذلك بالأمن من فرعات الآخرة أصغرها وأكبرها، وقد روي أنّ نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إلهي أما جزاء من فاضت عيناه من خشيتك؟» قال: جزاؤه أن أوّمنه يوم الفرع الأكبر^(١).

♦ ومن البشارات لأهل القرآن المتدبّرين له بسلامتهم في الآخرة وأمنهم من فرعاتها ما روي عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنّه قال: «اقرأوا القرآن! ولا يغرنكم هذه المصاحف المعلقة؛ فإنّ الله لم يعذب قلباً وعى القرآن»^(٢).

قال أبو يعلى الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْنَى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن الله لا يعذب قلباً وعى القرآن) إِذَا حفظ حدوده وعمل بموجبه»^(٣).

♦ ونختم الكلام عن هذه الثمرة الْجَنِّيَّة الغنيّة بالخبر العجيب للإمام المقرئ حمزة بن حبيب الزيات رحمه الله تعالى ورضي الله. فقد روى غير

(١) المصنف لابن أبي شيبة، برقم ٣٤٢٨١، ج ٧ ص ٧٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج ٦ ص ١٣٣، رقم ٣٠٠٧٩، والدارمي في سننه برقم ٣٣٦٢، والبخاري في خلق أفعال العباد ص ٨٧، وتَمَّام في فوائده مرفوعاً إلى النبي برقم ١٦٩٠.

(٣) إبطال التأويلات، لأبي يعلى الفراء، ص ٣٩١.

واحد عن ابن غلبون المُقَرِّئ قال: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ السَّامِرِيُّ، قال: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ جَبَلَةَ، قال: حَدَّثَنَا إِدْرِيسُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْحَدَّادُ، قال: حَدَّثَنَا خَلْفُ بْنُ هِشَامٍ الْبَزَّازُ، قال: قال لي سليم بن عيسى: دخلت على حمزة بن حبيب الزيات فوجدته يمرغ خديه في الأرض ويبكي، فقلت: أعيدك بالله. فَقَالَ: يا هذا استعذت في ماذا؟ فَقَالَ: رأيت البارحة في منامي كأن القيامة قد قامت، وقد دعي بقراء القرآن، فكنت فيمن حضر، فسمعت قائلاً يقول بكلام عذب: (لا يدخل عليَّ إلا من عمل بالقرآن)^(١). فرجعت القهقري، فهتف باسمي: أين حمزة بن حبيب الزيات؟ فقلت: لبيك داعي الله لبيك. فبدرني ملك فَقَالَ: قل لبيك اللهم لبيك. فقلت كما قال لي، فأدخلني داراً، فسمعت فيها ضجيج القرآن، فوقفت أرعد، فسمعت قائلاً يقول: لا بأس عليك، ارق واقراً. فأدرت وجهي فإذا أنا بمنبر من دُرٍّ أبيض دَفَّاه من ياقوت أصفر مراقته زبرجرد أخضر، فقيل لي: ارق واقراً. فرقيت، فقيل لي: اقرأ سورة الأنعام. فقرأت وأنا لا أدري على من أقرأ حتى بلغت الستين آية فلما بلغت ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ٦١]؛ قال لي: يا حمزة ألسْتُ القاهر فوق عبادي؟ قال: فقلت: بلى. قال: صدقت، اقرأ. فقرأت حتى تمتها، ثم قال لي: اقرأ. فقرأت "الأعراف" حتى بلغت آخرها، فأومأت بالسجود، فَقَالَ لي:

(١) وهذا مربوط الفرس وبيت قصيد الدرس، فلنكن منهم بتوفيق الله متدبرين عاملين،

اللهم اجعلنا منهم يا ذا الجلال والإكرام.

حسبك ما مضى لا تسجد يا حمزة، من أقرأك هذه القراءة؟ فقلت: سُلَيْمَان، قال: صدقت، من أقرأ سُلَيْمَان؟ قلت: يحيى. قال: صدق يحيى، على من قرأ يحيى؟ فقلت: على أبي عبد الرحمن السلمي. فَقَالَ: صدق أَبُو عبد الرحمن السلمي، من أقرأ أبا عبد الرحمن السلمي؟ فقلت: ابن عم نبيك عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب. قال: صدق علي، من أقرأ علياً؟ قلت: نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: ومن أقرأ نبيي؟ قال: قلت: جبريل. قال: من أقرأ جبريل قال: فسكت، فَقَالَ لي: يا حمزة، قل أنت. قال: فقلت: ما أجسر أن أقول أنت. قال: قل أنت. فقلت: أنت. قال: صدقت يا حمزة، وحقَّ القرآن لأكرم من أهل القرآن سيما إذا عملوا بالقرآن، يا حمزة القرآن كلامي، وما أحببت أحدا كحبي لأهل القرآن، ادن يا حمزة. فدنوت فغمر يده في الغالية ثم ضمخني بها، وَقَالَ: ليس أفعل بك وحدك، قد فعلت ذلك بنظرائك من وفوقك، ومن دونك ومن أقرأ القرآن كما أقرأته لم يرد به غيري، وما خبأت لك يا حمزة عندي أكثر، فَأَعْلِم أصحابك بمكاني من حبي لأهل القرآن، وفعلي بهم، فهم المصطفون الأخيار، يا حمزة وعزتي وجلالي لا أعذب لساناً تلا القرآن بالنار، ولا قلباً وعاه، ولا أذنًا سمعته، ولا عينًا نظرتة. فقلت: سبحانك سبحانك أي رب! فَقَالَ: يا حمزة أين نظار المصاحف؟ فقلت: يا رب حُفَاطَهُمْ. قال: لا، ولكني أحفظه لهم حتى يوم القيامة، فإذا أتوني رفعت لهم بكل آية درجة". أفتلومني أن أبكي،

وأتمرغ في التراب» (١).

ولهذا الفضل الكبير والفوز العظيم يطرب أهل القرآن الصادقون
بسماع القرآن، إذ يتطلعون لمقامهم هذا العظيم عند ربهم الكريم فتطرب
قلوبهم عجلة إلى لقائه في الآخرة. قال مالك بن دينار رحمه الله: «إِنَّ
الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة» (٢).

وربّ العزة الكريم المَنَّان ليس هذا في الآخرة فحسب بل هو سرّ
السعادة في الدنيا قبل الآخرة..

والله ما عُرِفَتْ سعادةٌ لتلك التي تغمر نفس المؤمن وقلبه وروحه
وتتدفّق في عروقه وهو يرتل القرآن متنبّهاً متدبّراً..

وربّ البيت! ما خرب بيتٌ عامراً بالقرآن..

وربّ القلب! ما تعس قلبٌ مترنّم بالقرآن..

وربّ العين! ما رأت عينٌ أجمل من القرآن..

وربّ الناس! ما سعد الناس سعادةً كسعادة ترتيل القرآن..

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج ٧ ص ٣١٨ - ٣٢٠، طبقات القراء السبعة،

لابن السلاّ، ص ١٦٨، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي، ج ٢

ص ١٤١، برنامج التجيبي، للقاسم بن يوسف التجيبي، ص ٣٢، صفة الصفوة

لابن الجوزي، برقم ٤٤٧، ج ٢ ص ٩٠ - ٩٣.

(٢) مختصر قيام الليل وقيام رمضان، ص ١٧٦.

فلنأخذ هذا الكتاب العظيم بقوة..

◆◆ هذه عشرُ جُمانٍ سِمانٍ من فوائد تدبّر القرآن، وعشرُ حسانٍ من ثماره اليانعة الجَنِيَّةِ ممّا يقطفها المتدبّرون من حقائق القرآن البهيّجة البهيّة..

◆◆ وفوائد التدبّر وثمراته أَكْثَرُ الباحثون والعلماء والأئمة من التنبيه عليها والإشارة إليها.. ومنها؛ فوق ما أوردناه:

- تربية العقول..
- الشفاء لما في الصدور..
- الأجر الكثير والربح الوفير..
- الهداية والتوفيق والنور، والراحة والطمأنينة.
- ذكر الله للمتدبر، وغشيان الملائكة، ونزول السكينة والرحمة.
- الحصن الحصين من الشيطان.
- معرفة الربّ عزّ وجلّ بأسمائه وصفاته، ومعرفة عظيم سلطانه وقدرته والتلذذ بالنظر إليه يوم القيامة.
- تحقيق العبودية لله تعالى.
- تحقيق الخشية من الله تعالى..

- فهم مراد الله تعالى من الآيات..
- تيسير العمل بالقرآن..
- إدراك لذة التلاوة والفهم والاعتبار..
- سبيل إدراك مقاصد الآيات وفهم معانيها..
- استنارة القلب واتساع المدارك..
- وسيلة زيادة إيمان العبد..
- إدراك ما يحبه الله تعالى من الأعمال والأخلاق فيأتيها، وما يكرهه منها فيقضيها..
- التعرف على دعوة الرسل الكرام وأحوال الأنبياء العظام والبراهين الدالة على صدقهم..
- علاج قسوة القلب وتمكينه من قبول الذكر والمواعظ والإجابة والرجاء..
- التمكن من إدراك مفاتيح تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة..
- والسرور لثمرات التدبر وفوائده يطول ويطول، وما قيل يكفي لمن ابتغى الاعتناء والاهتمام بالتدبر بصدق وهمّة لجني هذه الثمرات وتحصيل هذه الفوائد. نفعا الله بها.
- اللهم يا ربنا اجعلنا من أهل القرآن العالمين به، العاملين به،

المستبصرين بفهمه، المتدبرين لآياته، المنتفعين بعظاته.

اللهم اجعلنا ممن اصطفيتهم من خيار الأنام، وأورثتهم الكتاب،
وآتيتهم فهم القرآن، ورزقتهم مفاتيح علمه..



الفصل الرابع معيّنات التدبر وأدواته

المبحث الأول

مُعِينَاتُ التَّدَبُّرِ

إِنَّ المَتَدَبِّرَ لَكِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعِينَاتٍ لَهُ عَلَى طَرِيقِ التَّدَبُّرِ، لَوْلَاهَا لَا يَتَوَفَّقُ إِلَى تَدَبُّرٍ نَصِيحٍ، وَلَا يَتَحَقَّقُ بِفَهْمٍ صَحِيحٍ، وَلَا يَصِلُ إِلَى مُرَادٍ مُقْصُودٍ وَلَا إِلَى هَدًى مُرْصُودٍ، وَيَكُونُ حَالُهُ مِنْ قَبِيلِ التَّمَنِّيِ أَكْثَرَ مِنْهُ لِلتَّدَبُّرِ.

هَذِهِ الْمُعِينَاتُ هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا الْوَسَائِلُ الْمَوْصِلَةُ إِلَى الْمَقْصُودِ، فَكُلُّهَا طَرِيقٌ مُوَصِّلٌ إِلَى التَّدَبُّرِ مُعَيَّنٌ عَلَيْهِ، يَضَعُ سَالِكُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّدَبُّرِ الرَّاشِدِ بِلَا التَّوَاءِ أَوْ تِيهِ أَوْ ضَلَالٍ. وَكُلُّ طَرِيقٍ أَوْ مُعَيَّنٍ مِنْهَا مُعْتَبَرٌ بِنَصٍّ، أَوْ عِبَارَةٍ، أَوْ إِشَارَةٍ، أَوْ دَلَالَةٍ، فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَبِّ بَعْضُهَا نَبَّهَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ اسْتِنْبَاطًا مِنَ الْوَحْيَيْنِ.

وَفِي هَذِهِ الْأَسْطُرِ الْمُبَارَكَةِ نَرُشِدُ إِلَى أَهْمِهَا وَأَظْهَرِهَا مِنْ مُعِينَاتِ التَّدَبُّرِ:

أولها: الاستماع والإنصات..

وثانيها: التغني وإحسان القراءة والتلاوة..

وثالثها: الترتيل..

ورابعها: الترداد والتكرار..

فلنقف مع كل واحدٍ من هذه المعينات لنرى أثرها على المتدبرين
وكيف تعينهم على التدبر النافع بفضل الله ومنه وكرمه.



المُعِينُ الأوَّلُ

إحسان الاستماع

الاستماع فنٌ لا يجيده كل أحد، بل أهله قليلون، والبارعون فيه منتفعون نافعون، واستماع المتدبّر يكون بإلقاء السمع بجميعه إنصاتاً وإصغاءً لما يُتلى من القرآن، فيخترق الحواجز والموانع

حاجزاً حاجزاً ومانعاً مانعاً، فينسب إلى سويداء القلب فيمتلئ وعياً، ويخفق إنابة، وينبض صلاحاً، ويزداد إيماناً، ويزدان طمأنينة، فتستجيب الجوارح والأعضاء التزاماً وطاعة وإحساناً وذكرًا وبرًا وثقًى، فيبلغ مستمع القرآن بهذه الكيفية الحيّة مدًى الفهم لمعانيه والتفكير في مراميه، والاعتبار بعبده وحكمه ومراداته وغاياته، وذلك غاية التدبّر المقصود، والتأثر المطلوب.

وإحسان الاستماع فسّر به بعضهم رحمهم الله "الإنصات"، إذ ليس الإنصات بمعنى السكوت فحسب، بل الإنصات جامعٌ لأمر ثلاثة: السكوت والإصغاء والمراعاة^(١)، وبهذا يكون الإنصات فعلاً هو تحسين الاستماع إلى الشيء^(٢)، ولا يكون استماع المنصت إلا مع التيقّظ

(١) تفسير القرطبي، ج ٧ ص ٣٧٤.

(٢) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق الثعلبي، ج ١ ص ١٣٣.

والخشوع على إيمان و يقين وحبّ و تعلق و تعظيم للكلام و لمتكلمه جلّ و علا، «وهذا الإنصات الخاشع اليقظ، هو الذي يفتح المدركات إلى آيات الله، و يجعل للبصائر بصرًا هاديًا إلى مواقع العبرة و العظة منها»، ولهذا قال تعالى أمرًا المؤمنين به: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وإن ذهب بعض أئمتنا في الإنصات ههنا إلى ثلاثة محامل، فالراجع المختار: أنه الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق.

قال ابن جزي رحمه الله: «فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الإنصات المأمور به هو لقراءة الإمام في الصلاة.

والثاني: أنه الإنصات للخطبة.

والثالث: أنه الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق، وهو الراجع

لوجهين:

أحدهما: أن اللفظ عامٌ ولا دليل على تخصيصه.

والثاني: أن الآية مكية، و الخطبة إنما شرعت بالمدينة»^(١).

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «هذا الأمر عام في كل من سمع

كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع

(١) تفسير ابن جزي التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١ ص ٥٥٢.

والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يُلقى سمعه، ويُحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يُتلى كتابُ الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير^(١).

ولهذا كان المستمع المُجيد للقرآن المَجيد بإحسان الإصغاء والإنصات اليقظ لاشكَّ تنفتح له أحسن الأبواب للولوج إلى ساحات الهناء التعبدية وباحات السعادة الدينية وتتعبده له أحسن الطرق السالكة إلى العلي العظيم على جناباتها مشكاة الصلاح تنير له المسالك الموصلة إلى حضرة ذي الجلال على هدى الله، فأولئك هم الهداة المهيديون وأولئك هم أولوا الألباب، وقد قال الله في شأن استماعهم للقول الحكيم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

ولأن إحسان الاستماع موصول إلى التدبر، والتدبر محصل للفهم

(١) تفسير السعدي، ص ٣١٤.

العليم، ومحقق للإيمان به والارتباط بمقاصده والتعلق بمراد مُنْزله الحكيم، بالغ المشركون من صناديد قريش لما يعلموه من قوة أثر القرآن على مستمعه بإحسان وإنصات، بالغوا في الصدّ عن سبيله والمنع من سماعه وقد قرروا معلنين ذلك، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت : ٢٦].

❖ استماع أهل المعرفة والتوفيق:

وأهل المعرفة هم أولئك الذين تواصلت آذانهم مع قلوبهم برباط الخشية وحبل التقوى، واتصلت أبصارهم ببصائرهم فوعوا عن الله كلامه وعمرت قلوبهم بخطابه وزكت نفوسهم بأوامره وزواجره وطلبه ونهيه، فترجم الجوارح ذلك استقامة سلوكٍ، وتستنير الأحشاء بنور الحق والمعرفة، وتفيض الأعين أدمعاً دافئة دفء الهداية التي تعرّفوا عليها مما سمعوه من كلام الله العليّ الذي أنزله على رسوله النبي صلى الله عليه وسلم.

ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة : ٨٣].

وسماع أهل المعرفة حقيقته: «تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها؛ طلباً وهرباً وحبّاً وبُغْضاً، فهو حادٍ يحدو بكل أحدٍ إلى

وطنه ومألفه»^(١).

ولذلك؛ «من أصغى إلى كلام الله تعالى بعقله وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى وشفاء القلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منشوره»^(٢).

فاجتماع العقل والقلب والسمع في استماع القرآن هو غاية إحسان الاستماع وهو استماع أهل المعرفة والحق المقرّبين الذين أنعم الله عليهم بالاستماع والاستمتاع والانتفاع بكلامه المقدّس جلّ وعلا..

وهذا الاستماع «حادٍ يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب، وسائقٌ يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحركٌ يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليلٌ يسير بالركب في طريق الجنان، وداعٍ يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قبل فالح الإصباح؛ حي على الفلاح، حي على الفلاح. فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحُجّة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في آية، ودلالةً على رشيد، وردّاً على ضلالة، وإرشاداً من غيٍّ، وبصيرةً من عمى، وأمرّاً بمصلحة، ونهيّاً عن مضرة ومفسدة، وهدايةً إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى، وحثّاً على تقى، وجلاءً لبصيرة، وحياةً لقلب،

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم، ج ٢ ص ٤٩.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٨٤، بتصرف يسير.

وغذاءً ودواءً وشفاءً وعصمةً ونجاةً، وكشفَ شبهةً، وإيضاحَ برهان،
وتحقيقَ حقٍّ، وإبطالَ باطلٍ»^(١).

وأيّ تدبّر أو فهم أو إدراكٍ أو تذكّرٍ أو إجابة أو قبول يكون أنفع من
هذا؟!..

فهذا هو استماع أهل المعرفة الممدوح إذ علم الله فيهم خيراً
فأسمعهم، بل أحبهم فكان سمعهم الذي يسمعون به، كما في الحديث
القدسي: (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..
فبي يسمع وببي يبصر..) الحديث^(٢).

وهذا المقام العظيم إنما نيل بإحسان الاستماع المستكمل الآداب
والأحوال، فحقّق لهم المراد من التفهّم لكلام الله والتدبّر لآياته، وأعانهم

(١) انظر: مدارج السالكين، ج ٢ ص ٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٦٥٠٢، وابن حبان برقم ٣٤٧، والبخاري في مسنده
برقم ٨٧٥٠، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٦٦٢٢، والطبراني في المعجم الكبير
برقم ٧٧٣٩، من غير لفظ: " فبي يسمع وببي يبصر - " وهذه الزيادة أخرجه الحكيم
الترمذي في نوادر الأصول ج ١ ص ٢٦٥. وعند البيهقي في الزهد الكبير برقم
٧١٠ ج ٢ ص ٢١٥ بلفظ: " فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر - به
ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به ". ولفظ: (فبي يسمع وببي يبصر) صحيح
المعنى، إذ يكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر - به، ولا أعرف درجة
سنده.

على الاعتبار بحكمه وعبره..

◀ ومن أدب استماع القرآن: «سكون الجوارح، وغيض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل». قال وهب بن منبه: «وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه ولا يشغلها، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله، فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم»^(١).

◀ ومن كمال الأحوال: استحضار عظمة المتكلم بالقرآن، فإنه «إذا عظم في صدرك تعظيم المتكلم بالقرآن؛ لم يكن عندك شيء أرفع، ولا أشرف، ولا أنفع، ولا ألد، ولا أحلى من استماع كلام الله عز وجل، وفهم معاني قوله، تعظيماً وحباً له، وإجلالاً، إذ كان تعالى قائله، فحب القول على قدر حب قائله». وقد علل المحاسبي رحمه الله ذلك، فقال: «إذا كان كلام العالم أولى بالاستماع من كلام الجاهل، وكلام الوالدة الرؤوم أحق بالاستماع من كلام غيرها، فالله أعلم العلماء وأرحم الرحماء، فكلامه أولى كلام بالاستماع والتدبر والفهم»^(٢).

◀ ومن أكمل الأحوال: الاستماع على صدق النية أن يكون استماعه

(١) تفسير القرطبي، ج ١١ ص ١٧٦.

(٢) فقه القرآن للحارث المحاسبي، ص ٢٤٧، وص ٣٠٢.

على ما يحبّ الله، وبصدق النية بالفهم والانتفاع، وقد قال القرطبي رحمه الله: «إذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نوراً»^(١).

وهؤلاء هم أتباع الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم، وقد ذكر الإمام ابن عطية رحمه الله حال نبي الله موسى عليه السلام عند تفسيره قوله تعالى ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣] فقال: «وحدثني أبي رضي الله عنه، قال: سمعت أبا الفضل بن الجوهري يقول: لما قيل لموسى عليه السلام ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه وصوفاً»^(٢).

❁ استماع الجن وانتفاعهم وتدبرهم:

وكل حريص على فهم ما يُقال، والانتفاع بما يُقرأ، يُلقي بسمعه كله، ولا يرضى التشويش أو الإدهاش مهما كان صاحب التشويش والإدهاش مرموقاً أو مغموراً.

وهذا نجده مثلاً حياً من أولئك النفر من الجن الذين أحاطتهم رعاية المولى الكريم وصرفتهم عنايته جلّ وعلا، وساقهم قدّهم السعيد إلى

(١) تفسير القرطبي، ج ١١ ص ١٧٦.

(٢) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٦ ص ٥٧٣ - ٥٧٤.

حضرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهو يتلو القرآن، فتدافعوا على حرصٍ ورغبة للمعرفة وطلباً للانتفاع، فأحسنوا الاستماع، ناهين المشوشين يطالبونهم بالسكوت والإصغاء خاشعين للمتكلم سبحانه يتنادون بلسان واحد «أَنْصِتُوا»، فيخبر عنهم ربنا تبارك وتعالى في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

هذا الاستماع الحسن والإنصات المحسن أعانهم على تدبّر ما تلي من الآيات وما رُتل من القرآن، فولوا وانصرفوا عامرة قلوبهم بالإيمان زاكية نفوسهم بما سمعوه قد انقشعت غشاوة الشبهات عن أعينهم وأبصارهم، وتنقت بصائرهم عن أكدار الاستبصار الفهيم فوقفوا على المعاني الإيمانية المحققة للعقيدة الحقّة:

✓ فقاموا من هذا السماع المتدبّر بوجوب التبليغ بشارة وندارة، فولوا إلى قومهم منذرين..

✓ وعلموا بتدبّر ما سمعوه من الآيات في أعماق قلوبهم صلابة الصلة

الإيمانية والوحدة العقيدية والرابطة التوحيدية بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالة موسى عليه السلام..

✓ وعرفوا من تدبر ما استمعوه من القرآن أن قرآن محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لما بين يدي موسى عليه السلام من التوراة..

✓ ووقفوا بتدبر ما قرئ عليهم أن القرآن العظيم يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم..

✓ فانطلقوا لتدبرهم باستماعهم الحسن وإنصاتهم اليقظ داعين إلى الله ودينه، منذرين قومهم بعواقب الإعراض عن إجابة داعي الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومبشرين من آمن به منهم وأجاب داعي الحق بالنجاة من العذاب وغفران الذنوب.

كل هذا بصريح ما قالوا وفعلوا، بعد استماعهم الحسن وإنصاتهم اليقظ، وتدبرهم العليم.

بل زاد الجن على ذلك بإحسان الاستماع للقرآن فتدبروا به آياته فأنتهى بهم ذاك الاستماع المتدبر إلى تقرير حقائق إيمانية، وتحصيل مسلمات عقيدية، وذلك في قوله تعالى من سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا. وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا. وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهًا عَلَىٰ اللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن : ١ - ٤]..

«هذه الآيات تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجنّ، مفاجأة أطارَت تماسكهم، وزلزلت قلوبهم، وهزّت مشاعرهم، وأطلقت في كيّانهم دفعة عنيفة من التأثير امتلأ بها كيّانهم كلّهُ وفاضَ، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعاً، ولا تملك عليه صبراً، قبل أن تفيضه على الآخرين في هذا الأسلوب المتدفّق النابض بالحرارة والانفعال وبالجدّ والاحتفال في نفس الأوان..»^(١).

✓ فتوصّلوا إلى حقيقة أنّ القرآن الذي استمعوه من فيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريف قرآنٌ عجبٌ غير مألوفٍ، ذو جاذبية غلابة، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهزّ القلوب..

✓ وتوصّلوا إلى حقيقة أنّه قرآنٌ يهدي إلى الرشد بما ينشئه في القلب من تفتحٍ وحساسية وإدراكٍ ومعرفة واتصال بمصدر النور والهدى، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى، كما يهدي إلى الرشد بمنهج التنظيمي للحياة وتصريفها..

✓ فجعلهم هذا الاستماع الحسن للقرآن العجب يؤمنون به إيماناً لا شرك معه أبداً، يحرر من كل سفه عقلي وسفاهة اعتقادية، وينفي الشطط في الفكر والعمل.

✓ جعلهم يشهدون بوحدانية الله، ونفي الصاحب والولد له، وأنّ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٦ ص ٣٧٢٦-٣٧٢٧.

الغيب موكلول لله وحده لا تعلمه الجن ولا تعرفه الرسل إلا بإطلاع الله لهم عليه مما تقتضيه حكيمته البالغة..

✓ وحملهم هذا الاستماع الحسن لتلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تدبر معاني القرآن ومقاصد الرسالة ومراد الخالق الباري العليّ جل جلاله فأروا ببصائر القلوب التي أنارتها الآيات التي اخترقت آذانهم فوعتها صدورهم فأبصرت الارتباط الوثيق بين استقامة الخلائق على الطريقة وتحركات هذا الكون الفسيح بمكوناته ونتائج تلك التحركات وآثارها على العباد والعبيد^(١).

وهكذا يصنع الاستماع الحسن بالمتدبرين.

❁ استماع النبي صلى الله عليه وسلم وتدبره:

وهذا النبي الحبيب الذي أنزل القرآن على قلبه ليكون للعالمين نذيراً صلى الله عليه وسلم قد مارس الاستماع الحسن فكان أحسن المستمعين للقرآن المتدبرين له عليه الصلاة والسلام بلا شك ولا ارتياب، وكان يحب استماع القرآن من غيره مع أنه هو الذي أنزل عليه وعمر به محبة جل وعلا قلبه بعد أن نقاه وصفاه لتلقيه.

ففي صحيح البخاري وغيره يُخبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

(١) ويراجع: في ظلال القرآن لسيد قطب، تفسير سورة الجن، ج ٦ ص ٣٧٢٣، و٣٧٢٧.

يقول: «قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ عليّ) قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال صلى الله عليه وسلم: (فإنّي أحبّ أن أسمع من غيري) قال عبد الله: فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: (أمسك) فإذا عيناه تذرّفان»^(١).

قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا: بكاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان لعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع، وشدة الأمر، إذ يؤتى بالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، ويؤتى به صلى الله عليه وسلم شهيداً على أمته وغيرهم»^(٢).

ولمّا شكّا بعض أهل الكوفة عن إملاء عبد الله بن مسعود رضي الله عنه القرآن من حفظه دون المصحف وأبلغوا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فغضب وانتفخ، حتى علم أنه عبد الله بن مسعود فسكن غضبه وسرى عنه، يشهد له أنه رضي الله عنه الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ أن يسمع منه، أنّه رضي الله عنه الذي حثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خيار أصحابه على استماع القرآن منه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٤٥٨٢، ومسلم في صحيحه برقم ٨٠٠، وأبو داود

برقم ٣٦٦٨، والنسائي برقم ١٠٠، وابن حبان برقم ٧٠٦٥.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ص ١٨٥.

أتى قيس بن مروان إلى عمر رضي الله عنه فقال: «جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت بها رجلاً يُملي المصاحف عن ظهر قلبه. فغضب وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبي الرجل، فقال: «ومن هو ويحك؟» قال: عبد الله بن مسعود. فما زال يطفأ ويُسرَى عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها، ثم قال: «ويحك! والله ما أعلمه بقي من الناس أحدٌ هو أحقُّ بذلك منه، وسأحدثك عن ذلك. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يسمر عند أبي بكر رضي الله عنه الليلة في الأمر من أمر المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجنا معه، فإذا رجلٌ قائمٌ يصلي في المسجد، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يستمع قراءته، فلمَّا كِدْنَا أَنْ نعرفه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَرَّه أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ؛ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد). قال: ثم جلس الرجل يدعو، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: (سَلْ تعطه، سَلْ تعطه). قال عمر رضي الله عنه: قلت والله لأغدون إليه فلا بُشْرَته. قال: فغدوت إليه لأبشّره؛ فوجدتُ أبا بكر رضي الله عنه قد سبقني إليه فبشّره، ولا والله ما سبقته إلى خير قط إلا وسبقني إليه»^(١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٧٥، وابن خزيمة برقم ١١٥٦. وقال شعيب الأرنؤوط

لإسناد أحمد (ج ١ ص ٢٥): إسناده صحيح. وصحح الأعظمي إسناد ابن خزيمة

ج ٢ ص ١٨٦.

ولم يكن ابن مسعود رضي الله عنه الصحابي الوحيد الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الاستماع إلى قراءته وتلاوته؛ بل لعله صلى الله عليه وسلم كانت من عاداته الحميدة وسننه الرشيدة الاستماع للقرآن من قارئيه رجالاً كانوا أو نساءً.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «استمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءتي من الليل فلما أصبحت قال: (يا أبا موسى! استمعت قراءتك الليلة لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود)، قلت: (يا رسول الله! لو علمت مكانك لحبّرت لك تحبيراً)»^(١).

وأخرج المروزي في مختصر قيام الليل أنّ النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بشاب يقرأ: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، فوقف، فاقشعر، وخنقته العبرة، فجعل يبكي ويقول: «ويحي في يوم تنشق فيه السماء»، فقال صلى الله عليه وسلم: (مثلها يا فتى فو الذي نفسي بيده! لقد بكت الملائكة من بكائك)^(٢).

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «أبطأت على عهد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٠٤٨، ومسلم في صحيحه برقم ١٨٨٨، والنسائي برقم ١٠١٩، وابن ماجه برقم ١٣٤١، وابن حبان في صحيحه برقم ٧١٩٧، واللفظ لابن حبان.

(٢) أخرجه محمد بن نصر - المروزي في مختصر - قيام الليل، برقم ١٦٢، ص ٢٠٩، وذكره القرطبي في التكرار في أفضل الأذكار، ص ١٨٨.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بعد العشاء، ثم جئت أ فقال: (أين كنت ؟). قلت: كنت أسمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد»، قالت: فقام، وقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إليّ أ فقال: (هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا)^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عمرو بن ميمون قال: مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]. فقام يسمع ويقول: (نعم قد جاءني)^(٢).

وهذا من صميم التدبر النبوي لخطاب الله تعالى له، لأنّ المعنى: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية - كما قال قطرب - ولكنه وُجّه إلى الحبيب استفهاماً ليكون أوقع على قلبه، وقد كان، إذ الاستفهام ههنا «أريد به التعجيب مما في حيّزه، والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنّه من الأحاديث البديعة التي حقها أن تتناقلها الرواة ويتنافس في تلقنها الوعاة»^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه برقم ١٣٣٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ج ١٠ ص ٣٤٢٠، برقم ١٩٢٥١، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ٥٠٣، وسكت عنه.. وانظر: روح المعاني للآلوسي ج ١٥ ص ٣٢٤.

(٣) انظر: روح المعاني، للآلوسي، ج ١٥ ص ٣٢٤.

ولأنَّه صلى الله عليه وسلم هو المتدبِّر الأعظم لكلام الله له؛ كان عليه الصلاة والسلام «يحسّ وقع توجيه هذا الخطاب: ﴿هَلْ أَتَاكَ؟﴾ إلى شخصه حيثما سمع هذه السورة وكأنَّما يتلقَّاه أوَّل أمر مباشرة من ربه لشدَّة حساسية قلبه بخطاب الله سبحانه، واستحضاره لحقيقة الخطاب وشعوره بأنَّه صادر إليه بلا وسيط حيثما سمعته أذناه»^(١)!! لهذا؛ كان تدبُّره صلى الله عليه وسلم بسماعه أوقع على قلبه النقيّ وسمعه الصفيّ ووجدانه الواعي المستجيب لربه.

❖ استماع السلف وتدبُّرهم:

ولقد تربَّى أصحاب محمد رضوان الله عليهم على يديه صلى الله عليه وسلم فكانوا يحبُّون الاستماع للقرآن، ويتأثَّرون لما يسمعون من الآيات المتلوة فتتشعَّر جلودهم وتدمع عيونهم رضي الله عنهم، كما أخبرت بذلك أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قال: «كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرئَ عليهم القرآن كما نعتهم الله: تدمع أعينهم وتتشعَّر جلودهم»^(٢). رضي الله عنهم.

وذكر ابن تيمية رحمه الله أنَّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

(١) في ظلال القرآن، ج ٦ ص ٣٨٩٦، بتصرف يسير.

(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ١٥ ص ١٤٩، تفسير البغوي ج ٧ ص ٢٣٨. والتذكُّار في أفضل الأذكار، ص ١٩٨.

كانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون^(١).

ولقد كان سيدهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكثرهم اقتداءً برسول الله رضوان الله عليه، فكان يجيد الاستماع يتدبره ويتفهمه ويتأثر بما سمعه.

✓ قال سعيد بن زائدة رحمه الله: قرأ رجلٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أحسن هذا يا رسول الله! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُهَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ)^(٢). يتدبرها ويتمنى حالها رضوان الله عليه.

✓ وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَعْصُ المدينة ذات ليلة، فمرَّ بدار رجلٍ من المسلمين، فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ١ - ٨]. قال: «قسمٌ وربُّ الكعبة حقٌّ». فنزل عن حماره،

(١) مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٨٠.

(٢) تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ٥٨، وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥١٠، وأخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة برقم ١٢٤ — ١٢٥، ج ٤ ص ١٢٢ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ج ١ ص

واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعود به الناس لا يدرون ما مرضه، رضي الله عنه^(١).

وعلى هذا تربى التابعون لهم بإحسان ومن تبعهم في كل جيل وعصر..

✓ فكان عثمان بن زائدة إذا قرئ عليه القرآن غطى وجهه بثوبه، يتأول قول الله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠٤]^(٢).

✓ واستمع الشافعي رحمه الله إلى رجل يقرأ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات : ٣٥، ٣٦] فغشي عليه^(٣).

✓ وقال إبراهيم بن الأشعث خادم الفضيل رحمه الله: «ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله عنده أو سمع القرآن؛ ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، فبكى، حتى يرحمه من بحضرته»^(٤).

(١) تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٢٤٢، ومسند عمر لابن كثير، ج ٢ ص ٦٠٨، والتذكار في

أفضل الأذكار للقرطبي ص ١٩٩.

(٢) الدر المنثور للسيوطي، ج ٣ ص ٢٨٦.

(٣) التذكار للقرطبي، ص ١٩٩.

(٤) تهذيب التهذيب، ج ٨ ص ٢٦٦، وتهذيب الكمال، ج ٢٣ ص ٢٨٩، سير أعلام

النبلاء، ج ١٥ ص ٤٤٤.

✓ وروى الدوري عن يحيى بن معين رحمهم الله أنه قال: « كان يحيى بن سعيد إذا قرئ عليه القرآن يسقط حتى يصيب الأرض وجهه ، قلت ليحيى: وأنت رأيته ؟ قال: لا ، ولكن بلغني أنه كان يصيبه هذا » .

✓ وحدث أبو خيثمة زهير بن حرب رحمه الله ، قال: « كنا عند يحيى القطان ، فجاء محمد بن سعيد الترمذي ، فقال له يحيى: اقرأ ، فقراً ، فسقط يحيى مغشياً عليه »^(١) .

فهؤلاء هم أهل التدبر بإحسان الاستماع للقرآن وآياته إذا تتلى عليهم خرواً سجداً وبُكياً كما أخبر عنهم القرآن . رزقنا الله علوم كتابه وفهم خطابه والاتعاظ به والعمل بأحكامه .

❖ مسدّات استماع التدبر:

وليس كل سماع أو استماع هو معينٌ على التدبر ، بل الاستماع الذي يكون معيناً على التدبر هو المتصف بالإحسان ، المستكمل للآداب والأحوال مما ذكرنا ، وهو سماع أهل المعرفة ، ومؤمني الجنّ ، وسماع سيد الثقلين صلى الله عليه وسلم ، وسماع صحبه ممن صنّع على عينه ، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم .

وأما الاستماع الذي لا ينفع صاحبه ، ولا يعين أبداً على التدبر ، ولا يوقف السمع والفؤاد على فهم معاني القرآن ، ويصدّ القلب عن الاتعاظ ،

(١) أخرجهما الخلال بسنده في الأمر بالمعروف ، برقم ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ولا يحمل الجوارح إلى العمل؛ فذاك الاستماع المصدود بالمسدّات الستة:

المسدّ الأول: الإعراض الاختياري:

فلا قلب واع ولا عقل حاضر، بل يستمع هذا إلى ما يُتلى من الكتاب وهو معرض بقلبه وإن التقطت أصوات التالي أذنه، وهذا جماعته هم الذين ذمّهم الله في قوله تعالى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٣ - ٥].

حالهم:

١— الإعراض، فهم لا يقبلون ولا يطيعون، وعبر عن ذلك بعدم السماع على وجه المبالغة، لأنهم سمعوا السماع الذي تقوم به الحجة الشرعية عليهم.

٢— والاعتذار بأقبح المعاذير وأشنعها، يصرحون بها بلا خجل يقولون: قلوبنا غلف عما تقول، فيها أغشية مغشاة عما تدعو، وفي آذاننا صمم فلا نسمع لك، ومضروب بيننا الحجب الكثيفة المعتمة المانعة من الوصول إلى الحق الذي أنت عليه وتدعو إليه.

وإن نظرت إلى حالهم! تجدهم يعرضون عن سماع الكلام المقدّس

اختياراً وتعمداً ألا يسمعوا، كرهاً وبغضاً للحق، أو عناداً على الكفر، أو تعصباً لعصبة الشيطان وحزبه.

وأصدق وصفٍ لأهل الإعراض عن سماع الذكر الحكيم؛ ما ذكره عنهم رب العزة في سورة المدثر باستفهام استنكاري تعجيبى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرةِ مُعْرِضِينَ. كَانَهُمْ حُمُزٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

وهذا أسفل دركات الإعراض عن الحقّ البين، وأقبح أحوال المعرضين، أعاذنا الله منها.

المسد الثاني: التلاخي والتشويش:

وأصحابه محرومون من جنان التدبّر، بل إنهم — يا حسرة عليهم - يبادرون لا إلى الامتناع عن الاستماع، بل يبادرون إلى منع الراغب في الاستماع إلى استماع القرآن، بل وزيادة للتشويش والإدهاش حتى لا يعمل القرآن المتلو في قلوب سامعيه من أقوامهم وأتباعهم، فيأمرون المتبّعين الناعقين من أعقابهم أن يلغوا فيه بإشغال مريد الاستماع بالصياح والصراخ والصفير واللغو واللغو، ومعارضته بالخرافات من الرجز وبإنشاد الشعر وأصوات الغناء والمكاء والتصدية، فيحرموا أنفسهم وأهلهم من خير القرآن ونفعه وهديه وبركته.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا

الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿﴾ [فصلت : ٢٦].

المسدّ الثالث: شراء الضلال:

وربّ مشؤوم منحوس يزيّن له الشيطان الأسوأ، وتختار له نفسه الأمانة بالسوء ما يجعله مقام السماع الأشرف "سماع القرآن" من السماع المذموم المبغوض لله ورسوله "لهو الحديث" ليضل عن سبيل الله، فيجرّه ذلك كما يجرّ الذئب السخلة من ذنبها إلى حتفها، فيبعده عن سماع الذكر الحكيم إلى لغو الحديث ليملاً فاهُ هزواً، وأذنه وقرأاً، ونفسه كبراً، فيولّي وهو يسمع آيات الحق بينةً كأن لم يسمعها، فاستبدل المسكين الذي هو أدنى بالذي هو خير، والذي هو طالح بالذي هو صالح، والذي هو أضرّ بالذي هو أنفع، حالاً ومالاً، فاستبدل الهدى بالضلال عن السبيل في الحال، وجنان النخيل والأعناب في المال بالأليم والمهين من العذاب.

هؤلاء هم الذين نعى عليهم رب العزة فقال عنهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّشْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦-٧].

فالذي تركه هذا المشؤوم هو سماع السعداء، والذي اشتراه المخذول المذؤوم هو سماع الأشقياء، فيا لبؤسه ويا لشؤمه!! يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل أحسن الحديث!!، فمكافأته المهانة، وبشارته

العذاب الأليم.

ويا سعد أولئك الذين يتلذذون بسماع القرآن يتلقونه بأذانهم فرحين بتلاوته مستبشرين بنعمة الله عليهم أن اختارهم ربهم مع أهل السماع المحبوب الممدوح المرضي له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، يقبلون على سماع القرآن ويعرضون عن سماع اللغو والبهتان، يتبرؤون من أهله اللاغين الجاهلين، فامتدحهم الله بأحسن مدح فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. وأكد حالهم المحبوب الممدوح فقال جل وعلا ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

جعلنا الله الكريم منهم ومتعنا بسماع كلامه والانتفاع به.

المسد الرابع: الإصرار الاستكباري:

وهذا المحروم من خير الله له، والمصدود عن هداية الرحمن، يأتيه نبي مرسل بالهدى والبينات، يدعوها إلى خالقه ورازقه وبارئه ومنعمه وحافظه وراعيه، يصرّ على الإعراض عن سماع الآيات والانتفاع بالبينات، ويأبى قبول الحق إصراراً على الباطل واستكباراً عن الحق المبين إفكاً وإثماً، وذلك هو الضلال المبين.

هذا المحروم يصرّ ويصرّ على الإعراض عن سماع القرآن ويستكبر عن قبول ما سمعه والإجابة لما ألقى على مسمعه من الأوامر والنواهي

الإلهية، ويبالغ في إصراره استكباراً حتى تراه يضع الغشاوات المانعة من السماع السادة لمسامعه مبالغة في الإصرار الاستكباري على الإعراض عن سماع الآيات واستماع القرآن.

هذا هو الذي سمّاه ربنا أفاكاً ووصفه أثيراً، وذمّه إلى يوم الدين فقال فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

هذا المشؤوم المحروم من خير الله هو الذي أتعب الأنبياء في دعوته فأعرض، وأسمعه الأنبياء كلام ربهم فسدّ أذنيه بأصبعه، بل يجهد أن يجعل أصابعه كلها يحشوها في أذنيه من شدة انزعاجه من سماع القرآن حتى يوشك أن يخلع أذنه ويقدّ مسمعه إصراراً على الإعراض واستكباراً عن الإيمان، فذكره الله بوصفه المذموم يحكي اعتذار نبي الله إليه جلّ وعلا ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

نعوذ بالله من هذا الحال ومن أهل الضلال.

المسدّ الخامس: التناجي الظلوم:

وهذا المسدّ الصادّ عن سبيل الاستماع المعين على التدبّر، فيمنع الانتفاع بما يُسمع من كلام الله، وما يُلقى من البينات والهدى، فيعدو هؤلاء المحرومون إلى أحضان الشيطان يسرعون إلى محاضن الضلال، كأنهم حُمُرٌ مستنفرة، فرّت من قسورة، وكما وصف حالهم هذا القرآن

بقوله: ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

وما كان هذا المسدّ المانع من الاستماع النافع الهادي إلى سبيل الله ومَرْضَاتِهِ إِلَّا تَنَاجِيَهُمُ الظُّلُومُ بِغَيْرِ الْحَقِّ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي تَلَا عَلَيْهِمْ كَلَامَ رَبِّهِ وَبَلَّغَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ، أَنَّهُ لَيْسَ مَرْسَلًا، وَلِيَتَّهِمُوا اكْتَفُوا فِي تَنَاجِيهِمْ بِهَذَا!! بَلْ تَجَاوَزُوا إِلَى مَا هُوَ أَشْنَعُ، فَسَلَبُوا الْعَقْلَ وَالرَّشَدَ وَسَلَامَةَ الطَّبْعِ، فَصَارُوا يَتَنَاجُونَ بَيْنَهُمْ ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ لئَلَّا يَسْمَعُوا الْآيَاتِ الَّتِي يَتْلُوهَا عَلَيْهِمْ، ظَلَمًا وَكِرْهًا. فَحَرَمُوا بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمُ الْهَدَايَةَ وَالصَّلَاحَ، وَحَرَمُوا السَّمَاعَ الطَّيِّبَ.

أَصْحَابُ التَّنَاجِيِ الظُّلُومِ الَّذِي أَثْمَرَ لَهُمُ الْحَرَمَانَ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ وَالْإِهْتِدَاءِ بِهَدْيِ الرَّحْمَنِ ذَمَّهُمْ رَبُّهُمْ يَسْلِي نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٦ - ٤٨].

اللهم لا تجعلنا مع القوم الضالين.

المسدّ السادس: الصَّمَمُ الْعَقْلِي:

الصَّمَمُ قَدْ يَصِيبُ الْأُذْنَ فَيَمْنَعُ مِنَ السَّمْعِ وَهُوَ الْأَصْلُ، وَقَدْ يَصِيبُ غَيْرَ الْأُذُنِ، فَيَصِيبُ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ وَالْبَصِيرَةَ، فَيَمْنَعُ الْإِنْتِفَاعَ بِكُلِّ خَيْرٍ، فَيَصِدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسُدُّ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ أَسْبَابَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، فَيَقَعُ فَرِيسَةً

الضلال فتخطفه الطير أو ترمي به في مكان سحيق.

وأضرَّ من صمم الآذان صمم القلوب والعقول، فربَّ أصمَّ لا يسمع من كلام الناس! إذا قرئ عليه القرآن وتليت عليه آيات الرحمن سمعها أحسن من السامعين!!..

وكان هذا حال راوي الإمام نافع المدني الإمام قالون أبي موسى عيسى بن مينا رحمة الله تعالى عليهما، فإنَّ قالون كان أصمَّ لا يسمع من كلام الناس شيئاً، كان لا يسمع حتى البوق، فإذا قرئ عليه القرآن يسمعه، ويقرأ عليه رحمه الله التلاميذ وطلَّابُ القرآن؛ فإذا أخطأوا أو لحنوا؛ ردَّ عليهم خطأهم ولحنهم وصحَّحهم^(١). فيا لهذه الكرامة!! ويا لهذا الأذن المتأبّي عن سماع غير كلام الله!!.

إذن: قد لا يكون صمم الآذان مانعاً من استماع القرآن!! ولكن صمم القلوب عن تعقّل المسموع هو الذي يكون مسدداً مانعاً من الاستماع المفيد المعين على الهدى، فإنَّ القلوب إذا صمَّت عن التعقّل^(٢)، وعمَّت عن التبصّر؛ فما فائدة أن تسمع الآذان؟! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦].. خاصة لو ملأ هذا

(١) راجعه في ترجمته في: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، لأبي حفص النشار،

ج ١ ص ٤٨، طبقات القراء للذهبي، ج ١ ص ٦٦، الأعلام للزركلي، ج ٥ ص ١١٠.

(٢) وقد قال تعالى ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج : ٤٦].

المشؤوم قلبه بأوساخ الباطل، وأقذار الضلال، وغشاوات الكُرْه لما أنزل الله، والبُغْض لكلامه وآياته، فتعساً له وأضلّ أعماله، فيتحقق عندئذٍ الصمم القلبي وما أبقي لقلبه فسحة حتى يسمع ويعقل، وإن سَمِعَ بأذنه إلى القارئ يقرأ وإلى التالي يتلو وإلى المرتل يرتل؛ لا يسمع سماع التعقل الهادي إلى الحق والصواب، لا يتجاوز ما يسمعه صماغ أذنيه، فيبقى في الضلال مكباً على وجهه.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس : ٤٢].

فبين الله تعالى أن الصمم الذي بهم؛ كونهم لا يعقلون، فكان صممهم إذن من نوع صمم العقول لا صمم الأذان، إذ المفهوم: لو كانوا يعقلون لما كان بهم صمم وكنت تُسمعهم.

فيا بؤس حالهم!! أعاذنا الله منه، وحفظنا كما حفظ عباده المخلصين، وورزقنا الاستماع النافع، ووفقنا إلى سماع آياته بتفهّم وتبصّر وتدبّر.



المُعِين الثاني

التغني وتحسين القراءة

تحسين الأداء وجمال القراءة وتزيين الصوت بالقرآن من أدعى المعينات وأجداها في حمل القلب على التفهم والتدبر، فإنَّ جمال القراءة وحسن التلاوة بالصوت النديّ الجاذب، الممزوج بالترخيم، الصادح بالحقِّ على تحزين، هذا الأداء الجميل الحسن لا يقاومه قلبٌ سليمٌ يتلقاه إلا انصاع مردداً: «سمعنا وأطعنا»، ولا ينسددونه عقلٌ لبيبٌ حتى يقف متعلّلاً ما قرئ من الآيات والذكر الحكيم فيصدع بيقين جازم: «صدق الله، آمنا به، كلُّ من عند ربنا».

فيا لأثر جمال القراءة على النفوس المؤمنة!! ويا لأثر حسن التلاوة على الآذان الواعية!! ويا لقوة تزيين الصوت في ترتيل الكتاب على مريد التدبر والتأثر!!!

ولا يخفى على أحدٍ أثر جمال الصوت حتى في أداء الغناء المعهود وترى أهله يتميلون طرباً إلى حيث يريد الشيطان، لأن الغناء هو قرآن الشيطان كما يسميه العلماء^(١)، فتنبت قلوبهم النفاق وتنتقص رغبتهم في سماع الحق والتزامه، وتكره نفوسهم ما أنزل الله، وكذلك - وزيادة - جمال

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، ج ٢ ص ٥٤.

الأداء بالصوت النديّ الرحيم الحزين لقرآن الرحمن فإنه يميل بالقارئ والسامع نشوان طرباً إلى حيث يريد الرحمن، وهذا ثمرة ثمرات التدبّر.

ولهذا قال فضل الرقاشي رحمه الله: « ما تلذذ المتلذذون، ولا استطارت قلوبهم بشيء كحسن الصوت بالقرآن، وكلُّ قلب لا يجب على حسن الصوت بالقرآن! فهو قلبٌ ميتٌ. قال الفضل: وأيُّ عينٍ لا تهمل على حسن الصوت! إلا عينٌ غافٌ أو لاهٍ^(١). »

❖ حثّ الشرع على تغني القرآن:

ولأنّ التغني بالقرآن تجميل الصوت بالتلاوة من أقوى المعينات على فهم القرآن وتدبّره ومعايشته؛ حثّ الشرع عليه وأذن لقرائه بتزيين أصواتهم به، وتجميل القراءة، ليسري المتلوّ من اللسان إلى الجنان، ومن الشفاه إلى سويداء الفؤاد، فيعمره تأثراً واعتباراً واستبصاراً لمكانه من مراد الله في رسائله القرآنية المتلوة فيتساءل: أين أنا من أمر الله؟ فيسارع إلى امتثال المطلوب وتحصيل المقصود.

لذلك جاء الحثّ من الشارع على التغني بالقرآن وتزيين الصوت بتلاوته.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حلية الأولياء، ج ٦ ص ٢٠٧. والرقعة والبكاء لابن أبي الدنيا، ص ٨٤، برقم ٧٩.

قال: (ما أذن الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنّى بالقرآن) ^(١).

وعنه رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي صلى الله عليه وسلم يتغنّى بالقرآن وقال صاحب له يريد يجهر به) ^(٢).

وعنه رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به) ^(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنّى بالقرآن يجهر به) ^(٤).

فالتغنّى بالقرآن جاء مفسّراً في الأحاديث نفسها، بأنه أمران: الجهر بالقرآن، وحسن الصوت به. فكان معناه تزيين الصوت بالقرآن وتحسينه بتلاوته على صورة التغنّي المطرب المؤثر.

قال ابن كثير رحمه الله: «ومعناه: أن الله تعالى ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنّها، وذلك أنه يجتمع في قراءة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٠٢٤. ومسلم في صحيحه برقم ١٨٨١.

(٢) البخاري برقم ٥٠٢٣، ٧٤٨٢.

(٣) البخاري برقم ٧٥٤٤. ومسلم في صحيحه برقم ١٨٨٣.

(٤) مسلم في صحيحه برقم ١٨٨٥.

الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات»^(١) ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم.. ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ، كما دلّ عليه هذا الحديث العظيم^(٢).

ولهذا؛ تبرأ نبينا صلوات الله وسلامه عليه من قارئ القرآن الذي لا يتغنّى به، فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري وغيره: (ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن. وزاد غيره: يجهر به)^(٣).

وقال عبد الجبار بن الورد: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبيد الله بن أبي يزيد: مرّ بنا أبو لبابة رضي الله عنه فاتبعناه حتى دخل بيته، فدخلنا عليه، فإذا رجل رثّ البيت رثّ الهيئة، فسمعتة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن). قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد! أرايت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: « يحسنه ما استطاع »^(٤).

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: (ليس منا

(١) فضائل القرآن لابن كثير، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٧٥٢٧. وأبو داود برقم ١٤٧١ عن سعيد بن أبي سعيد.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه برقم ١٤٧٣.

من لم يتغن بالقرآن) معناه: يقرؤه حدرًا وتحزينًا^(١).

ولما فسّر سفيان بن عيينة رحمه الله التغني بالاستغناء؛ أجابه الشافعي رحمه الله بأن المعنى التغني بتزيين الصوت وتحسينه.

فعن أبي ثور، قال: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: «قال ابن عيينة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) وهو يستغني به. قال الشافعي: «نحن أعلم بهذا لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء به لقال: ليس منا من لم يستغن بالقرآن، فلمّا قال: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) علمنا أنه التغني به»^(٢).

وأصل التغني بالقرآن ما قيل: «كانت هَجِيرَى العرب التَّغْنِي بِالرُّكْبَانِيَّ، وهو نشيدٌ بالمدِّ والتمطيط إذا ركبوا الإبل، وإذا انبطحوا على الأرض، وإذا قعدوا في أفئيتهم، وفي عامة أحوالهم، فأحبَّ الرّسول صلى الله عليه وسلم أن تكون قراءة القرآن هَجِيرَاهُمْ، فقال ذلك، يعنى: ليس منّا من لم يضع القرآن موضع الرُّكْبَانِيَّ في اللهج به والطرب»^(٣).

ومن دعوة الشرع لتحسين الصوت بالقراءة والتغني بالقرآن؛ إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه في حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه

(١) أخرجه البيهقي في السنن الصغرى، برقم ٧٦٩.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الصغرى برقم ٧٦٨، ج ١ ص ٣٥٠.

(٣) الفائق في غريب الحديث، للزخشري، ج ٢ ص ٣٦.

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لله أشدُّ أذناً إلى الرجل حسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القَيْنَةِ إلى قَيْنَتِهِ)^(١).

✽ تحفيز النبي صلى الله عليه وسلم أُمَّتِهِ عَلَى التَّغْنِي :

ولأثر التَّغْنِي بالقرآن وتجميل الصوت به وتحسين تلاوته في فهم معانيه وتدبر آياته؛ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض أصحابه ويحفزهم على تزيين أصواتهم بالقرآن، وتحسين أدائهم في التلاوة والترتيل، رضوان الله تعالى عليهم.

فنرى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحفيزاً لمن يقرأ القرآن ويرتله بالتَّغْنِي وتحسين التلاوة وتزيين صوته بقراءته؛ يبشّر صاحب هذا الحال أنه مرضيٌّ عنه عند ربه يوم القيامة، مرفوع به درجته في عليين، مرموق به مكانته في العالمين، سامقٌ بتلاوته، معزيٌّ بإحسانِ ترتيله وقراءته بإحسان ربِّ الجود والكرم، وجزاء الإحسان الإحسان!! وكما قال هو جلّ وعلا ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟﴾ [الرحمن : ٦٠].. فلا يكفيه دخول الجنة جزاءً، بل يقال له بعد أن ضمن الجنة: (اقرأ، وارتق، ورتل، كما

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه برقم ١٣٤٠، وأحمد في المسند برقم ٢٣٩٩٢، و٢٤٠٠٢، وابن حبان برقم ٧٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢١٥٨٢، و٢١٥٨٣، والحاكم في المستدرک برقم ٢٠٩٧، وقال صحيح على شرط الشيخين. وصحح البوصيري في الزوائد إسناد ابن ماجة (١/ ٤٢٥) وجوّد ابن كثير إسناد ابن ماجة في فضائل القرآن ص ١٨٠ فقال: "رواه ابن ماجة بسند جيّد عن فضالة بن عبيد".

كنت تُرتِّل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأ بها^(١). هنيئاً له ذلك.

وانظر إلى ما يقال له: (منزلتك عند آخر آية تقرأ بها) و«بها» للكيفية الحسنة وهيئة التلاوة التي رضيها الله تعالى لقارئ كلامه وتالي كتابه. ويؤكِّده قوله: (كما كنت تُرتِّل في الدنيا). فطلب منه أن يقرأ كما كان يقرأ في الدنيا أي بالصورة والكيفية التي كان يقرأ بها. وهي الكيفية التي كانت تُعجبه تعالى وتُعجب رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

ومناسبٌ فعلاً: أن يُحسن القارئ لكلام الله في قراءته، تجميلاً للقراءة، وتزييناً لصوته بها، يتغنَّى بكلام الله بأحسن ما أوتي من جمال الصوت وحسن الأداء تجويداً للحروف وتزييناً لأصواتها، مما ملأ مآقي السامعين عِبرات، وقذف في قلوب المصلين عِظات، وعمَّر بصائر المؤمنين إنارات، وشحذ عقول المتلقين عِبراً وحكماً ورشداً، وعلاَّهممة العالمين علماً وفهماً، وصفَّى نفوس العالمين إنابة وتزكية!!..

فهذا إحسانٌ يليق بالعبد لكلام الربِّ، فقابله الله بالإحسان الذي يليق

(١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، في الترمذي برقم ٢٩١٤، وأحمد في

المسند برقم ٦٧٩٩، و١٠٠٨٩، والنسائي برقم ٨٠٠٢، والحاكم في المستدرک برقم

٢٠٣٠. وقال الترمذي لخبره: هذا حديث حسن صحيح، ووافقه الألباني

(١٧٧/٥)، وقال الأرناؤوط لسند أحمد صحيح لغيره، وللإسناد الثاني لأحمد إسناده

صحيح على شرط الشيخين.

بالربِّ لذلك العبد، وهو أكرم الأكرمين وأجود الجوادين.

فهنيئاً له ذلك، جعلنا الله منهم، ورزقنا هذا المقام بجوده وكرمه وإحسانه.

والنبي صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه والتابعين لهم وأمتهم من بعدهم بتحسين القراءة وتزيين الصوت بالقرآن والتغني به، يصرّح بذلك تصريحاً ويأمر به ترغيباً فيقول: (زينوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً)^(١).

قال البغوي رحمه الله: «قوله: (زينوا القرآن بأصواتكم) قيل: معناه: زينوا أصواتكم بالقرآن، وهو من باب المقلوب، كقولهم: عرضت الناقة على الحوض، أي: عرضت الحوض على الناقة. وروى معمر، عن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٢١٢٥، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٩٥٥، وابن الأعرابي في المعجم برقم ١٥٤٣، والدارمي برقم ٣٥٠١ بلفظ: (حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً). وأخرجه مختصراً: أبو داود برقم ١٤٧٠، والنسائي برقم ١٠١٥، و١٠١٦، وصححه الألباني (٢/ ١٧٩)، وابن ماجه برقم ١٣٤٢، وأحمد في المسند برقم ١٨٥١٧، وصححه الأرناؤوط (٤/ ٢٨٣)، وابن خزيمة برقم ١٥٥١. وصحح الألباني سند النسائي (٢/ ١٧٩) وحسين سيد سليم إسناد الدارمي وقوى الأرناؤوط إسناد الحاكم والدارمي (وصحح إسناد أحمد (٤/ ٢٨٣) وإسناد ابن حبان (٣/ ٢٥)، وحاشية (٣/ ٢٦). وصحح الأعظمي إسناد ابن خزيمة (٣/ ٢٤).

منصور، عن طلحة بإسناده، وقال: (زينوا أصواتكم بالقرآن) روي عن شعبة قال: نهاني أيوب أن أحدث زينوا القرآن بأصواتكم^(١).

✽ تحفيز النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى:

وترى مدى التحفيز والتشجيع والتحفيز لقارئ القرآن حين يخبره سيد المرسلين إمام المتقين صلى الله عليه وسلم أنه كان يستمع لقراءته، وأنه موهوب من الله، وأن قراءته أعجبتة وسرته، يصف صوته بأجمل الصفات والنعوت الحاملة على مداومة الإحسان والتجويد والتزيين والتجميل للتلاوة المباركة!!.

لتكن أنت مكان أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: «لو رأيته! وأنا أستمع لقراءتك البارحة؟! لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»^(٢).

وانظر مدى السرور الذي يعمر جنباتك والحبور الذي يغمر أركانك والزهو والنشوة والشعور بعلو مكانتك وعظيم ما فعلت أو كيفيك أن تعرف أن ما قمت به من جميل التلاوة والترتيل أعجب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا الذي جعل أبا موسى رضي الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه

(١) شرح السنة للبخاري، ج ٣ ص ٣٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٨٨٨.

وسلم: «يا رسول الله! لو علمت مكانك لحبّرت لك تحبيراً»^(١).

ولا شك أنّ هذه التزكية النبوية لأبي موسى رضي الله عنه فيها التنبيه الكافي لأصحابه أنه عليه الصلاة والسلام يحبّ قراءة أبي موسى ويتأثّر بها، وما كان يحبه النبي يحبه أصحاب النبي رضوان الله تعالى عليهم. ولهذا؛ كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول لأبي موسى وهو جالس في المجلس: «يا أبا موسى! ذكرنا ربنا» فيقرأ عنده أبو موسى رضي الله عنه وهو جالس في مجلسه ويتلاحن^(٢).

والتلاحن من اللحن، وهو التطريب وترجيع الصوت ومدّه وتزيينه لتجميل القراءة والتغني بالقرآن.

وحين قدم أبو موسى رضي الله عنه الشام فنزل بعض الدور بدمشق، كان معاوية يخرج ليلاً يستمع قراءته^(٣).

❁ تحفيز النبي صلى الله عليه وسلم لابن حضير:

وكيف بالله ترى يا قارئ القرآن رجلاً صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا قرأ القرآن انتشى لقراءته الصالحون من أهل الأرض ومن

(١) أخرجه ابن حبان برقم ٧١٩٧، وقال الأرنؤوط (١٦/ ١٧٠): إسناده على شرط مسلم.

والبزار برقم ٣١٦٠، والنسائي برقم ٨٠٠٤، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٤٨٩٥.

(٢) مستخرج أبي عوانة، ج ٤ ص ٤٦٤، وصحيح ابن حبان، ج ١٦ ص ١٦٩. وشرح

السنة للبغوي ج ٤ ص ٤٩٢.

(٣) مستخرج أبي عوانة، ج ٤ ص ٤٧٧، برقم ٣١٦٢.

أهل السماء؟!..مما يدلّ على أثر تحسين القراءة وجمال التلاوة في القلوب والعقول والنفوس..

فانظروا إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسيد بن حضير رضي الله عنه وكيف كانت الملائكة تحبّ قراءته وتتدافع إليه وتدنو منه لحسن تلاوته وجمال ترتيله لآيات القرآن.

ففي صحيح مسلم أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه حدّث أن أسيد بن حضير رضي الله عنه بينما هو ليلةً يقرأ في مربده؛ إذ جالت فرسه، فقرأ ثم جالت أخرى، فقرأ ثم جالت أيضاً، قال أسيد: « فخشيت أن تطأ يحيى فقمّت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها. قال رضي الله عنه: فغدوتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله! بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأ ابن حضير). قال: فقرأت، ثم جالت أيضاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأ ابن حضير). قال: فقرأت، ثم جالت أيضاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأ ابن حضير).

قال أسيد رضي الله عنه: «فانصرفت. وكان يحيى "ابنه" قريباً منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تلك الملائكة كانت

تستمع لك، ولو قرأت؛ لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم^(١).

فترى النبي صلى الله عليه وسلم يكرر على أسيده ويحثه أن يقرأ «اقرأ ابن حضير! اقرأ ابن حضير! اقرأ ابن حضير» تأكيداً على أن القراءة الحسنة مطلوبة ومحبوبة ومرغوبة في الملاء الأعلى، ويكفي أسيده من الفضل والمكانة أن وهبه الله قراءة لكلامه وتلاوة لكتابه ينجذب لها أهل السماء من الملائكة حتى تنزل وتدنو منه.

وهذا ما يؤكد أثر التغني بالقرآن وتزيين الصوت به وتحسين تلاوته وقراءته في التعلق بالقرآن والتدبر لمعانيه والتفهم لمراد منزله جل وعلا.

❖ محققات التغني بالقرآن:

ولابد أن يجتهد القارئ في تحسين صوته في قراءته القرآن ويتعنى في التغني به ما استطاع، وفي سنن البيهقي قال عبد الجبار بن ورد لابن أبي مليكة رحمهما الله لـمّا روى حديث أبي لبابة (ليس منا من لم يتغن بالقرآن): يا أبا محمد! رأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ فقال ابن أبي مليكة رحمه الله: «يحسنه ما استطاع»^(٢).

والتغني بالقرآن الموعين على التدبر والتفهم لآياته يتحقق بسبعة أمور:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٨٩٥.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، برقم ٢١٥٨١، ج ١٠ ص ٢٣٠.

الأمر الأول: تحسين الصوت وتزيينه، لحديث (زينوا القرآن بأصواتكم) وحديث (فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً) .. وحديث (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به)^(١). قال النووي رحمه الله: قال القاضي: « أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها »^(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: « والذي يتحصّل من الأدلة أن حسن الصوت مطلوب، فإن لم يكن حسناً فليحسنه ما استطاع، كما قال ابن أبي مليكة أحد رواة الحديث، وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح، ومن جملة تحسينه أن يراعى فيه قوانين النغم، فإن الحسن الصوت يزداد حسناً بذلك، وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه، وغير الحسن ربما انجر بمراعاتها، ما لم يخرج عن شرط الأداء المعبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يفّ تحسين الصوت بقبح الأداء »^(٣).

وكما قال المناوي رحمه الله: « وفي أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء؛ بعث للقلوب على استماعه وتدبره والإصغاء إليه »^(٤).

(١) هذه الأحاديث كلها مرت وسبق تخريجها.

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم، ج ٦ ص ٨٠.

(٣) انظر: فتح الباري للحافظ ابن حجر، ج ٩ ص ٦٨ - ٧٢.

(٤) فيض القدير للمناوي، ج ٤ ص ٩٠، في شرح الحديث رقم ٥٧٧ (زينوا أصواتكم بالقرآن).

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يأتون الرجل الحسن الصوت بالقرآن في منزله فيستخرجونه فيقرأ لهم القرآن، كما قال الأوزاعي رحمه الله تعالى^(١).

وعن أبي مشجعة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم الشاب الحسن الصوت لحسن صوته بين يدي المهاجرين والأنصار^(٢).

وكذلك كان التابعون رحمهم الله تعالى، فقد روي أن الحسن البصري رحمه الله كان يأتيه رجلٌ حسن الصوت بالقرآن فيستقرؤه الحسن^(٣).

وكذلك كان تابعو التابعين رحمهم الله، قال أبو سعد البقال رحمه الله: «كنت أذهب أنا وعبد الرحمن بن الأسود نتبع حسن الصوت بالقرآن في المساجد في شهر رمضان»^(٤).

وهذا عادة كثيرٍ من المصلّين في رمضان، يهاجرون يتبعون حسن الصوت بالقرآن في المساجد في صلاة التراويح والتهجد. وهي عادة حسنة إذ في ذلك جملة من المنافع الشرعية، منها: أنه يظمن قلبه إلى صلاته،

(١) مستخرج أبي عوانة، ج ٤ ص ٤٨٠، خبر رقم ٣١٧٧.

(٢) مستخرج أبي عوانة، ج ٢ ص ٤٨٤، برقم ٣٩٢٦.

(٣) تهذيب الآثار للطبري، ج ٣ ص ١٥٨، رقم ٩١٨.

(٤) الإشراف في منازل الأشراف، لابن أبي الدنيا، ص ١٦٦، برقم ١٢٩.

ويحقق التدبر للقرآن المتلو بالصوت الندي الخاشع، وفيه سعي للأفضل والأحب من طول القيام وغيره، وفيه طلب الخشوع والتوسل لحضور القلب، وكلها من مطلوبات الذين في صلاتهم خاشعون، ما لم يتخذ ذلك مراعاة^(١).

وأكد هذه العادة عند السلف الصالحين رضوان الله عليهم وأنهم كانوا يطلبون أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة وهم يستمعون؛ النوي رحمه الله، وقد قال: «اعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا وهم يستمعون وهذا متفق على استحبابه وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين وهي سنة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد صح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ عليّ القرآن. فقلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (إني أحب أن أسمع من غيري) فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً [النساء: ٤١] قال: (حسبك الآن) فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. رواه البخاري ومسلم وروى الدارمي وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب

(١) ويراجع: سؤالات الصائمين، للمؤلف، ص ٣٩٣، والجواب الصحيح من أحكام

صلاة الليل والتراويح، للإمام عبد العزيز بن باز، ص ٩ - ١٠.

رضي الله عنه أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري ذكرنا ربنا فيقرأ عنده القرآن والآثار في هذا كثيرة معروفة»^(١).

الأمر الثاني: التلحين والتطريب والترنم: ولذلك كان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى رضي الله عنهما وهو جالس في المجلس: «يا أبا موسى! ذكرنا ربنا» فكان أبو موسى يقرأ عنده وهو جالس في مجلسه ويتلاحن^(٢).

وفي تأثير التلحين والتطريب والترنم على قلوب القارئ أو المستمعين يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القرآن بالترنم أكثر من ميلها لمن لم يترنم، لأنَّ للتطريب تأثيراً في رقة القلب وإجراء الدمع..»^(٣).

والواجب أن تكون القراءة بالتلحين مما لا تجعل تلاوة القرآن كالغناء المذموم المكروه للشرع وأهله. فلا يُخرج القارئ من خشوعه ووقاره، ولا من رفته وخشيته، فإن كان كذلك فهو التلحين المحمود. وهذا المعنى هو الذي جعل العلماء يختلفون في القراءة بالألحان.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) مستخرج أبي عوانة ج ٤ ص ٤٦٤، وصحيح ابن حبان، ج ١٦ ص ١٦٩. وشرح السنة للبغوي ج ٤ ص ٤٩٢.

(٣) فتح البراي لابن حجر، ج ٩ ص ٦٨.

قال النووي رحمه الله: « واختلفوا في القراءة بالألحان فكرهها مالك والجمهور لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم، وأباحها أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث، ولأن ذلك سبب للركة وإثارة الخشية وإقبال النفوس على استماعه. قلت: قال الشافعي في موضع: أكره القراءة بالألحان، وقال في موضع: لا أكرهها. قال أصحابنا: ليس له فيها خلاف، وإنما هو اختلاف حالين، فحيث كرهها أراد إذا مطط وأخرج الكلام عن موضعه بزيادة أو نقص أو مد غير ممدود وإدغام ما لا يجوز ونحو ذلك، وحيث أباحها أراد إذا لم يكن فيها تغير لموضوع الكلام. والله أعلم^(١).

فَبَانَ سبب الاختلاف،...!!

فإنَّ اللحن إذا لم يُخرج كلام الله عن موضوعه بزيادة أو نقص، ولم يُخرج القراءة عن قواعدها بمدٍّ غير الممدود وإدغام غير المدغوم ونحو ذلك، ولم يُخرج القارئ عن وقاره وخشوعه، فهذا التلحين محمود مرغوب فيه بلا خلاف، لأنه سبب للتعلق بالقرآن ومستدعٍ للركة والخشية والخشوع والتفهم، وهذا مقصود التلاوة الأعظم.

ولهذا قال أبو بكر الكلاباذي رحمه الله يضبط التلحين وحسن الصوت بالقرآن: «قوله صلى الله عليه وسلم: حسن الصوت يتغنّى بالقرآن

(١) شرح النووي لصحيح مسلم، ج ٣ ص ١٤٧.

يريد به إن شاء الله قراءته على خشيته من الله عز وجل وخشوع في نفسه ورقة من فؤاده، وهي قراءة الأنبياء عليهم السلام وأفاضل الأولياء، ليس ترجيع الصوت والإلحان، وتحريك الحنك، كفعل من يتلهى بكلام المحدث الذي يريد به إثارة الشهوات الخفية بقلوب لاهية، وأفئدة ساهية تتزين للناس، ولا يطرد الخناس، ويزيد في الوسواس، فمن رزق حسن النعمة، وخشية القلب، ورقة الفؤاد فقرأ القرآن مترسلاً له مرتلاً حق حروفه، فذلك الكامل الذي أوتي مزامراً من مزامير آل داود» اهـ^(١).

ومثل هذا ما نقله المناوي عن التوربشتي رحمهما الله أنه قال: « قال التوربشتي : هذا إذا لم يخرجه التغني عن التجويد، ولم يصرفه عن مراعاة النظم في الكلمات والحروف، فإن انتهى إلى ذلك؛ عاد الاستحباب كراهةً، وأما ما أحدثه المتكلفون بمعرفة الأوزان والموسيقى، فيأخذون في كلام الله مأخذهم في التشبيب والغزل؛ فإنه من أسوأ البدع، فيجب على السامع النكير، وعلى التالي التعزير»^(٢).

الأمر الثالث: الجهر بالقراءة، لحديث (ما أذن الله لشيءٍ كأذنه لنبى يتغنّى بالقرآن يجهر به). فوصف كمال التغني وتحققه بالجهر بالقرآن. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بالقرآن، وقد قالت أم هانئ

(١) بحر الفوائد المشهور ب (معاني الأخبار) لأبي بكر الكلاباذي، ص ٢١١.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، ج ٤ ص ٩٠.

رضي الله عنها: «كنت أسمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا على عريشي»^(١). وسأل كريب ابن عباس رضي الله عنهما عن جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالقراءة بالليل، فقال: «كان يقرأ في حجرته، فيسمع قراءته من كان خارجاً»^(٢).

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد ابتنى مسجداً بفناء داره في مكة، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبنائهم، وهم يتعجبون منه وينظرون إليه، وكان رجلاً بكاءً لا يملك دموعه إذا قرأ القرآن^(٣). دلالة على جهره بالقرآن مع جمال القراءة.

الأمر الرابع: تحقيق التجويد في القراءة بإعطاء الحروف حقها ومستحقها في المخارج والصفات، ومراعاة أحكام الوقف والابتداء، وحركات المدود وغيرها. وقد سأل قتادة أنس بن مالك رضي الله عنه عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «كان يمدّ صوته مدّاً»^(٤). وسئل

(١) أخرجه النسائي برقم ١٠١٣، وابن ماجه برقم ١٣٤٩، وأحمد برقم ٢٦٩٥٠، وحسن الألباني إسناده النسائي (١٧٨/٢)، وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده أحمد في المسند (٣٤٣/٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم ١٩٤٤.

(٣) التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي، ص ١٨٨.

(٤) أخرجه البخاري من غير: (صوته) برقم ٥٠٤٥. وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، لأبي الشيخ الأصبهاني، برقم ٥٢٧. واللفظ له.

رضي الله عنه: كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم؟. فقال: «كانت مدّاً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم»^(١). وعن موسى بن يزيد الكندي قال: كان ابن مسعود رضي الله عنه يُقرئ رجلاً، فقرأ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] مرسلة، فقال ابن مسعود: «ما هكذا أقرأنيها النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: وكيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن؟ قال: أقرأنيها ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ فمدّها»^(٢).

الأمر الخامس: الترجيع، كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم في قراءته.

فعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو على ناقته، أو جملةً وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح، أو من سورة الفتح، قراءةً لينةً يقرأ وهو يرجع»^(٣). قال معاوية بن قرّة: فقرأ ابن مغفل ورجع، قال أبو إياس: لولا إني أخشى أن يجتمع الناس عليّ لرجعت كما رجّع ابن مغفل يحكي النبي صلى الله عليه وسلم، قال شعبة:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٠٤٦.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم ٨٥٩٦، وسعيد بن منصور في سننه، برقم

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٠٤٧.

فقلت لمعاوية بن قرة: كيف كان ترجيعه؟ قال: آآ آآ آآ^(١). وفي البخاري:
فقلت لمعاوية: كيف كان ترجيعه؟ قال: آآ آثلاث مرات^(٢).

قال القرطبي رحمه الله: «ذلك محمولٌ على إشباع المدِّ في موضعه...». واشترط القرطبي شرطاً مهماً في صحّة هذا الترجيع وجوازه: «ما لم يُبهم معنى القرآن بتريد الأصوات، وكثرة الترجيّعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه؛ فذلك حرامٌ باتفاق»^(٣).

الأمر السادس: القراءة بالتحزين، كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

فعن عبد الرحمن بن السائب، قال: «قدم علينا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقد كُفَّ بصره، فسَلَّمْتُ عليه، فقال: من أنت؟ فأخبرته، فقال: «مرحباً بابن أخي، بلغني أنّك حسن الصوت بالقرآن، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنّوا به فمن لم يتغنّ به فليس منا)»^(٤).

(١) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٥٦، حديث رقم ٢٠٥٨٤، وأبو عوانة في مستخرجه برقم

٣١٣٧، قال شعيب الأرنؤوط عن إسناد أحمد: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

(٢) صحيح البخاري، برقم ٧٥٤٠، ج ٩ ص ١٩٢.

(٣) التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٤) أخرجه ابن ماجة في سننه برقم ١٣٣٧، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢١٥٨٩ وفي

شعب الإيمان برقم ١٩٦٠.

قال أبو عبيد رحمه الله: «والأحاديث الواردة في ذلك "أي في تحسين الصوت" محمولة على التحزين والتشويق»^(١).

الأمر السابع: استشعار الخشية وتمثيلها، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم حسن القراءة والتغني به بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام كما في حديث جابر رضي الله عنه: (إنَّ من أحسن الناس صوتاً بالقرآن؛ الذي إذا سمعتموه يقرأ؛ حسبتموه يخشى الله). وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: من أحسن الناس صوتاً بالقرآن؟ قال: (من إذا سمعت قراءته رأيت أنه يخشى الله عز وجل)^(٢).

❖ أهل التغني بالقرآن من السلف:

وقد اشتهر وعُرف جماعة من السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الصوت وجمال القراءة، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وهو المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام: (ما أذن الله

(١) شرح النووي لصحيح مسلم، ج ٦ ص ٨٠.

(٢) أخرجه ابن ماجة برقم ١٣٣٧، والطبراني في المعجم الكبير، برقم ٣٤٢، والبخاري برقم

٦١٣٦، وسعيد بن منصور في سننه برقم ٤٧، والبيهقي في شعب الإيمان برقم

١٩٥٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٥٨٣، وفي صحيح الجامع

برقم ١٩٤.

لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به^(١). وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ما بعث الله نبياً قط إلا صيحه الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، وإن نبيكم صلى الله عليه وسلم كان صيحه الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت»^(٢). وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما بعث الله نبياً قط إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وإن نبيكم صلى الله عليه وسلم كان حسن الوجه، حسن الصوت، غير أنه كان لا يرجع»^(٣). وقد قال البراء بن عازب رضي الله عنه صلى الله عليه وسلم وعن قراءته وحسن صوته: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] في العشاء، وما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه، أو قراءة»^(٤).

فَبَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرِفَ بِحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ
مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثَلَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، مِنْهُمْ:

١— أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَهُ بِأَنَّهُ: مَزْمَارٌ مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ. وَعَنْ أَبِي عَثْمَانَ النَّهْدِيِّ

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن الأعرابي في المعجم ج ٥ ص ١٩٧، برقم ٢١٨٩.

(٣) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في أخبار أصبهان، ج ٢ ص ٢٨٢، برقم ٥٣٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٧٦٩، وبرقم ٧٥٤٦، ومسلم برقم ١٠٦٧. وأحمد

في المسند برقم ١٨٧٠٣، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٣١٩٠.

قال: «صليت خلف أبي موسى الأشعري فما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا ناي أحسن من صوته»^(١).

٢- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم قراءته بالرطب والغص فقال: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يقرأ القرآن رطباً كما أنزل؛ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد). وفي رواية: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)^(٢). وقد قال ولده أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن أحوال أبيه: « كان يمكث بعد حتى يصلي العشاء، التي تسمون العتمة، ويقرأ فيها بخواتم آل عمران ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى خاتمتها، وبخواتم سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ إلى خاتمتها، في ترسل وحسن صوت بالقرآن، وكان يقول: «إن حسن الصوت بالقرآن زينة له»^(٣).

٣- أسيد بن حضير رضي الله عنه، وقد قال عنه كعب بن مالك رضي الله عنه: «كان أسيد بن حضير حسن الصوت بالقرآن»^(٤). وقد رأينا كيف

(١) أخرجه أبو عوانة في المستخرج برقم ٣٩١٩ ج ٢ ص ٤٨٣.

(٢) أخرج الخبر الأول أحمد في المسند برقم ١٧٥، وصححه الأرنؤوط (٢٥/١)،

وأخرج الحديث الثاني ابن ماجه في سننه برقم ١٣٨ وأحمد في مسنده برقم ٣٥

وحسن الأرنؤوط إسناده أحمد (٧/١) وبرقم ٢٦٥ وصححه الأرنؤوط (٣٨/١).

(٣) الطبراني في المعجم الكبير ج ٨ ص ٣٨٠، برقم ٩٨٠٠.

(٤) أخرجه البزار في مسنده برقم ٣٢٠٩.

أنَّ قراءته الحسنه المشوَّقة جذبت الملائكة فتدلوا عليه من السماء كالظِّلَّة فيها أمثال الشُّرج عرجت في الجو - كما في صحيح مسلم.

٤- أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه وقد كان أقرأ الصحابة رضوان الله عليهم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرئه وأن يقرأ عليه كما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُبَيِّ رضي الله عنه: (إِنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن) قال أُبَيِّ: «الله سمَّاني لك؟!» قال: (الله سمَّاك لي) فجعل أُبَيِّ يبكي. قال قتادة فأنبت أنه قرأ عليه ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: ١] ^(١).

وقد اختاره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إماماً للرجال في صلاة التراويح رضوان الله عليهم.

٥- سليمان بن أبي حثمة رضي الله عنه وقد اختاره عمر بن الخطاب إماماً للتراويح مع أُبَيِّ، أُبيّاً لإمامة الرجال، وسليماناً لإمامة النساء ^(٢)، وهو مختلف فيه هل له صحبة أم هو من التابعين ^(٣).

ومن التابعين وتابعيهم بإحسان رحمهم الله تعالى وتابعيهم عددٌ كريم، منهم:

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٩٦٠. ومسلم برقم ١٩٠٠

(٢) انظر السنن الكبرى للبيهقي برقم ٤٧٨٨، وبرقم ٤٣٨٠.

(٣) راجع في ذلك: الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر، ج ٣ ص ٢٤٢.

١— علقمة بن قيس رحمه الله: وقد قال يُخبر عن نفسه: «كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، فكان ابن مسعود رضي الله عنه يُرسل إليّ، فأقرأ عليه القرآن، فكنت إذا فرغت من قراءتي، قال: «زدنا من هذا فذاك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (حسن الصوت زينة القرآن)»^(١).

٢— المنهال بن عمرو رحمه الله، وقد قال مغيرة بن مقسم رحمه الله: «كان المنهال بن عمرو حسن الصوت، وكان له لحن يقال له: وزن سبعة»^(٢).

٣— أبو عوانة الوضاح بن عبد الله الواسطي وكان من أركان الحديث، وقد قال مهدي بن ميمون الحافظ الثقة رحمه الله: «رأيت أبا عوانة في زمن خالد بن عبد الله القصري وهو يقرأ بهذه الأصوات يعني الألحان»^(٣).

٤— خليل بن سعد رحمه الله: كان رجلاً قارئاً حسن الصوت، وكانوا يجتمعون في بيت أم الدرداء رضي الله عنها، فتأمره أم الدرداء أن يقرأ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٨ ص ٤١٠ - ٤١١، برقم ٩٨٨١. والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢٥٣٠، ج ٢ ص ٥٤، وسعيد بن منصور في السنن برقم ٥٤ ج ١ ص ٢٢٥، وابن سعد في الطبقات ج ٦ ص ٩٠، وابن نصر المروزي في قيام الليل ص ٥٨.

(٢) مستخرج أبي عوانة، ج ٤ ص ٤٨٠، برقم ٣١٧٦.

(٣) مسند أبي عوانة، ج ٢ ص ٤٨٣.

عليهم»^(١).

٥- بُشْرَةُ مَوْلَاةِ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْهَذَلِيِّ الْإِمَامِ الْعَابِدِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى،
فَعَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «كَانَ لِعَوْنٍ جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا: بُشْرَةُ، تَقْرَأُ
بِالْحَانِ، فَقَالَ لَهَا يَوْمًا: اقْرَأِي عَلَيَّ إِخْوَانِي. فَكَانَتْ تَقْرَأُ بِصَوْتٍ وَجِيعٍ
حَزِينٍ، فَرَأَيْتُهُمْ يُلْقُونَ الْعَمَائِمَ، وَيَكُونُونَ. فَقَالَ لَهَا يَوْمًا: «يَا بُشْرَةُ! قَدْ
أُعْطِيتُ بِكَ أَلْفَ دِينَارٍ لِحُسْنِ صَوْتِكَ، أَذْهَبِي، فَأَنْتِ حُرَّةٌ لَوْجِهَةِ اللَّهِ»^(٢).

٦- عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، ويروي عبد الرزاق عن معمر
رحمهما الله، أنه قال: «كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله حسن الصوت،
فخرج ليلةً يصلي في المسجد، فجهر بصوته، فاجتمع الناس، فأرسل إليه
سعيد بن المسيب رحمه الله: فتنن الناس. فلم يعد لذلك»^(٣).

٧- عرفة الثقفى رحمه الله، وقد جعله علي بن أبي طالب رضي الله
عنه في عهده إماماً للنساء في صلاة التراويح^(٤).

(١) مسند أبي عوانة، ج ٢ ص ٤٨٤، برقم ٣٩٢٥.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ٥ ص ١٠٥، ومسند أبي عوانة ج ٢ ص ٤٨٣، برقم
٣٩٢١، ٣٩٢٠، ٣٩٢٢.

(٣) مصنف عبد الرزاق، ج ٢ ص ٤٨٤، برقم ٤١٧٤.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي برقم ٤٧٨٩، وشعب الإيمان برقم ٣٠٠٣، ومصنف عبد
الرزاق برقم ٧٧٢٢.

٨- عبد الرحمن بن السائب رحمه الله: وقد قال: «قدم علينا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقد كُفَّ بصره، فسلمت عليه، فقال: من أنت؟ فأخبرته، فقال: (مرحباً بابن أخي، بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّ هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به أفمن لم يتغن به فليس منا)»^(١).

٩- محمد بن عبد الله بن مصعب أبو عبيد الله رحمه الله، كان من كبار القراء يؤم في الجامع في رمضان، حسن الصوت بالقرآن، كتب عن ابن أبي عمر، وعبد الجبار، والعابدي، توفي سنة إحدى وتسعين^(٢).

١٠- عتبة الغلام بن أبان البصري رحمه الله: وروى ابن أبي الدنيا بسنده إلى عبد الواحد بن سلمة الفراء أنه قال: «كان عتبة الغلام إذا قام للتهجد أبكى من سمعه، وكان حسن الصوت محزوناً، وكان يجهر بقراءته»^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم ١٣٣٧، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢١٥٨٩، وفي شعب الإيثار برقم ١٩٦٠، وأبو يعلى في مسنده برقم ٦٨٩، ومسنده الشاشي برقم ١٨٤، وسكت عنه المنذري في الترغيب ج ٢ ص ٢٣٧ برقم ٢٢٣٤، ولكن في إسناد الجميع أبو رافع إسماعيل بن رافع متفق على ضعفه.

(٢) أخبار أصبهان، ج ٩ ص ١٥٧.

(٣) التهجد وقيام الليل، لابن أبي الدنيا، ص ٣٣٤ - ٣٣٥، برقم ٢٧٣.

١١ — طلق بن حبيب العنزي رحمه الله، قال عنه الذهبي رحمه الله: «كَانَ طَيِّبَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ، بَرًّا بِوَالِدَيْهِ. رُوِيَ عَنْ طَاوُوسٍ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ، وَكَانَ مِمَّنْ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى»^(١).

وعن طاووس رحمه الله قال: «سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الناس أحسن صوتًا للقرآن وأحسن قراءة؟ قال: (من إذا سمعته يقرأ أريت أنه يخشى الله) قال طاووس: «وكان طلق كذلك»^(٢).

١٢ - صالح المري، أبو بشر بن بشير القاص رحمه الله:

قال عنه عفان: كان شديد الخوف من الله، كأنه ثكلى إذا قصّ. وقال ابن عدي: قاص، حسن الصوت.

وقال ابن الأعرابي: كان الغالب على صالح كثرة الذكر، والقراءة بالتحزين.

وقال الذهبي: «ويقال: هو أوّل من قرأ بالبصرة بالتحزين. ويقال: مات جماعة سمعوا قراءته»^(٣).

وقال أبو نعيم: «القاريء الدُّريّ والواعظ التقي، أبو بشر صالح بن بشير المري، صاحب قراءة، وشجن، ومخافة، وحزن، يحرك الأخيار

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج ٤ ص ٦٠١ ترجمة رقم ٢٣٩.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه برقم ٣٤٨٩ ج ٢ ص ٥٦٣.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ٨ ص ٤٧-٤٨، برقم ٩.

ويفرك الأشرار»^(١).

وفي تهذيب التهذيب: «كان من أحزن أهل البصرة صوتاً وأرقهم قراءة»^(٢)..

١٣ — الحارث بن ليبد رحمه الله: قال عمر بن نباتة: «ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه خرجت أنا وهو والحارث بن ليبد إلى الصفا، وكان الحارث تلميذ الصالح المرّي، فافتتح يقرأ، وكان حسن الصوت، فقرأ هذه الآية عليه ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه، واقشعر جلده، واضطرب اضطراباً شديداً، وخر مغشياً عليه، فلما أفاق جعل يقول: «أعوذ بك من مقام الكاذبين، وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين، وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهي! هب لي جودك، وجللني بسترك، واعف عن تقصيري بكرم وجهك»^(٣).

١٤ — يحيى بن وثاب الأسدي رحمه الله، الإمام القدوة المقرئ، الفقيه، شيخ القراء كما وصفه الذهبي رحمه الله. ومن أعاجيبه أنه رحمه الله تعلم القرآن وحفظه على عبيد بن نضيلة آية كل يوم يحفظ آية، لا

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ٦ ص ١٦٥.

(٢) تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ج ٤ ص ٣٣٥.

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ١ ص ٢٥.

يزيد.

وقال الأعمش رحمه الله: «كان يحيى بن وثاب من أحسن الناس قراءة، ربما اشتھت أن أقبل رأسه من حُسن قراءته، وكان إذا قرأ لا تسمع في المسجد حركة، كأن ليس في المسجد أحد». وكان رحمه الله يقول: «يحيى بن وثاب أقرأ من بال على تراب»، وقد لُقِّبَ "مقرئ الكوفة" كما في شذرات الذهب، بل لُقِّبَ "مقرئ العراق" كما في السير^(١).
وغيرهم من أخيار الأمة من أصحاب القرآن وقرّائه رحمة الله تعالى عليهم ..

وفي كل عصرٍ ومصرٍ إلى يومنا قراء مشاهير عُرفوا بحسن صوتهم، يقصد المسلمون إلى الاستماع لهم والاستمتاع بقراءتهم، بادين التأثير والانفعال.

❁ نصيحةٌ الآجري لأهل التغني بالقرآن:

وأبى الإمام الآجري رحمه الله إلا أن يقدم نصيحةً غاليةً من قلب محبٍ للقرآن وأهله، شفقة عليهم من الانحراف عن خلق القرآن ومقاصده العظمى، فقال لهم: «ينبغي لمن رزقه الله حسن الصوت بالقرآن أن يعلم أن الله قد خصه بخير عظيم فليعرف قدر ما خصه الله به،

(١) راجع: سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ٤ ص ٣٧٩ - ٣٨١، وج ٦ ص ٢٢٨، وشذرات

الذهب، ج ١ ص ١٢٥، والأعلام للزركلي، ج ٨ ص ١٧٦.

وليقرأ الله لا للمخلوقين وليحذر من الميل إلى أن يستمتع منه ليحظى به عند السامعين رغبة في الدنيا والميل إلى حسن الثناء والجاه عند أبناء الدنيا، والصلاة بالملوك دون الصلاة بعوام الناس فمن مالت نفسه إلى ما نهيته عنه خفته أن يكون حسن صوته فتنة عليه، وإنما ينفعه حسن صوته إذا خشي الله عز وجل في السر والعلانية وكان مراده أن يستمتع منه القرآن؛ ليتنبه أهل الغفلة عن غفلتهم، فيرغبوا فيما رغبهم الله عز وجل وينتهوا عما نهاهم، فمن كانت هذه صفته انتفع بحسن صوته، وانتفع به الناس^(١).

❖ مفسدات التغني بالقرآن:

بعد أن عرفنا كيف نحقق التغني بالمحمود بالقرآن الذي يعين القارئ بطريقته على التفهم لمعانيه والتدبر لآياته؛ نستكمل ذلك في آخر الكلام على التغني بما يعكّر جودة التغني بالقرآن ويفسد إحسان القراءة والتلاوة لكلام الله عز وجل.

وقد نقل السيوطي رحمه الله عن السخاوي في "جمال القرآن" جملةً من هذه المفسدات للقراءة الحسنة المتدبرة للقرآن، نضبط بها إحسان التغني بالقرآن، ونميز بها ما يحقق التغني المشروع بالمحمود عن التغني المكروه، وقد سماها السيوطي "القراءة المبتدعة"، وقال السخاوي: «قد ابتدع الناس في قراءة القرآن أصوات الغناء».

(١) أخلاق حملة القرآن، لمحمد بن الحسين الآجري، ص ٧٩.

وعليه؛ فإنَّ من مفسدات التغني بالقرآن على الوجه المحمود
المحسوب في الشرع^(١):

١- الترعيد: وهو أن يرعد صوته كالذي يرعد من بردٍ أو ألم.

٢- الترقيص: وهو أن يروم السكون على الساكن، ثم ينفر مع الحركة،
كأنه في عدو أو هرولة.

٣- التطريب: وهو أن يترنم بالقرآن ويتنغم به، فيمدّ في غير مواضع
المدّ، ويزيد في المدّ على ما لا ينبغي، قال القرطبي رحمه الله في هذا
التطريب الممنوع: «فيه همز ما ليس بهموز، ومدّ ما ليس بممدود،
وترجيع الألف الواحدة ألفات، والشبهة الواحدة شبّهات، فيؤدي ذلك
إلى زيادة في القرآن، وذلك ممنوعٌ، وإن وافق ذلك موضع نبرٍ صيروها
نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف، إنما هي همزة واحدة
لا غير، إما ممدودة وإما مقصورة»^(٢). اهـ

٤- التحزين: وهو أن يأتي على وجهٍ حزينٍ يكاد يبكي مع خشوع
وخضوع، مع شيء من التمثيل والمبالغة الظاهرة التي تُخرج القراءة عن

(١) راجع بتوسع: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي، ج ١ ص ٢٨٢، عن السخاوي في
جمال القراء.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ص ١٥٧، بتصرفٍ يسير.

حدّ المعقول المقبول^(١).

٥- التحريف: وهو أن يقرأ جماعة القرآن بصوت واحد، فيحذفون ما لا يُحذف، ويمدون ما لا يُمدّد. كما وصفه السخاوي رحمه الله فقال: « ومن ذلك نوع أحدثه هؤلاء الذين يجتمعون فيقرؤون كلهم بصوت واحد فيقولون في قوله تعالى أفلأ تعقلون أفل تعقلون بحذف الألف وقال آمنا بحذف الواو ويمدون ما لا يمد ليستقيم لهم الطريق التي سلكوها وينبغي أن يسمى التحريف اهـ^(٢) ».

٦- التمطيط: وهو أن يزيد بتمديد الصوت حرفاً أو ينقص حرفاً، قال ابن كثير رحمه الله: « فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش، الذي يزيد بسببه حرفاً أو ينقص حرفاً، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم^(٣) ». ووصفه في غذاء الألباب بالتمطيط المتكلف فقال: « التمطيط المتكلف المشتمل على التعسف والتشدّق وتلوق الفم مكروه وإن لم يتولّد منه حروف، لإخراج القراءة عن العادة المستمرة والقانون العربي، إلى التعوّج والتشدّق، وقد قال تعالى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] ومتى

(١) فهذا التحزين على خلاف ما أباحه الشرع وأجازته العلماء فيما رأينا في محققات التغني وقرّناه هناك.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير، ص ١٩٨.

خلت عن هذه الصفات فلا كراهة، والله أعلم بالصواب»^(١).

والضابط في التغني المحمود من المكروه؛ ما رُوِيَ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتابين، وأهل الفسق، فإنه سيجيء بعدي قومٌ يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم)^(٢).

وعلى هذا؛ فالقراءة المكروه غير المشروعة:

✓ القراءة بلحون أهل الكتابين..

✓ والقراءة بلحون أهل الفسق..

✓ والقراءة بترجيع الغناء..

(١) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للسفاريني، ص ١٣٨.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم ٧٢٢٣، والبيهقي في شعب الإيثار، برقم ٢٤٠٦، وابن وضاح في البدع برقم ٢٥١، وأبو عبيد في فضائل القرآن برقم ١٩٥، وابن نصر المروزي في قيام الليل برقم ١٤٨، وابن كثير في فضائل القرآن ص ١٩٧. وفيه بقية بن الوليد، مدلس وعنعنه، فيضعف الخبر بسببه، ولكن يستأنس به في الترهيب، وقد قال ابن كثير رحمه الله في فضائل القرآن (ص ١٩٨) بعد أن أورده وغيره من الروايات في هذا الباب فقال: "وهذه طرق حسنة في باب الترهيب".

✓ والقراءة بترجيع الرهبانية..

✓ والقراءة على طريقة النوح..

✓ والقراءة على الأوضاع الملهية والقانون الموسيقي..

✓ والقراءة على النغمات المحدثه المركبة على الأوزان الغنائية..

لأنَّ الغرض كما يقول ابن كثير رحمه الله: « أنَّ المطلوب شرعاً، إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبُّر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة. فأما الأصوات بالنغمات المحدثه، المركبة على الأوزان، والأوضاع الملهية والقانون الموسيقي، فالقرآن يُنزَّه عن هذا، ويجلَّ ويعظَّم أن يسلك في أدائه هذا المذهب»^(١).



(١) فضائل القرآن، لابن كثير، ص ١٩٥.

المُعِين الثالث

التَّرتِيل

❖ حقيقة الترتيل ومفهومه:

الترتيل أصله في اللغة من رتل يرتل ترتيلاً، ومصدره الرتل والرتل، وهو كل شيء طيب مستحسن، ومنه: ثغر مرتل: مفلج مستوى النبتة حسن التنضيد. ورتل الكلام: إذا كان نزر الكلام حسناً ليس بعجول ولا نزق. والرتل محرّكة: حسن تناسق الشيء وانتظامه على استقامة، وبياض الأسنان، والحسن من الكلام، والطيب من كل شيء. ورتل الكلام ترتيلاً: أحسن تأليفه. وترتل فيه: ترسل. والترتيل في القراءة: الترسُّل فيها والتبيين بغير بغي. ورتل القرآن ترتيلاً: إذا ترسَّس في تلاوته، وأحسن تأليف حروفه^(١).

وهذه الحقيقة الوضعية للترتيل هي التي أهلتها لتكون قراءة كلام الله بها أليق. لأنها الحسَن الطيب المتناسق المنتظم مع حسن التنضيد والتأليف للحروف صفةً ومخرجاً، على شيء من الترسُّل في القراءة، والتمهّل في الاطّلاع، والمكث المبرراً من العجلة والنزق في التلاوة، تعبداً

(١) راجع: المحكم والمحيط الأعظم، ج ٩ ص ٤٧٥، أساس البلاغة، ج ١ ص ١٥٩،

القاموس المحيط، ص ١٢٩٧، لمحكم والمحيط الأعظم، ج ٩ ص ٤٧٤ تاج العروس

ج ٢٩ ص ٣٢، الصحاح في اللغة، ج ١ ص ٢٤١.

وتفقهًا، ليؤدّي تحقيقًا إلى التبيين بغير بغي.

هذا والله هو الأليق بكتاب الله وبكلامه المقدس جل وعلا، ولذلك اختار الله عز وجل هذه اللفظة المباركة "الترتيل" لتكون سبيل أنبيائه وأهله وخاصته؛ في قراءة كلامه الحكيم وتلاوة كتابه الكريم.

والترتيل هو الترسل في القراءة والتمهّل في التلاوة على تؤدة واطمئنان تعبداً وتفهماً للقرآن.

والعلماء يجعلون الترتيل أوسط مراتب القراءة وأفضلها، ومراتب القراءة والتلاوة خمسة: الحدر، والتدوير، والترتيل، والتحقيق، والزمزمة^(١).

أما الحذر: فهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها، مع مراعاة أحكام التجويد من إظهار وإدغام وقصر ومد ووقف إلى آخره.

وأما التدوير: فهو التوسط بين التحقيق والحدر، وقيل بين الحدر والترتيل. وهو الذي ورد عن أكثر الأئمة ممن مد المنفصل ولم يبلغ فيه الإشباع.

(١) راجع بتوسع: الإتقان في علوم القرآن، ج ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨، نضرة النعيم في مكارم

أخلاق الرسول الكريم، ج ٤ ص ١١٧٧ - ١١٧٩، نهاية القول المفيد، ص ١٧،

إحكام الأحكام في تجويد القرآن، سيد جمعة سلام، ص ٣.

وأما الترتيل: وهو موضوعنا وما نبحت عنه، وهو أفضل المراتب كلها وأحسن الكيفيات جميعها مما يُقرأ بها القرآن، وهو الذي استحبه العلماء أكثر من غيره من طرق القراءة. بل سمّاه بلبل القرآن، المشهود له ممن أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم أنه يقرأ كما أنزل، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «زين القرآن». وقد قال علقمة رحمه الله: قرأتُ على عبد الله رضي الله عنه، فقال: «رتل فداك أبي وأمي، فإنه زين القرآن»^(١).

وهذه الثلاث من مراتب القراءة متفقٌ عليها بين أهل القراءة والتجويد، وزاد بعضهم التحقيق وزاد آخرون الزمزمة.

وأما التحقيق: وهو إعطاء كل حرفٍ حقه من إشباع الممدّ وتحقيق الهمز، وإتمام الحركات، واعتماد الإظهار والتشديدات، وبيان الحروف وتفكيكها، وإخراج بعضها من بعض، بالسكت والترتيل والتؤدة وملاحظة الجائز من الوقوف بلا قصر ولا اختلاس ولا إسكان محرّك ولا إدغامه.

ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى أن التحقيق نوعٌ من الترتيل.

والفرق بين التحقيق والترتيل من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن التحقيق يكون لرياضة الألسن وتقويم الألفاظ،

(١) مصنف ابن أبي شيبة، ج ٢ ص ٥٢٠، برقم ٨٨١٦.

والترتيل لا يكون للرياضة ولا للتقويم، بل لبيان الألفاظ ومعانيها.

والوجه الثاني: أنَّ التحقيق يؤخذ به على المتعلمين، بينما الترتيل يعمل به في التلاوة لا سيما العالمين بالقرآن الماهرين فيه.

والوجه الثالث: أنَّ التحقيق مقصوده وغايته ضبط القراءة وإعطاء الحروف حقها ومستحقها، بينما الترتيل مقصوده وغايته تحصيل التدبر وفهم معاني الكلام المقدس والخطاب الأعظم.

ولهذا قالوا: التحقيق للرياضة والتعليم والتمرين، والترتيل للتدبر والتفكير والاستنباط. وعليه: فكلُّ تحقيقٍ ترتيلٌ وليس كلُّ ترتيلٍ تحقيقاً. وأما الزمزمة: فهي القراءة في النفس خاصة.

❖ مقصود الترتيل:

قد تأكد أن الترتيل هو أفضل طرق القراءة وأحبَّ كیفياتها لأنه الكيفية التي يتحقق بها التدبر ويتحصّل عن طريقها التفهّم والتفكير في كتاب الله عز وجل ، الذي هو المقصود من إنزال الكتاب العزيز.

والترتيل حسن تأليف الكلام المقروء بأحسن ما يكون، وملاً الفم كلّهُ بأطيب هواء الحروف حتى يجاوز جوف الحلق فتلامس أنفاسها الدافئة شغاف القلوب فتعي وتندبر وتتعض وتعتبر وتُشفَى فترتقي في مدارج الارتباط بمطالب الدين ورغائب الجنان.

وإن كان الأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به؛ فما ذاك إلا لأجل مقصودٍ أعظم ومطلوبٍ أهم، هو تدبر معانيه.

وقد «قيل: والحكمة في الترتيل: التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ويستنير القلب بنور الله»^(١).

بل في الأمر بالترتيل أمرٌ بالوقوف على معاني القرآن وعجائبه، ولا يتحقق ذلك إلا بالتدبر والتفكير وإنعام النظر، قال الرازي رحمه الله عن معنى الترتيل في الآية: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ «معناه: قف على عجائبه ومعانيه»^(٢).

لذلك؛ كان الترتيل من أقوى المعينات على التدبر، ومن أقرب الطرق إلى فهم القرآن وآياته، وأوضح السبل للتفكير في معانيه ودلالاته، والحامل على التقاط درره وأسراره وحكمه ومقاصده، والممكن من جني غاياته ومراميها.

وقد نص كثير من أئمة العلم والدين على مقصود الترتيل، وأنه إنما أمر به وشُرع لتلاوة كتاب الله بطريقه؛ لتحصيل التدبر لآياته، ولتحقيق

(١) المجالس القرآنية في تدبر السور والآيات، د. عبد الملك القاسم، ص ٧٧٤.

(٢) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٣ ص ٢٥٩.

التفهم لخطابه وكلامه جلّ وعلا.

قال سلام بن مسكين: سمعت الحسن قرأ: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠] الآية، فقال: «سمع رجل من المهاجرين رجلاً يقرأها يعيدها، ويبيدها، فقال: أو ما سمعتم الله تعالى يقول: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]؟ هذا الترتيل».

وسئل الحكم بن عتيبة عن قول الله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ قال: «الترتيل: الترسل، قال: وكنت آتي عبد الله بن معقل بين المغرب والعشاء في المسجد الأعظم، فأقعد عنده، فأستمع كيف يقرأ القرآن، فلو أن رجلاً شاء أن يتعلم منه لتعلم».

وقال الشعبي رحمه الله: «إذا قرأت القرآن؛ فاقراه قراءة تسمع أذنك، ويفقه قلبك، فإن الأذن عدل بين اللسان والقلب»^(١).

وقال طاووس رحمه الله في الترتيل: «الترتيل تبينه حتى تفهمه، وفي رواية حتى تفقهه»^(٢).

فتبين أن حقيقة الترتيل التؤدة والترسل وترك العجلة في القراءة، وأن مقصود الترتيل هو تحصيل فقه ما رتلته وتدبر ما قرأته من كتاب الله

(١) راجعها في: الزهد، لابن المبارك، برقم ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ص ٤٢٢.

(٢) مصنف عبد الرزاق، ج ٢ ص ٤٩١ برقم ٤١٩٢، تفسير عبد الرزاق الصنعاني، ج ٢

ص ٣٢٠، برقم ١٦٤٠.

تعالى.

فالترتيل إِذْنُ طريق التدبّر، وتدبّر القرآن مقصود الترتيل.

وقد نقل النووي عن العلماء ذلك فقال: « قال العلماء : والترتيل مستحبٌ للتدبّر »^(١).

ونقل السيوطي عنهم أنهم: « قالوا واستحباب الترتيل للتدبّر »^(٢).

وقال هو رحمه الله: « الترتيل يكون للتدبّر والتفكّر والاستنباط »^(٣).

وقد عرّف بعضهم الترتيل بأنه: « قراءة القرآن الكريم بِتُؤَدَّةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ مع تدبّر المعاني ومراعاة أحكام التجويد »^(٤).

وفي مفاتيح تدبّر القرآن: « الترتيل والترسل في القراءة، وعدم العجلة، إِذ المقصود هو الفهم وليس الكم »^(٥).

وقال بعضهم: « الترتيل مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها؛ لأن المقصود هو تفهّم القرآن وتدبّره، والفقه فيه والعمل به، وهذا لا يكُمّل إلاّ مع الترتيل وتدبّر القرآن، هذا إضافة إلى كون الترتيل هو هدي

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ١٨.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج ١ ص ٢٨٣.

(٣) الإتقان نفسه ج ١ ص ٢٦٦.

(٤) انظر: إحكام الأحكام في تجويد القرآن، ص ٣، غاية المريد في علم التجويد، ص ١٩،

(٥) مفاتيح تدبر القرآن، ص ٧.

النبي صلى الله عليه وسلم، وخير الهدى هديه، وهو القدوة والأسوة»^(١).

وفي الموسوعة القرآنية: «استحباب الترتيل للتدبر، لأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيراً في القلب»^(٢).

وفي إحياء علوم الدين: «الترتيل هو المستحب في هيئة القرآن، لأننا سنين أن المقصود من القراءة التفكير والترتيل مُعينٌ عليه».

ونص الغزالي فيه على مقصود الترتيل فقال: «والمقصود من القراءة التدبر ولذلك سن لأن الترتيل فيه الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن»^(٣).

وقال الحافظ ابن حجر: «يراد بترتيل القرآن تلاوته تلاوةً تبين حروفها ويتأنى في أدائها ليكون ذلك أدنى إلى فهم المعاني»^(٤). وكان يقول: «من رتل وتأمل كمن تصدق بجوهرة واحدة ثمينة، ومن أسرع كمن تصدق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات»^(٥). قلت: كأنه يتأول قول الله تعالى:

(١) علوم القرآن عند ابن عبد البر، ص ٣٩٠.

(٢) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الإبياري، ج ١ ص ٥١٢.

(٣) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٢٧٧، ٢٨٢.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، ج ٨ ص ٧٠٧.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، ج ٩ ص ٨٩.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ٤].

ولقد قال ابن جزيّ في تفسيره: « الترتيل هو التمهّل والمدّ وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك مُعينٌ على التفكّر في معاني القرآن، بخلاف الهذر الذي لا يفقه صاحبه ما يقول، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطِّع قراءته حرفاً حرفاً، ولا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب، إلا وقف وتعوّذ»^(١).

وهذا شأن أكثر العلماء، استحَبوا الترتيل لأنه المُعين على تدبر كلام الله وفهم معانيه وقد قال القرطبي: « وأكثر العلماء يستحبون الترتيل في القراءة ليتدبّره القارئ ويفهم معانيه»^(٢).

وقال ابن الجزري: « والصّواب ما عليه معظم السّلف والخلف وهو أنّ التّرتيل والتّدوير مع قِلّة القراءة أفضل من السّرعة مع كثرتها؛ لأنّ المقصود من القرآن فهمه والتّدبّر فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى فهم معانيه»^(٣).

وبيّن الرازي أن فائدة الترتيل هي التدبر والفهم للقرآن فيقول:

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزري، ج ٤ ص ١٥٧.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ص ١٤٣.

(٣) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ج ٤ ص ١١٧٩، عن: نهاية القول المفيد، ص ١٧.

«الترتيل هو أن يذكر الحروف والكلمات مبينة ظاهرة، والفائدة فيه: أنه إذا وقعت القراءة على هذا الوجه؛ فهم من نفسه معاني تلك الألفاظ، وأفهم غيره تلك المعاني، وإذا قرأها بالسرعة؛ لم يفهم ولم يفهم، فكان الترتيل أولى»^(١). لأنه يؤدي إلى فهم معاني الآيات وإفهامها للناس.

وعند قوله جلّ ذكره ﴿لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] قال أبو العباس المهدوي رحمه الله: «فيها دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهدّ، إذ لا يصحّ التدبّر مع الهدّ»^(٢). يريد أن يقول: لا يصحّ التدبّر مع الهدّ ولكن يصحّ مع الترتيل، فكان الترتيل سبيل التدبّر وطريقه.

وأوضح من ذلك تفسير ابن عطية للآية ﴿لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ﴾ حيث قال: «وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبّر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذن أفضل من الهدّ، إذ التدبّر لا يكون إلا مع الترتيل»^(٣).

فعلمنا بهذا كله أن الترتيل مقصوده التدبّر، وأنه سبيله والمُعِين عليه.

❖ دعوة القرآن إلى الترتيل:

ولتحقيق هذه الغاية العظمى من قراءة القرآن واستماعه؛ أمر رب العزة نبيه الكريم أن تكون قراءته للقرآن ترتيلاً، فقال جلّ وعلا: ﴿وَرَتِّلِ

(١) تفسير الرازي مفاتيح الغيب، ج ١ ص ٦٩.

(٢) التحصيل نفسه، ج ٥ ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٣) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٥ ص ٤٤٧.

الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿ [المزمل : ٤].

وهذا أمرٌ صريح من الله لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بأن يرتل القرآن ترتيلاً، والمعنى: اقرأه يا محمد بترسلٍ وتمهّلٍ وإحسانٍ وبيانٍ تقف مع عبره وعظاته، وتتفكّر في أسرارهِ وحكمه، وتنظر في آياته وتتمعّن في مطلوباته ومآلاته، فيحصل لك التدبّر المقصود من إنزاله.

ولم يخرج قول المفسرين عن ذلك.

قال ابن عطية في تفسيرها مبيناً معناه الوضعي ومقصده الشرعي: «معناه في اللغة: تمهّل وفرّق بين الحروف لتبيين. والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة. قال ابن كيسان: المراد تفهّمه تالياً له»^(١).

وقال ابن كثير فيها: «اقرأه على تمهّل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه»^(٢).

وقال القرطبي: «أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهلٍ وبيانٍ مع تدبّر المعاني». ونقل عن مجاهد أنه قال: «أحبّ الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه»^(٣).

(١) المحرر الوجيز، ج ٩ ص ٧٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٤٣٥. دار الأندلس.

(٣) تفسير القرطبي، ج ١٩ ص ٣٧.

قلت: كأن مجاهداً رحمه الله يريد أن يقول: إن معنى الآية: اقرأه بترتيل لتعقل عن الله خطابه. والله أعلم.

وقال الشوكاني: «أي: اقرأه على مهل مع تدبر.. وتأکید الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم، مع استيفاء حركته المعتبرة»^(١).

وقال السعدي وهو يبين مقصود الأمر بالترتيل ومردوده: «فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له»^(٢).

وقال النسفي: «﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾ بين وفصل.. أو اقرأ على تودة بتبيين الحروف وحفظ الوقوف وإشباع الحركات. ﴿تَرْتِيلاً﴾ هو تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه لا بد منه للقاريء»^(٣).

فتبين أن أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالترتيل مراده: الاستعانة به على التعقل عن الله، والتفهم لكلامه، والتدبر لآياته وسوره، والتفكر فيها، لتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، على وجه الإيجاب كما

(١) فتح القدير تفسير الشوكاني ج ٧ ص ٣٣٦.

(٢) تفسير السعدي، ص ٨٩٢.

(٣) تفسير النسفي، ج ٣ ص ٤٧٩.

يرى النسفي رحمه الله، أو على وجه المبالغة لئلا يلتبس به بعض الحروف ببعض كما يرى الشوكاني، تحسيناً للقراءة واستعانة على الفهم والتدبر.

قال أبو بكر بن طاهر في معنى الآية: « تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه »^(١).

والأصل في كلام الله تعالى أن خطابه للنبي صلى الله عليه وسلم خطاباً لأُمَّته، فكما أمر عليه الصلاة والسلام بالترتيل، فإن الأمة مأمورة بالترتيل، على وجه الإيجاب أو الاستحباب.

ومما يجعل الترتيل من أقوى المعينات على التدبر؛ أن الله تعالى لم يكتفِ بأمر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بترتيل القرآن؛ بل بدأ بنفسه فنزله مرتلاً ليرتله نبيه الكريم والمؤمنون ترتيلاً، كما أخبر بذلك في كتابه العزيز فقال جل وعلا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان : ٣٢].

فكان في ترتيله تعالى لكتابه تثبيتاً لفؤاد نبيه صلى الله عليه وسلم وأفئدة المرتلين من المؤمنين لتقوى قلوبهم فتزداد بصيرة^(٢)، وتفهماً لخطابه الكريم سبحانه. وهذا التنزيل بهذا الترتيل « فيه تيسير لحفظ النظم، وفهم المعاني، وضبط الأحكام، والوقوف على تفاصيل ما روعي

(١) تفسير القرطبي، ج ١٩ ص ٣٨.

(٢) راجع: تفسير ابن الجوزي "زاد المسير"، ج ٤ ص ٤٧٤.

فيها من الحِكمِ والمصالحِ المبنيةِ المناسبةِ على أنَّها منوطةٌ بأسبابها
الدَّاعيةِ إلى شرعها»^(١).

❖ دعوة السنة إلى الترتيل:

والسنة التي ما جاءت إلا لبيان القرآن وهديه؛ دعت إلى الترتيل على
أنه رابطٌ مهمٌ للعقل بالنص، والقلب بالوحي، فيعين الألباب على التذكر
والقلوب على التذاكر، والنفوس على التزكي.

فترى النبي صلى الله عليه وسلم يبين حقيقة الترتيل وكيف يكون
بفعله عليه الصلاة والسلام وبتقريره، وكفى بفعله الشريف بياناً ودعوة،
إذ الاقتداء به والاهتداء بهديه إنما يصدق باتباعه وفعل ما فعل عليه الصلاة
والسلام..

وكفى بتقريره بياناً؛ إذ ما يقرّره صاحب الهدى عليه الصلاة والسلام
لا سيما ما يحمل في طياته التحبيب والتحضيض من التقريرات النبوية،
حثّ نبويّ كريم، وإرشادٌ مصطفىي قويم، لا يهمله إلا متقوص الهمة
قليل الحظ. ففي فعله وتقريره صلى الله عليه وسلم الاتباع والاهتداء.

فإذا وجدناه عليه الصلاة والسلام قد بين لنا حقيقة الترتيل بفعله
وتقريره؛ دلّنا ذلك على دعوته إلى الترتيل وحثّ القارئ على التزامه،

(١) تفسير أبي السعود، ج ٥ ص ١٠٣.

وحضّ التالين على التلاوة بطريقه.

❖ أمّا فعله الذي بيّن به حقيقة الترتيل فهو ما وصفته أمهات المؤمنين وأصحابه رضوان الله عليهم من قراءته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك:

١— سأل يعلى بن مملك رحمه الله أم سلمة رضي الله عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته، قالت: «ما لكم وصلاته، كان يصلي، ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام بقدر ما صلى حتى يصبح، ثم نعت له قراءته، فإذا هي نعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً».

٢— وعن المطلب بن أبي وداعة أن حفصة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في سبحة قاعدًا قط، حتى كان قبل وفاته بعام، فكان يصلي قاعدًا، ويُقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها»^(١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن، فلنرتله إذن. وهو إنما جعل الترتيل فعله لأن الله أمره به فقال له ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

(١) أخرجهما النسائي في السنن برقم ١٣٧٩، ١٣٨٠.

٣- وسُئِلَ صاحِبُهُ وخادِمُهُ الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه: كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم؟. فقال: «كانت مدًّا، ثم قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَمْدٌ بِبِسْمِ اللَّهِ، ويمدُّ بِالرَّحْمَنِ، ويمدُّ بِالرَّحِيمِ»^(١).

٤- ويصف لنا صاحبه حذيفة رضي الله عنه قراءته عليه الصلاة والسلام فيقول: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يَصَلِّيُ بِهَا فِي رَكْعَةٍ؛ فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مَتْرَسَلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ»^(٢).

وقوله (يقرأ مترسلاً): أي يرتلها ترتيباً بتؤدة واطمئنان وتمهّل لا عجلة فيها قد تمكّن معه على التفكّر في معاني الخطاب، والتفهّم لمدلول الآيات، وتدبّر أوامر الباري ونواهيه وأخباره، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يسبّح إذا مرّ بآية فيها تسبيح، ويسأل إذا مرّ بموضع سؤال، ويتعوّذ في آيات التعوّد. وهذا كمال الترتيل وحقيقة التدبّر.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٠٤٦، وأحمد في المسند برقم ١٣٠٧٣، والدارقطني في السنن برقم ١١٧٧، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢٤٨٩، والحاكم في المستدرک برقم ٨٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٨٥٠.

❖ وأما تقريره الشريف صلى الله عليه وسلم لبيان حقيقة الترتيل؛
فما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف عن الحسن قال: مرَّ رجل من
أصحاب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم على رجل يقرأ آية ويبكي ويردها؛
فقال: (ألم تسمعوا إلى قول الله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ٤]
قال: هذا الترتيل^(١). وهذا يعني أنَّ الترتيل لا يكتمل إلا بالتدبر والتأثر.

وأما حثُّه صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم وأُمَّته
المرحومة على قراءة القرآن ترتيلاً؛ موفور عنه، ومن ذلك:

حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لهم وهو يستمع إلى قراءة ابن مسعود رضي الله
عنه: (مَنْ سرَّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل؛ فليقرأه على قراءة ابن أم
عبد)^(٢).

ومعروف أنَّ القرآن أنزل مرتلاً كما أخبر ربَّ العزة تبارك وتعالى في
قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٣].

(١) مصنف ابن أبي شيبة برقم ٣٦٦٩٢ ج ١٤ ص ١١، وانظر: الدر المنثور في التفسير
بالمأثور، للسيوطي، ج ١٥ ص ٤٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٧٥، وابن خزيمة برقم ١١٥٦. والحاكم في المستدرک
برقم ٢٨٩٣ وصححه الحکام ووافقه الذهبي (٢/٢٤٦) على شرط البخاري
ومسلم. وقال شعيب الأرناؤوط لإسناد أحمد (ج ١ ص ٢٥): إسناده صحيح.
وصحح الأعظمي إسناده ابن خزيمة ج ٢ ص ١٨٦.

فالترتيل هو صفة تكلم الله عز وجل بالقرآن، قال المرصفي في هداية القاري: « وما الأمر بالترتيل هنا إلاَّ لأنَّ الترتيل صفة تكلم الله بالقرآن، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، وناهيك بهذا شرفاً وجلالاً^(١) .

وقوله: (من سرّه) من أحبَّ أن يكون السرور عاقبته .. وهذا تحبيب وتحضيض وحثّ ما بعده حثّ على ترتيل القرآن.

وقد جمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم هذا جملة من التحفيزات النبوية على الترتيل دعوة إليه، وترغيباً فيه، وحثّاً عليه، منها:

١- الوعد النبوي بعاقبة السرور لمن يرتل القرآن ..

٢- تأكيد موافقة المرتل بترتيله سبيل نزول القرآن ..

٣- أن الترتيل يجعل القرآن غضاً طريّاً ..

٤- أن قراءة القرآن كما أنزل ممكنة لمن أحبَّ بتوفيق الله تعالى ..

٥- أن الترتيل هو القراءة المحببة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .. فلا ريب أن قراءة القرآن كما أنزل يحبها الله، وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يحثّ عليها ويدعو إليها، ومن؟! يدعو إليها أقرب أصحابه إليه من سادات الصحابة رضوان الله عليهم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

(١) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، للمرصفي، ص ٤٨ .

ولهذا؛ فما أخرجه السجزي في الإبانة عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ كَمَا أُنْزِلَ) ^(١). صحيحٌ في معناه ودلالته، وإن قيل بضعف روايته ^(٢)، لأنَّه لا شكَّ ولا ريب أنَّ الله عز وجل يحبُّ من القاريء أن يقرأ القرآن كما أنزل.

ويزداد حثَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمته على الترتيل وحضه عليه، حين يشرُّ المرتل ما سيُثمر له الترتيل وما سيَجني بسببه، وينال بفضله، يوم لا ينفع مالٌ ولا نين، يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، حين يكون همَّ الناس النجاة من النار والأمن من فزع القيامة؛ يكون تطلع مرتل القرآن إلى درجات الجنان الأعلى، وذلك بشارة المصطفى صلى الله عليه وسلم لأصحاب الترتيل فينبؤهم بذلك يقول: (يُقَالُ لصاحب القرآن: اقرأ وارفق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنَّ منزلَك عند آخر آية تقرؤها) ^(٣).

(١) الجامع الصغير وزيادته، برقم ٣٦٤٢.

(٢) قال الشيخ الألباني: ضعيف، وانظر: الجامع الصغير وزيادته ج ١ ص ٣٦٥، وصحيح وضعيف الجامع له، ج ٩ ص ٨٩ برقم ١٧١٩.

(٣) أخرجه أبو داود برقم ١٤٦٤، والترمذي برقم ٢٩١٤، والنسائي برقم ٨٠٠٢. وأحمد في المسند برقم ٦٧٩٩، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ووافقه الألباني ج ٥ ص ١٧٧، وصحح الألباني حديث أبي داود ج ١ ص ٤٦٣، وقال أرناؤوط لإسناد أحمد: صحيح لغيره (١٩٢/٢).

وهذا والله كافٍ لالتزام الترتيل في القراءة، ولمعرفة مقام الترتيل بين طرق القراءة ومراتبها، وعادات القراء وأحوالهم، مما يؤكد فضل الترتيل على غيره، وقوة أثر الترتيل في الارتباط بالقرآن وتدبره وتفهم خطاب مُنْزَلِهِ جل وعلا.

❖ محققات ترتيل التدبر:

وحتى نحقق الترتيل الذي يتحقق عنده التدبر لمن أراد، فلا بد من جملة أمور يجب العمل بها والتزامها.

الأمر الأول: الترسل والتمهل والتؤدة:

قال القرطبي رحمه الله: « ينبغي أن يقرأه على تؤدة وترتيل، فإن التفكر أمكن منه عند الترتيل، فكان الترتيل بالذكر أولى، فيستعمل في ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به»^(١).

والترسل والتمهل والتؤدة في القراءة هو أقل الترتيل، فإنه بدون هذا لا يكون ترتيل، وقد قال الشافعي رحمه الله: « أقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة»^(٢).

وقد نهى العلماء عن المبالغة في الاستعجال والإفراط في الإسراع،

(١) التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ص ١٦٤ .

(٢) سنن البيهقي الكبرى ج ٢ ص ٥٢ .

وَيُسَمَّى "الهزيمة"^(١). «لأنَّ الترتيل بالترسل والتؤدة مستحبٌ لا لمجرد التدبُّر، بل لأنَّ العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحبُّ له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة، لأنَّ ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشدَّ تأثيراً في القلب من الهزيمة والاستعجال»^(٢).

أما الهدُّ في القراءة وهو إدراج القراءة وتخفيفها، وإنَّ أسرع فيها، ولكن بما يوافق طبعه ويخفف عليه فهذا من الحذر المشروع، لا يدخل تحت النهي أبداً هو من أنواع القراءة المشروعة. ويكفينا دليلاً عليه حديث بريدة رضي الله عنه الذي فيه أنَّ صاحب القرآن يعطى (الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بِمَ كَسِينَا هَذِهِ؟ فيقال: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القرآن، ثم يقال له: «اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها» فهو في صعودٍ ما دام يقرأ، هذا كان أو ترتيلاً)^(٣).

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص ٩١.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي، ج ١ ص ٢٧٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم ٢٣٠٠٠، والدارمي في السنن برقم ٣٣٩١، وابن أبي شيبه في المصنف برقم ٣٠٦٦٨، والبغوي في شرح السنة برقم ١١٩٠، والإشيلي في الأحكام الشرعية ج ٤ ص ٢٥، وقال الأرناؤوط عن إسناد أحمد (٥/٣٤٨): إسناده حسن، وقال حسين سليم أسد عن إسناد الدارمي (٢/٥٤٣): إسناده حسن، وقال البغوي عن إسناده (٤/٤٥٤): هذا حديث حسن غريب.

وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله: إذا قام الرجل من الليل أيما أحب إليك: الترسل أو السرعة؟ فقال: «أليس قد جاء بكل حرف كذا وكذا حسنة؟» قالوا له: في السرعة؟ قال: «إذا صور الحرف بلسانه، ولم يسقط من الهجاء». قال القاضي: وظاهر هذا أنه اختار السرعة^(١).

ولعل من الناس من يخطئ إذا رتل وتأنى وترسل، وسلم من الخطأ إذا هذ وأسرع، فهذا الهذ في حقه هو الواجب، ما دام بين الحروف ولم يسقطها، وقد روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك رحمه الله في الهذ في القراءة، فقال: «من الناس من إذا هذ كان أخف عليه، وإذا رتل أخطأ، ومن الناس من لا يحسن هذا، والناس في هذا على قدر درجاتهم، وما يخف عليهم، وكل واسع»^(٢).

قال القرطبي: «وقد روي عن جماعة من السلف أنهم كانوا يختمون القرآن في ركعة، وهذا لا يمكن إلا بالهذ، والله أعلم»^(٣).

وكانت قراءة الهذ عادة بعض أئمة القراءة، فكان عطاء ومجاهد رحمهما الله يهذان القرآن هذاً^(٤).

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح، ج ٢ ص ٤٣٧.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي، ص ١٤٣.

(٣) التذكار نفسه.

(٤) ابن أبي شيبه في المصنف برقم ٨٨٢٣، ج ٢ ص ٥٢١.

وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم من إنكارهما قراءة الهدّ، فيروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: «لا تهذّوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب»^(١). وقوله لنهيك بن سنان السلمي، حين أتاه فقال له: قرأت المفضل الليلة في ركعة، فقال ابن مسعود: «هذا مثل هذّ الشعر، أو نثرًا مثل نثر الدقل؟ إنّما فُصل لتُفصلوا»^(٢). كما يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «لقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما أمره، ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فينثره نثر الدقل»^(٣).

والنثر هو الرمي، والدقل: هو رديء التمر وخبيثه، فلا يُهْتَمّ بلبقته، بل إذا وُجد بين الرطب رُمي بكل إهمال واحتقار واسترداء، فصوّرا رضي الله عنهما الذي يهذّ القرآن هذّا كأنه يرمي بكلمات الله من غير روية ولا تأمل، كما يرمي الدقل، فيتساقط القرآن من فمه كما يتساقط الرطب اليابس الرديء من العذق إذا هُزّ^(٤).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم ١٨٨٣، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٨٨٢٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم ٣٩٥٨، ج ١ ص ٤١٧.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، برقم ٥٠٧٣، الحاكم في المستدرک برقم ١٠١ وقال

(١ / ٣٥): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة.

(٤) يراجع: تحفة الأحوذى، ج ٢ ص ١٣٧، غريب الحديث لابن قتيبة، ج ٢ ص ٢٥٤،

ولا شك أن هذه القراءة تفوّت مقصود الترتيل من الفهم والتدبر لكلام الباري جل وعلا. ولا يليق بأي درجة من درجات أدب التعامل مع كلام الله العظيم. وهذا هو علّة نهيهما ذلك، كما قال الخطابي رحمه الله: «إنما عاب عليه ذلك لأنه إذا أسرع القراءة ولم يرتلها فاته فهم القرآن وإدراك معانيه»^(١). أما إذا بيّن الحروف، ولم يسقطها، ولو قرأ هذا أو إسراعاً، ومع ذلك تفهم الخطاب وأدرك المعاني؛ فهذا لا كراهة في قراءته ولا خرج بها عن مقصود الترتيل.

والأصل في الترتيل أن يكون على تؤدة وتمهّل وترسل، وهو غالب أحوال التالين لكتاب الله القارئ للقرآن، وهو أفضل من الهذّ والإسراع، وإن جاز الهذّ وصحّ وشرع، وقد كان حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يحث على ترتيل القرآن بتمهّل وتؤدة من أجل التدبر يحضهم ويحرّضهم قائلاً: «لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلّهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن هذرمةً». وكان قال: «لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً»^(٢).

(١) معالم السنن للخطابي، ج ١ ص ٢٨٣.

(٢) راجعها في: إحياء علوم الدين، ج ١ ص ٢٧٧، وكأن الرواية الثانية تتمم لكلامه الأول، وكأنها: "لأن أقرأ البقرة وآل عمران ... أحب إليّ من أن أقرأ القرآن هذرمة، ولأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً" والله أعلم. والهذرمة: سرعة الكلام والقراءة، والهذر الكثير الكلام، والذي

وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يقول: « لأن أقرأ القرآن في شهر أحب إلي من أن أقرأه في خمس عشرة، ولأن أقرأه في خمس عشرة أحب إلي من أن أقرأه في عشر، ولأن أقرأه في عشر أحب إلي من أن أقرأه في سبع أقف وأدعو»^(١).

الأمر الثاني: تجويد القراءة:

وذلك بإحكام النطق بكل حرفٍ موفياً حقّه في حال الإفراد وحال التركيب، مع مراعاة الصفات اللازمة من ترقيق المرقّق وتفخيم المفخّم وتحقيق الهمز والجهر والاستعلاء والإطباق والشدة والرخاوة والاستطالة والإمالة، وغيرها. فإن ترك ذلك ولم يجود قراءته لم يكن مرتلاً.

فمن رقق مفخماً، أو فخم مرققاً، أو مدّ ما لا مدّ فيه، أو مدّ مفرطاً، أو شدّد همزة، أو لأك الحرف تلو كاً، أو تساهل أو طغى في نطق الحرف على غير ميزانه، فإنّه لا يكون مرتلاً، وهذه القراءة لا يحقق له تدبراً ولا يعينه على تفهّم أو تفكّر أو استنباطٍ لمعنى من المعاني بحال، لأنّ هذه

لا يعبأ من الكلام، ولعله يقصد هذا المعنى، بقوله: تهذيراً، أي: لا يعبأ بمعانيه، وأنه يكثر منه دون نظر وتدبر. والله أعلم. ويراجع: القاموس المحيط للفيروزابادي ص ٦٣٩، وص ١٥٠٩، وتاج العروس، ج ١٤ ص ٤١٨.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٨٦٧٣،

الحروف هي أسّ الألفاظ والألفاظ هي حوامل المعاني، فإنّ اختلّ اللفظ عن ميزانه انحرف العقل والسمع عن فهم مدلوله، ولذلك قال الشيخ علم الدين ينصح مريد الترتيل والقراءة المجوّدة، ومبتغي حال أئمة التلاوة المحسّنة فقال^(١):

يَا مَنْ يَرُومُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ وَيَرُودُ شَأْوَ أَيْمَةِ الْإِتْقَانِ
لَا تَحْسِبِ التَّجْوِيدَ مَدًّا مُفْرِطًا أَوْ مَدًّا مَا لَا مَدَّ فِيهِ لِوَانِ
أَوْ أَنْ تُشَدَّ بَعْدَ مَدِّ هَمْزَةٍ أَوْ أَنْ تَلُوكَ الْحَرْفَ كَالسَّكْرَانِ
أَوْ أَنْ تُقَوِّهِ بِهَمْزَةٍ مُتَهَوِّعًا فَيَقِرَّ سَامِعُهَا مِنَ الْغَثِثِ
لِلْحَرْفِ مِيزَانٌ فَلَا تَكُ طَاغِيًا فِيهِ وَلَا تَكُ مُخْسِرَ الْمِيزَانِ
فَإِذَا هَمَزْتَ فَجِئْ بِهِ مُتَلَطِّفًا مِنْ غَيْرِ مَا بَهْرٍ وَغَيْرِ تَوَانِ
وَأَمْدُ حُرُوفِ الْمَدِّ عَدُّ مُسَكِّنٍ أَوْ هَمْزَةٍ حُسْنًا أَخَا إِحْسَانِ

ولا شكّ كما يقول السيوطي رحمه الله: « أن الأئمة كما هم متعبّدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده؛ هم متعبّدون بتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه، على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة، المتصلة بالحضرة النبوية »^(٢).

(١) راجع: الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، للسيوطي، ج ١ ص ٢٨١ - ٢٨٢، فتح رب البرية

شرح المقدمة الجزرية، صفوت محمود سالم، ص ١٧.

(٢) الإِتْقَانُ للسيوطي، ج ١ ص ٢٧٩.

الأمر الثالث: إيقاع القراءة في القلب:

مبتغي التدبر والفهم لكتاب الله من الترتيل؛ لن يحصّله ما لم يجاوز بقراءته تراقيه، ويجوز بتلاوته حناجره حتى يوصل لسان فمه بنبض قلبه، فيقع بذلك الفهم المقصود لكلام الباري المرتل.

وفي ذلك ما ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حين قال له رجل: إنني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال عبد الله: « هذا كهذا الشعر؟ إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع »^(١).

ووقوع القراءة في القلب وانتفاعه بها؛ هو ما صورّه الشعبي رحمه الله فقال: « إذا قرأت القرآن؛ فاقراءه قراءةً تسمعه آذانكم، وتفهمه قلوبكم، فإن الأذنين عدل بين اللسان والقلب، فإذا مررتم بذكر الله؛ فاذكروا الله، وإذا مررتم بذكر النار، فاستعيذوا بالله منها، وإذا مررتم بذكر الجنة، فاسألوها الله »^(٢).

الأمر الرابع: الوقف في موضع الوقف:

وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٩٤٥، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٤٨٧٥، وفي

شعب الإيمان برقم ١٩٨٩، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٨٨١٩.

(٢) شرح ابن بطال لصحيح البخاري، ج ١٠ ص ٢٧٣.

تَرْتِيلاً» [المزمل: ٤] في معنى الترتيل، قال: «الترتيل؛ تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»^(١).

وقال الزركشي: «ومما يدعو إلى الوقف في موضع الوقف؛ الترتيل، فإنه أعون شيء عليه، وقد أمر الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾»^(٢).

وقد أخبر أبو جعفر النحاس أن السلف كانوا يتعلمون الوقوف كما يتعلمون القرآن مستدلاً بكم ابن عمر رضي الله عنهما السابق: «لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فتتعلّم حلالها وحرامها، وأمرها، وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها. كما تعلمون أنتم اليوم القرآن..»^(٣). فقال: «فهذا الحديث يدلّ على أنهم كانوا يتعلمون الأوقاف كما يتعلمون القرآن». فوافقه السيوطي وقال: «وقول ابن عمر: (لقد عشنا برهة من دهرنا) يدلّ على أنّ ذلك إجماع من الصحابة ثابت»^(٤).

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي، ج ١ ص ٢٣٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج ١ ص ٣٦٨.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم ٥٠٧٣، والحاكم في المستدرک برقم ١٠١، وابن مندة في الإبان برقم ٢٠٧، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي فقال: على شرطهما ولا علة له راجع المستدرک ج ١ ص ٩١.

(٤) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي، ج ١ ص ٢٣٢.

وذهب أهل العلم بالقرآن إلى أن من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء.. لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل^(١). أي الأوقاف.

وضرورة تعيين مواضع الوقف لوقوف عنده، علل له ابن الجزري رحمه الله في النشر فقال: «لَمَّا لم يمكن للقارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس واحد، ولم يجز التنفس بين كلمتين حالة الوصل، بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة؛ وجب حينئذ اختيار وقف للتنفس والاستراحة، وتعين ارتضاء ابتداء بعد التنفس والاستراحة، وتحتم أن لا يكون ذلك مما يخل بالمعنى، ولا يخل بالفهم، إذ بذلك يظهر الإعجاز ويحصل القصد، ولذلك حض الأئمة على تعلمه ومعرفته» اهـ^(٢).

الأمر الخامس: القراءة على المنازل وتمثيل المعاني:

وهو كمال الترتيل كما لقبه الزركشي رحمه الله في البرهان، وقد بينه خير بيان فقال: «من أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل، فليقرأه على منازل، فإن كان يقرأ تهديداً؛ لَفَظَ به لَفْظَ المتهدد، وإن كان يقرأ لَفْظَ تعظيم؛ لَفَظَ به على التعظيم»^(٣).

(١) الإتقان ج ١ ص ٢٣٣ عن ابن الأنباري والنكزاي.

(٢) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ج ١ ص ٢٥٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج ١ ص ٤٥٠.

إِذَنْ: قراءة القرآن على منازله هي تمثيل المعاني، بتلفظ الكلمة القرآنية بحسب مدلولاتها ومعانيها، وما وُضعت لها، مع استشعار معنى اللفظة عند نطقها، بتفخيم الألفاظ وإبانة الحروف، وهذا هو التبيين الذي هو من مرادات الترتيل، وقد عرّف ابن عباس وقتادة الترتيل بالإبانة والتبيين^(١)،

فعند قراءته آية فيها نوع تفخيم وموضع تعظيم، قرأها بتفخيم الألفاظ الدالة على التفخيم وبتمثيل التعظيم في تلفظ كلمات التعظيم، بما يُشعر أحشاءك ونفسك ومن يسمعك أنك قد نطقتها فخمة معظمة، كالذي يلفظ على التعظيم قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة : ٧٤].

وحين يرتل آية فيها وعيدٌ وتهديد لفظ بهما لفظ المتهدد المتوعد كقارئ قوله تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف : ٢٩].

وحين يتلو آية فيها عبارات التخويف والترهيب نطق حروفها كأنه جاث على ركبته جاثم على صدره يرجف ويرتعد كقارئ قوله تعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف : ٧٨].

(١) روى عنها الطبري في تفسير قوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلاً) أنها قالوا: بينه تبييناً.

انظر: تفسير الطبري، ج ٢٣ ص ٣٦٤، برقم ٣٥٥٠٩، ٣٥٥١٠.

وإذا تلا آية فيها الألفاظ الدالة على السعة والشمول والإحاطة في صفات الله تعالى نطقها وتلفظها بملء فيه بحروفها معبراً عن الإحاطة والسعة كالذي يتلو قوله تعالى ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]..

ولو مرّ في ترتيله بآية فيها كلمات الوعد والمنّة؛ جعل ينطق حروفها ويلفظها على الرجاء والتمني كأنه راجٍ متمنٍ على يقين بكرم الله العظيم كما في قوله عز وجل ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]..

وفي آيات الحزن يقيم صوته ولسانه على مقام التحزن، كمن يقرأ قول الله تعالى ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]..

وعند تلاوته آية فيها لفظ شدة يلفظها المرتل على منزلة الشدة بشدة كما في قوله تعالى ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]..

وهكذا في الإعجاب والتعجب، وفي الحسرة والندم، وغيرها. فذلك

كمال الترتيل بقراءة القرآن على منازل.

الأمر السادس: المعاشة والتحقق بأحوال المعاني:

فالقراءة دون الانتباه لمعاني كَلِم القرآن الأشرف لا يتحقق بها ترتيل ولا يتحصّل بها تدبّر، وإنما اكتمال الترتيل وحقّه ومستحقّه؛ معاشة معاني الخطاب المقدّس، وتلقي القلب للأمر والنهي والتوجيه والإرشاد القرآني والتفكّر فيه. عندئذٍ نحقق الترتيل المحصّل للتدبّر.

وحتى يعايش ما يتلوه من الآيات يتحقق بأحوال معانيها؛ ينبغي أن:

✓ أن يشغل قلبه في التفكير في معنى ما يلفظه بلسانه..

✓ وأن يتجاوب مع كل نداءٍ أو أمرٍ أو نهٍ أو توجيهٍ أو خبر..

✓ وأن يقرأ قراءة المتذكّر المذكّر..

قال الزركشي رحمه الله: «وينبغي أن يشغل قلبه في التفكير في معنى ما يلفظ بلسانه، فيعرف من كل آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها.

فإذا مرّ به آيةٌ رحمة؛ وقف عندها، وفرح بما وعده الله تعالى منها، واستبشر إلى ذلك، وسأل الله برحمته الجنة.

وإن قرأ آية عذابٍ؛ وقف عندها، وتأمّل معناها، فإن كانت في الكافرين اعترف بالإيمان فقال «آمن بالله وحده»، وعرف موضع

التخويف، ثم سأل الله تعالى أن يعيده من النار.

وإن هو مَرَّ بآية فيها نداءٌ للذين آمنوا فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ وقف عندها، وقد كان بعضهم يقول: «ليبك ربي وسعديك»، ويتأمل ما بعدها مما أمر به ونهي عنه، فيعتقد قبول ذلك، فإن كان من الأمر الذي قد قصر عنه فيما مضى؛ اعتذر عن فعله في ذلك الوقت، واستغفر ربه في تقصيره...»^(١).

ولقد كان نبينا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه يتجاوب مع الآيات، وقد روى حُذَيْفَةُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءَ فِي رَكْعَةٍ، لَا يَمُرُّ بِآيَةٍ رَحْمَةٍ إِلَّا سَأَلَ وَلَا بِآيَةٍ عَذَابٍ إِلَّا اسْتَجَارَ^(٢).

الأمر السابع: التلبس بمقامات التلاوة:

فيحرص أشدَّ الحرص، ويجاهد باله وقلبه ونفسه وكيانه ووجدانه أن لا يخرج عن مقامات التلاوة والترتيل، فيتحقق بأحدها على أقلِّ أحواله. والناس في تلاوة القرآن وترتيله ثلاثة مقامات، كما قال بعضهم^(٣):

الأول: مقام العارفين، وهو مقام مَنْ يشهد أوصاف المتكلم في كلامه،

(١) وراجع بتوسع: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج ١ ص ٤٥٠ - ٤٥٢.

(٢) أخرجه النسائي برقم ١٠٨٣.

(٣) البرهان في علوم القرآن، نفسه، ج ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٤.

ومعرفة معاني خطابه، فينظر إليه من كلامه، وتكلمه بخطابه، وتمليّه بمناجاته، وتعرفه من صفاته، وهذا مقام العارفين من المؤمنين، لأنه لا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته، ولا إلى تعلّق الإنعام به من حيث أنه منعم عليه؛ بل هو مقصور الفهم عن المتكلم، موقوف الفكر عليه، مستغرق بمشاهدة المتكلم، ولهذا قال جعفر الصادق رحمه الله: «لقد تجلّى الله لخلقه بكلامه ولكن لا يبصرون»، ومن كلام الشيخ أبي عبد الله القرشي: «لو طهرت القلوب لم تشبع من التلاوة للقرآن».

الثاني: مقام المقربين، وهو مقام مَنْ يشهد بقلبه، كأنه تعالى يخاطبه ويناجيه بالطفاه، ويتملقه بإنعامه وإحسانه، فمقام هذا الحياء والتعظيم، وحاله الإصغاء والفهم، وهذا العموم المقربين.

الثالث: مقام أصحاب اليمين، وهو مقام من يرى أنه يناجي ربه سبحانه، فمقام هذا السؤال والتمكن، وحاله الطلب، وهذا المقام لخصوص أصحاب اليمين، فإذا كان العبد يلقي السمع من بين يدي سميّعه، مصغيّاً إلى سرّ كلامه، شهيد القلب لمعاني صفاته، ناظراً إلى قدرته، تاركاً لمعقوله ومعهود علمه، متبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلم، متفرّغاً إلى الفهم، بحالٍ مستقيم، وقلبٍ سليم، وصفاءٍ يقين، وقوةٍ علمٍ وتمكينٍ؛ سمعَ فصلَ الخطاب، وشهدَ غيبَ الجواب، لأن الترتيل في القرآن، والتدبر لمعاني الكلام، وحسن الاقتصاد إلى المتكلم في

الإفهام، والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة في الطلب؛ سببٌ للاطلاع على المطلع من المسر المكنون المستودع.

بهذه الأمور السبعة وبغيرها يتحقق الترتيل الموصل إلى تدبر القرآن وتفهم آياته.



المُعِين الرَّابِع

التَّرْدَادُ وَالتَّكْرَارُ

إِنَّ مِنْ أَوْجُهٍ إعجاز القرآن العظيم؛ أَنْ كُلَّ مكتوبٍ من عبارة أو مقال أو كتاب غيره؛ كلما قرأت فيه وأعدت قراءته ورددت ما قد قيل من جُمل أو عبارات؛ كلما ازددت ميلالاً وضجراً، وأحببت أن لا تعود إليه، وتكون قد أحسست أنك اكتفيت من المعاني والمدلولات التي احتوتها، فلو زدت شعرت بالكلام كأنه خَلَقَ بِالْقَدِيمِ لا فائدة جديدة ولا دلالة أخرى غير التي كانت!! وكما قيل:

غِبْ وَزُرْ غِبًّا تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ * أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ الْمَلِلَ^(١).

أَمَّا القرآن؛ كلما قرأت فيه؛ كلما ازددت متعة ولذة لا تحب أن تتوقف عن تلاوته، ولا ترغب عن قراءته، ولا تؤدُّ أبداً أن توقف ترتيله، لأنك في كل مرة تطالع معنىً جديداً، وفي كل ترتيلة تجد بُعْداً جديداً، وفي كل قراءة يبادرك فهمٌ جديدٌ، ومع كل إعادة ترى صورة خُلُقِيَّة أو دعوة سلوكية أو دلالة عقدية أو إرشاداً تربوياً، أو توجيهاً أدبياً، أو موعظة، أو حكمة، أو عبرة، لم تكن من قبل، فلا تفتر من عجب إلا إلى عجبٍ.

فهذا القرآن العظيم "لا يتفه بكثرة الرّد، ولا ينتان، ولا يتشان، ولا

(١) السحر الحلال في الحكم والأمثال، لأحمد الهاشمي، ص ٩٨.

يَعْتُ، وَلَا يَخْلُقُ" ^(١)، نعم! لا يخلق على كثرة الرد!! كما الكتب الأخرى،
ولا تنقضي عجائبه!! كما المؤلفات الأخرى، ولا يشبع منه العلماء كما
المقالات الأخرى ولا يَبْلَى!! كما يَبْلَى كلمات الناس.

ولقد جاء الوصف النبوي للقرآن فيما روي عنه صلى الله عليه وسلم
من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدِبُهُ
اللَّهُ فَاقْبَلُوا مِنْ مَأْدِبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ،
وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ،
وَلَا يَعْوجُّ فَيَقْوَمُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلُقُ مِنْ كَثَرَةِ الرَّدِّ) ^(٢).

وفيما روي من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله
عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ

(١) هذا الوصف عزوه إلى ابن مسعود رضي الله عنه ، راجع: تاج العروس ج ٣٦ ص
٣٥٥. وتهذيب اللغة ج ٦ ص ١٣١، وفي فضائل القرآن لابن الضريس ص ٣٢٥
برقم ٢٩٧ من وصفه رضي الله عنه: (إن هذا القرآن لا يختلف، ولا يتشأن، ولا يتفه
بكثرة الرد).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٢٠٤٠، وسعيد بن منصور في سننه برقم ٧،
والطبراني في المعجم الكبير برقم ٨٥٦٧، والبيهقي في السنن الصغرى برقم ٧٣١،
وفي شعب الإيمان برقم ١٧٨٦، و١٨٣٢، والدارمي في سننه برقم ٣٣١٥، وابن أبي
شيبه في مسنده برقم ٣٧٦، وفي المصنف برقم ٣٠٦٣٠، وعبد الرزاق في مصنفه
برقم ٦٠١٧، وصححه الحاكم.

قَبْلَكُمْ، وَخَبِرَ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكِّمَ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١).

وبذلك وَصَفَهُ الصَّدِيقُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: « وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ فِيكُمْ لَا يَطْفَأُ نُورُهُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، فَاسْتَضِيئُوا بِنُورِهِ، وَانْتَصِحُوا كِتَابَهُ، وَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ الظُّلْمَةِ »^(٢).

ولقد عَبَّرَ الْأَمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَنْظُومَتِهِ الْمُبَارَكَةِ " حَرْزُ الْأَمَانِي وَوَجْهُ التَّهَانِي " عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:

وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ
وَأَعْنَى غَنَاءً وَاهِبًا مُتَفَضِّلًا

(١) أخرجه الترمذي برقم ٣١٥٣، والبخاري في مسنده برقم ٨٣٦، والدارمي برقم ٣٣٣١، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٧٨٨، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٠٦٢٩، والبغوي في شرح السنة ج ٤ ص ٤٣٨، قلت: وكلا الحديثين صحيحا المعنى، فلا شك أن القرآن هو كما وُصف.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٣٤٤٧، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم ١٠١١٠، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

وَحَيْرٌ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلاً

وإنما ازداد تجملاً؛ لأنَّ لذة القارئ تزيد بترداده، ومتعة التالي تتجدد بتكراره، وعقل الناظر يفيد فهماً بكثرة تلاوته، فيميد قلب المرتل بحسن مواعظه فيقرح، لتندب العين دمعاً، والنفس تزكيةً، والروح ترقيةً، واللُّبُّ تذكُّراً، والعقل تفكُّراً، والقلب تدبُّراً..

لذلك؛ كان الترداد والتكرار لآيات الكتاب وكلمات القرآن من أقوى المعينات على التدبُّر..

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «التدبُّر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبُّر إلا بترديد الآية فليردد»^(١).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد»^(٢).

ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر؛ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتى مرَّ بآية وهو محتاجاً إليها في شفاء قلبه؛ كررها ولو مائة مرة؛ ولو ليلة؛ فقراءة آية بتفكُّر وتفهم؛ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن»^(٣).

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص ٦٨.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ١ ص ٢٨٢.

(٣) مفتاح دار السعادة، ج ١ ص ٥٣٥.

وفي سبب الترداد والتكرار وفائدته وحكمته يقول الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: «..لأنَّ في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى أنَّه لا طريق إلى تحفُّظ العلوم إلاَّ ترديد ما يراد تحفُّظه منها؟، وكلِّمًا زاد ترديده؛ كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان. ولأنَّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكُوثرت بالوعظ والتذكير، وُرُوجعت بالترديد والتكرير، لعلَّ ذلك يفتح أذنًا، أو يفتق ذهنًا، أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهمًا قد غطَّى عليه تراكم الصدا»^(١).

فليستعن مريدُ التدبُّر بترديد الآيات وتكرارها حتى يتمكن من الغوص مراراً في بحار المعاني والدلالات، في كلِّ مرَّة يزيد عمقاً في غوصه حتى يلقط بقلبه وعقله ولبَّه دُرر القرآن ويواقيته، ولآلئ الفرقان ومراجينه.

وليعلم أنَّ هذا الترداد والتكرار لآيات الكتاب وكلمات القرآن كان عادة السلف رضوان الله تعالى عليهم للاستعانة به على التفهِّم، والتمكُّن به على تحصيل التدبُّر.

قال ابن القيم رحمه الله: «هذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية

(١) تفسير الزمخشري الكشاف، ج ٣ ص ٣٣٤ .

إلى الصباح»^(١).

وقال النووي رحمه الله: «وقد بات جماعة من السلف يتلو الواحد منهم آية واحدة ليلة كاملة أو معظم ليلة، يتدبرها عند القراءة»^(٢).

وما أخذ السلف ولا عرفوا ولا اهتموا إلى ذلك إلا باقتدائهم بالنبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه.

❖ الترداد والتكرار عند النبي صلى الله عليه وسلم:

فكان الترداد والتكرار من صنيع العابد الشكور صلى الله عليه وسلم أصدق التالين وأعظم المرتلين وأفهم المتدبرين يتدبر ما أنزل إليه من ربه بذلك...!!

وقد رُوِيَ عن حاله في تدبر الآيات بتردادها أحوال، منها:

١— خبر أبي المتوكل الناجي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآية من القرآن ليلة»^(٣).

٢— ما روته جسارة بنت دجاجة رحمها الله عن أبي ذر رضي الله عنه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ هذه الآية حتى أصبح ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ

(١) مفتاح دار لسعادة لابن القيم، ج ١ ص ٥٣٥.

(٢) الأذكار للنووي، ص ١٠٧،

(٣) شرح السنة للبغوي برقم ٩١٤، ج ٤ ص ٢٥، وقال: هذا حديث حسن غريب.

عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿المائدة: ١١٨﴾^(١).

٣— حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وهو على المنبر ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] قال: (يقول الله أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا المتعال يمجّد نفسه) قال: «فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرددها حتى رجف بها المنبر حتى ظننا أنه سيخر به»^(٢).

٤— وعن أبي السليل القيسي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣-٤] قال: فجعل يرددها عليّ حتى نعست، فقال: (يا أبا ذر! لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم)، ثم قال: (يا أبا ذر! كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة؟) قلت: «إلى السعة والدعة، أكون حماماً من حمام مكة». قال: (كيف تصنع إذا

(١) أخرجه النسائي برقم ١٠١٠، وابن ماجه برقم ١٣٥٠، وأحمد في المسند برقم ٢١٤٢٥، وبرقم ٢١٣٦٦ من طريق ميسرة العامرية، والحاكم في المستدرک برقم ٨٧٩، وابن أبي شيبة في المصنف برقم ٨٤٥٤، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٣٦٧/١) وحسن الأرنؤوط إسانيد أحمد (١٤٩/٥، ١٥٦) و صحح الألباني إسناده النسائي (١٧٧/٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم ٥٦٠٨، وقال شعيب الأرنؤوط (٨٧/٢): إسناده صحيح على شرط مسلم.

أخرجت من مكة؟) قلت: «إلى السعة والدعة، إلى أرض الشام والأرض المقدسة»، قال: (فكيف تصنع إذا أخرجت منها؟) قلت: إذا والذي بعثك بالحق أخذ سيفي «^(١)».

٥— وعن عروة وعبيد الله بن عدي وعلقمة بن وقاص عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في خبر تثار الأوس والخزرج، « نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فلم يزل يسكتهم ويخفضهم حتى سكتوا.. فلم يزل يتلو عليهم هذه الآية ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة : ٧] حتى تنقضي، يرددها عليهم، حتى اعتنق بعضهم بعضاً، وحتى أن لهم لخنائاً، ثم انصرفوا قد اصطلحوا»^(٢).

❖ الترداد والتكرار عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وكان ترداد الآية وتكرارها طلباً للتدبر من عادات الصحابة رضوان الله عليهم اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم وتأسياً بحاله الشريف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

✓ فحين أخبر إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن حال الصحابة رضوان الله

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٣٨١٩، ابن حبان في صحيحه برقم ٦٦٦٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فوافقه الذهبي في التلخيص وصححه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١٨٦٦٥.

عليهم في الصلاة في السفر فقال: « كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقرءون السور الصغار في الفجر في السفر ». قال الضحاك بن مزحم صاحب التفسير رَحِمَهُ اللهُ يَبِينُ طريقتهم وعادتهم في ذلك: « كان أولئك يصلّون بالسور القصار يرددونها، ويعملون بالقرآن، وسيأتي عليكم زمانٌ يُهذُّ فيه القرآن لا يجاوز تراقي بعضهم »^(١).

✓ وعن الفرافصة بن عمير الحنفي رَحِمَهُ اللهُ قال : « ما أخذت سورة يوسف إلا من قراءة عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إياها في الصبح من كثرة ما كان يردها لنا »^(٢).

✓ وسئل ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن الرجل يزني بالمرأة ثم ينكحها؟ قال: هما زانيان ما اجتماعا. فقليل لابن مسعود: أرايت إن تابا؟! قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]. قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللهُ: « فلم يزل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يردها حتى ظننا أنه لا يرى به بأساً »^(٣).

✓ وعن مسروق رَحِمَهُ اللهُ، قال: قال لي رجلٌ من أهل مكة: هذا مقام

(١) المصاحف لابن أبي داود، ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، برقم ١٨٤ ج ١ ص ٨٢، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢٢٣٧، و٤١٨٩ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، برقم ٧٩٨ ١٢ .

أخيك تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح، أو كرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله، يركع ويسجد، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الباقية : ٢١] ردّد هذه الآية حتى أصبح^(١).

✓ وعن صفوان بن سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قام تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المسجد بعد أن صلى العشاء فمر بهذه الآية ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُونِ﴾ [المؤمنون : ١٠٤] فما خرج منها حتى سمع أذان الصبح^(٢).

✓ وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] يردّها، فلما أصبح؛ جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)^(٣).

✓ وعن أمّ الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: « أَغْمِي عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) أخرجه النسائي، ج ١٠ ص ٤٠٠، والطبراني في المعجم الكبير برقم ١٢٣٦، ١٢٣٧. وابن أبي شيبة في مصنفه برقم ٨٤٥٦ ج ٢ ص ٤٧٧.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٨٤٥٦ وفي التهجد وقيام الليل، برقم ٥٠ ص ١٥٧-١٥٨.

(٣) أخرجه النسائي برقم ٩٩٥، وصححه الألباني، وهو في البخاري برقم ٥٠١٣، ٥٠١٤، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤، وأبو داود برقم ١٤٦٣، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص ٦٨.

فَأَفَاقَ، فَإِذَا بَلَائُ ابْنِهِ عِنْدَهُ، فَقَالَ: قُمْ، فَأَخْرِجْ عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلْ لِمِثْلِ مَضْجَعِي هَذَا؟ مَنْ يَعْمَلْ مِثْلَ سَاعَتِي هَذِهِ؟ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] أَيْتُمْ، ثُمَّ يُعْمَى عَلَيْهِ، فَيَلْبَثُ لَبْثًا، ثُمَّ يُفَيِّقُ فَيَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى قُبِضَ^(١).

✓ وعن عبد الوهاب بن عباد بن حمزة عن أبيه عن جده، قال: « بعثتني أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى السُّوقِ، وَافْتَتَحَتْ سُورَةَ الطُّورِ، فَانْتَهَتْ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فَذَهَبَتْ إِلَى السُّوقِ وَرَجَعَتْ وَهِيَ تَكَرَّرُ هَذِهِ الْآيَةَ^(٢).

✓ وعن المطلب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْبِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آيَةَ، فَوَقَفَ عِنْدَهَا أَسْهَرْتَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، فَدَعَا ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: إِنِّي قَرَأْتُ آيَةً وَقَفْتُ اللَّيْلَةَ عِنْدَهَا فَأَسْهَرْتَنِي حَتَّى أَصْبَحْتُ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] »^(٣).

❁ الترداد والتكرار عند التابعين وتابعيهم:

وكان الاستعانة بالترداد والتكرار على التدبر من عادات التابعين

وتابعيهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) أخرجه النسائي برقم ١١٨٤٩، وابن المبارك في كتاب الزهد برقم ٣٢.

(٢) مختصر قيام الليل ص ٢١٥، التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي، ص ١٨٧.

(٣) مختصر قيام الليل، ص ٢١٥.

✓ فعن نسير أبي طعمة مولى الربيع بن خثيم، قال: «كان الربيع بن خثيم رَحْمَةُ اللَّهِ يَصْلِي فمر بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] حتى ختمها يرددها حتى أصبح»^(١).

✓ وقال إبراهيم بن الأشعث: «كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض رَحْمَةُ اللَّهِ يَرُدُّ من أول الليل إلى آخره هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟»^(٢).

✓ وقد سبقت الرواية عن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يرددها.
✓ وعن جارية الأنصاري رضي الله عنه، أن رجلاً قرأ هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] يرددها ويبكي، ويركع، ويسجد ليلته، حتى أصبح، ذكر أنه من الأنصار»^(٣).

ولهذا سُمِيَتْ هذه الآية الكريمة عند العلماء "مبكاة العابدين"، كما قال القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ: «وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها

(١) أخرجه ابن أبي يبة في المصنف بقم ٨٤٥٧، ج ٢ ص ٤٧٧.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١٦ ص ١٦٦.

(٣) التوبة لابن أبي الدنيا، برقم ١٠٢، ص ١٨٤.

محكمة»^(١).

✓ وعن سعيد بن عبيد الطائي، قال: «سمعت سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ وهو يصلي بهم في شهر رمضان يردد هذه الآية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢]»^(٢).

✓ وعن سعيد بن عبيد أيضاً قال: «رأيت سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ وهو يؤمهم في رمضان يردد هذه الآية: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾.. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] يرددّها مرتين أو ثلاثاً»^(٣).

✓ وعن يحيى بن عبد الرحمن، قال: «سمعت سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ يردد هذه الآية حتى يصبح؛ ﴿وَأَمَّا زُورُ الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]»^(٤).

✓ وعن القاسم بن أبي أيوب قال «سمعت سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ يردد هذه الآية في الصلاة بضعا وعشرين مرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ

(١) تفسير القرطبي، ج ١٦ ص ١٦٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٨٤٥٥، وعبد الرزاق في المصنف برقم ٤١٩٦،

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم ٤١٩٦، ج ٢ ص ٤٩٢.

(٤) التهجد وقيام الليل، لابن أبي الدنيا، برقم ٥٢، ص ١٥٨ - ١٥٩.

إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوفِّي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٨١﴾»^(١).

✓ وعن عبد الله بن محمد بن إسماعيل قال: «حدثني رجل من قيس يكنى أبا عبد الله، قال: بينا أنا ذات ليلة عند الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ فقام من الليل يصلي فلم يزل يردد هذه الآية حتى أسحر ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فلما أصبح قلنا: يا أبا سعيد! لم تكن تجاوز هذه الآية ساير الليلة؟ قال: إنَّ فيها معتبراً، ما ترفع طرفاً ولا تردّ إلا وقع على نعمة، وما لا نعلم من نعم الله أكثر»^(٢).

قلت: صدق والله أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ، ولو وقف القارئ يرددها مع كل نفس يتنفسه؛ ما وفّاها، يتذكّر مع كل ترادة نعمة من نعم الله، فإنها لا تحصى.

✓ وعن أحمد بن أبي الحواري أن أبا سليمان الداراني قال: «ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه والخشوع أبين من الحسن بن صالح رَحِمَهُ اللَّهُ قام ليلة حتى الصباح بـ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: ١] يرددها، مرّ بآية فيها ثم غشي عليه، ثم عاد فعاد إليها فغشي عليه، فلم يختمها حتى طلع الفجر»^(٣).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل، برقم ٢٠٠٣، وحلية الأولياء، ج ٤ ص ٢٧٢، وفضائل القرآن

للقاسم بن سلام، برقم ١٦٠.

(٢) التهجد وقيام الليل، برقم ٥٣، ص ١٥٩.

(٣) التهجد وقيام الليل، برقم ٥٤، ص ١٥٩ - ١٦٠.

✓ وعن أحمد بن سهل بن بويه الهروي قال: «كنت ألام غريماً لي إلى بعد عشاء الآخرة أو نحو هذا، وكنت ساكناً في جوار بكار بن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ، فانصرفت إلى منزلي، فإذا هو يقرأ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ.. إلى.. فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، فوقفت أسمع عليه طويلاً، ثم انصرفت، فقممت في السَّحر على أن أصير إلى منزل الغريم، فإذا هو يقرأ هذه الآية يرددها ويبيكي، فعلمت أنه كان يقرءوها من أول الليل»^(١).

وبكار بن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ هو العَلَّامَةُ الْمُحَدِّثُ قَاضِي الْقَضَاةِ بِمِصْرَ، ولذلك عاش مع آية الحكم والقضاء يتعظ ويعتبر رحمة الله عليه.

✓ وعن عمران ابن خالد الخزاعي قال: «كان هارون بن رئاب الأسدي رَحِمَهُ اللهُ يقوم من الليل للتهجد وربما ردد الآية حتى يصبح ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ويبيكي، فهو كذلك حتى يصبح، أو قال: يذهب ليل طویل، وكان إذا قام للتهجد قام مسروراً»^(٢).

✓ وقال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ اللهُ: «دخلت على أبي حَـصِين الأسدي الكوفي رَحِمَهُ اللهُ في مرضه الذي مات فيه، فأغمي عليه، ثم أفاق،

(١) معجم ابن المقرئ، برقم ٣٦٠، ج ١ ص ٣٦٠، وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء،

للذهبي، ج ١٢ ص ٥٩٩ برقم ٢٢٩.

(٢) التهجد وقيام الليل، برقم ٥١، ص ١٥٨.

فجعل يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].
قال: ثم أغمي عليه، ثم أفاق، فجعل يردها، فلم يزل على ذلك.

✓ قال: ودخلت على عاصم "ابن أبي النجود" رَحِمَهُ اللَّهُ وقد احتضر،
فجعلت أسمعته يردد هذه الآية، يحققها، كأنه في المحراب: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] (١).

✓ وعن ابن أبي عمير عن رجل من أهل مكة، قال: « صَلَّيْتُ الْعِشَاءَ
الْآخِرَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَلَسْتُ فِيهِ طَوِيلًا ثُمَّ انْقَلَبْتُ فَأَمُرُّ مِمَّا يَلِي
الظَّلَالِ الَّتِي تَلِي دَارَ النَّدْوَةِ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ قَائِمٍ يُصَلِّي وَهُوَ يُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ
﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] يُرَدِّدُهَا
وَيَبْكِي أَمْكَثْتُ لَيْلًا طَوِيلًا أَسْمَعُهُ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي فَنِمْتُ حَتَّى إِذَا
كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ، أَتَيْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا أَنَا بِالرَّجُلِ قَائِمًا وَهُوَ يُرَدِّدُ الْآيَةَ ﴿أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وَيَبْكِي، حَتَّى إِذَا قُلْتُ قَدْ طَلَعَ
الْفَجْرُ أَوْ قَرَّبَ طُلُوعُهُ؛ قَالَ: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] أ
فَجَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ مَعَهُ الصُّبْحَ فَالْتَفَتْتُ، فَإِذَا أَنَا بِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ (٢).

✓ وعن إبراهيم بن الأشعث قال: « سمعت الفضيل بن عياض

(١) المحتضرين، لابن أبي الدنيا، برقم ٢٠٣، ص ٢١١، وانظر ترجمة أبي حصين رَحِمَهُ اللَّهُ

في سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ٤١٢ برقم ١٨٢.

(٢) أخبار مكة، للفاكهي، برقم ١٣٦٠، ج ٢ ص ١٨٣.

رَحْمَةُ اللَّهِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد : ٣١] فجعل يردّد هذه الآية وهو يقول: «إني إن بلوت أخبارنا هتكت أستاذنا إني إن بلوت أخبارنا فضحتنا»^(١).

✓ وعن صالح بن سعيد المؤذن، قال: «بينما أنا مع عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بالسويداء فأذنتُ للعشاء، فصلّي، ثم دخل القصر فقلماً لبث أن خرج، فصلّي ركعتين خفيفتين، ثم جلس فاحتبى، فافتتح الأنفال فما زال يردّدها ويقرأ، كلما مرّ بآية تخويف تصرّع، وكلما مرّ بآية رحمة دعا، حتى أذنتُ للفجر»^(٢).

✓ وعن مغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة "امرأة عمر بن عبد العزيز": «كنت أسمع عمر رَحِمَهُ اللَّهُ في مرضه الذي مات فيه يقول: «اللهم! أخفِ عليهم موتي ولو ساعة من نهار»، قالت: فقلت له يوماً: يا أمير المؤمنين! ألا أخرج عنك عسى أن تغني شيئاً، فإنك لم تنم؟، قالت: فخرجت عنه إلى جنب البيت الذي هو فيه، فجعلت أسمع رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] يردّدها مراراً، ثم أطرق فلبث طويلاً لا أسمع له صوتاً، فقلت: لوصيفٍ له كان يخدمه: ويحك انظر، فلمّا دخل صاح، فدخلت عليه، فوجدته ميتاً قد أقبل بوجهه على القبلة،

(١) البيهقي في شعب الإيمان برقم ٩٦٦٨، ج ١٢ ص ٤١٧.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة برقم ٣٦٢٤٣ ج ١٣ ص ٤٦٩.

ووضع إحدى يديه على فيه ، والأخرى على عينه «^(١) .

✓ وعن معمر مؤذن التيمي قال: «صَلَّى إِلَى جَنبِي سَلِيمَانُ التَّيْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك : ١] ، قال: فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، جَعَلَ يَرُدُّهَا حَتَّى خَفَّ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فَانصَرَفُوا ، قال: فَخَرَجْتُ وَتَرَكْتُهُ ، وَغَدَوْتُ لِأَذَانَ الْفَجْرِ فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا هُوَ فِي مَقَامِهِ ، قال: فَسَمِعْتُهُ ، فَإِذَا هُوَ فِيهَا لَمْ يَجْزِهَا ، وَهُوَ يَقُولُ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك : ٢٧] «^(٢) .

وهكذا؛

فتراهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَرُدُّونَ الْآيَةَ الْوَاحِدَةَ أَوْ جُزْءًا مِنْ الْآيَةِ يَعْرِضُونَ مَعَانِيَهَا عَلَى عَقُولِهِمْ ، وَمَرَادَ قَائِلِهَا الْحَكِيمُ ﷺ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَمَطْلُوبَ تَلَاوتِهَا عَلَى نَفْسِهِمْ ، يَتَدَبَّرُونَهَا ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَدَبَّرُوهَا فَتَأَثَّرُوا بِمَعَانِيهَا !! ؛ فَمَا الَّذِي أَبْكَاهُمْ ؟ ! رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ .



(١) الزهد، لابن المبارك، برقم ٨٨٧، ص ٣٠٩ .

(٢) حلية الأولياء، ج ٣ ص ٢٩ .

المبحث الثاني

أدوات التدبّر

وأدوات التدبّر متضامنة متعاونة، لا ينفك بعضها عن بعض، ولا تستغني إحداها عن الأخرى، وهي أدواتٌ قلبيةٌ ذاتية، تقيم عود التدبّر، وتقوّم أود التذكّر، وتشدّ عضد المتفهم المتفكر، وتعين عقل المتدبّر، وتصوّب نظره وتوقظ بصيرته، وتوقف قلبه المرتبط بكتاب الله؛ المربوط بالطمأنينة؛ على ربوة ذات قرارٍ ومعين، ليحدّق بالبصر إلى مباهج الكتاب، ويدقّق بالبصيرة على مناهج الخطاب، فيستنبط غرر الأحكام ويستخرج درر المعاني، وذلك هو المطلب المرام من تدبّر كتاب الله العلام جلّ وعلا.

وأظهر أدوات التدبّر خمس، هي: التفهم، والتفكر، والتذكّر، والتأمل، والاعتبار..

ولقد رأينا عبارات الأئمة في تعريف التدبّر قد اشتملت على هذه الأدوات مما يجعل التدبّر لا يخرج عن إحداها، فالمتدبر إمّا متفهم، أو متفكر، أو معتبر، أو متذكّر، أو متأمل.

❁ الأداة الأولى: التفهم:

أمّا التفهم: فهو طلب الفهم. وزيادة التاء مع تضعيف الهاء؛ زيادة

في معنى الفهم أو تعميق له، والآخر هو الأولي في باب التدبر، فالتفهم هو عميق الفهم وأغوصه.

فالفهم في أصل الوضع والاصطلاح: تصوّر المعاني من ألفاظ الكلام، أو هو: صحة الانتقال من الملزومات إلى اللوازم^(١)، أو هو كما قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: "هيئة للإنسان بها تتحقق معاني ما يحسن"^(٢).

والتفهم إدراكٌ خفيّ دقيق للمدلولات البعيدة في وقائع الأحوال وسياقات الأقوال، وهو فوق العلم ومعرفة الحكم، وربّ العزة يخصّ به من شاء، كما خصّ نبيه سليمان دون أبيه عليهما السلام، كما في قوله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وواقعة التفهم أن رجلين تخاصما إلى نبي الله داود عليه السلام، حين دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته، ففضى داود بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، على أن قيمة الزرع كانت مثل قيمة الغنم، فدخل سليمان عليه السلام على أبيه فقال: "يا نبي الله! لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع!!"، قال: (وما هو؟) قال: "يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم ويتنفع بالبانها

(١) راجع: دستور العلماء ج ١ ص ٢٨٧، وج ٣ ص ٣٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٣٨٦.

وصوفها ونسلها، فإذا أكمل الزرع ردت الغنم إلى صاحبها، والأرض بزرعها إلى ربها"، فقال له داود عليه السلام: (وَقَفْتُ يَا بَنِيَّ)، وقضى بينهما بذلك. ووجه حكم سليمان عليه السلام: أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الزرع، وواجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان^(١).

وتفهم سليمان عليه السلام للمسألة ههنا؛ بالتنبيه إلى ما وقع من ضررٍ ومفسدةٍ على صاحب الزرع، وما فات من نفعٍ ومصلحةٍ عليه، فالواجب دفع الضرر وتلافيه، مع تعويض ما فات من المصلحة والنفع. فتلافي ما وقع من الضرر وعوض عما فات من المصلحة بما قضى لصاحب الزرع المتضرر، دون أن يضيع الغنم على صاحبها.

وبهذا حقق الفرق بالطرفين، وتلافي الضرر عن الاثنين دون اضطرابٍ لركوب أخف الضررين أو قبول أدنى الشرين. وهو فهمٌ تجاوز المعهود من الأحكام وتعدى المشهود من العلم في نظائر هذه الواقعة في الحكومات، وأشبه هذه الحادثة من الأقضية، وذلك هو التفهم الذي يقوم عليه التدبر ويتأدى بتوفيق الله وفتح.

❖ الأداة الثانية: التفكّر:

وأما التفكّر: فهو تصرّف القلب في معاني الأشياء لدرك

(١) تفسير ابن جزي الكلبي التسهيل لعلوم التنزيل ج ١ ص ١١٠٩.

المطلوب، فغاية التفكير إدراك المراد. فهو أداة تحقق التدبّر وتوفّره، إذ التفكير حقيقته: تصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبّر تصرّف القلب بالنظر في العواقب^(١).

وبهذا: فلا شك أنّ التفكير سابق في الخطو إلى إدراك المراد على التدبّر، وإن كانت غاية كليهما في القرآن إدراك المراد من خطاب الله.

وقد قيل في التفكير إنّه: "التماس الغايات من مبادئها"، وقيل: "تلمّس البصيرة واستدراك البغية"^(٢). وقيل: تصرّف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب، وسراج القلب يرى به خيره وشره ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكّر فيه؛ فهو في ظلمات يتخبّط. وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء. وقيل: التفكير تصفية القلب بموارد الفوائد. وقيل: هو مصباح الاعتبار ومفتاح الاختيار، وقيل: هو حديقة أشجار الحقائق وحديقة أنوار الدقائق. وقيل: مزرعة الحقيقة ومشرفة الشريعة. وقيل: فناء الدنيا وزوالها وميزان بقاء الآخرة ونوالها. وقيل: شبكة طائر الحكمة. وقيل: هو العبارة عن الشيء بأسهل وأيسر من لفظ الأصل"^(٣).

(١) التعريفات للجرجاني، ص ٧٦. وانظر: دستور العلماء، ج ١ ص ٢٢٥.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم، ج ١ ص ٤٤١.

(٣) التعريفات نفسه ص ٨٨.

والتفكر بقلب المؤمن هو ضياء الإيمان ونوره، وقد قال عامر بن عبد قيس رحمه الله: "سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: "إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكير"^(١).

والقلب محل التدبر، والمعاني موضوع التدبر، والمطلوب والمراد غاية التدبر، فقيام التفكير بمهمته التي عرفه بها العلماء قاطع بأن التفكير أداة التدبر، وطريقه: تصرف القلب في معاني القرآن لدرك المطلوب من خطاب الله والتحقيق بمراده من كلامه عز وجل.

والتفكر التدبري داخل في كل ممارسة للتدبر، وحاضر في كل وقفة تأمل وتفهم في آيات الله المبنية لتحصيل الحق وتمحيص الباطل لتحقيق أنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

غير أنه جاء في القرآن باديًا ظاهرًا معبرًا به تصريحًا للتفكر في أحد عشر موضعًا، فيما وقفت عليه باستقراء عام، هي:

١- التفكير القصصي في الأحوال وما لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢ ص ١٨٥.

الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦].

٢- التفكير التمثيلي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى
إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا
أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[يونس : ٢٤].

٣- التفكير التكويني الخلقي كما في قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ
الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
اثْنَيْنِ يُغِشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الرعد : ٣].
وكما في قوله سبحانه: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[النحل : ١١]. وكما
في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ.
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ
مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الروم : ٢٠ ، ٢١].

٤- التفكير التبيني، ومنه قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[النحل : ٤٤]

٥- التفكير السخيري كما في قوله جل وعلا: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ

النَّحْلَ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿النحل: ٦٨﴾ ،
٦٩]. وقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

٦ — التفكير التمييزي وهو في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

٧ — التفكير التصوري، ونجده في قوله جل وعلا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

٨ - التفكير الاستقرائي كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفًّى ثُمَّ تُنْفِرُوا مُغَرَّبِينَ وَنُقَلِّبُكُمْ فِيكُمْ لَتُقَاتِلَنَّهُ إِنَّا نَسُوقُ الْمُشْرِكِينَ لِقَوْمِهِمْ جُثثًا مَّقْطُوعَةً أَعْيُنُهُمْ وَأَصْفَادُهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سبا: ٤٦]، وفي قوله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

٩ — التفكير الواقعي الحقائق كما في قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا

يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿[الأنعام : ٥٠].

١٠ — التفكير الحِكَمِي في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٩].

١١ — التفكير الاستقصائي^(١) كما في قوله عز وجل ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢٦٦].

وأعظم التفكير، ذاك الذي يثمر تعظيم الله، ويحمل على موافقة الطاعة ومجانبة المعصية، وقد قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: "لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى؛ لما عصوه"^(٢).

❖ والأداة الثالثة: التذكّر:

وأما التذكّر-----ر: فهو تفعلُّل من الذكر، وهو ضد النسيان، ويكون بحضور صورة المذكور العلمية في القلب.

(١) راجع: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنكة، ص ٥٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٢ ص ١٨٥.

ويرى الهروي رحمه الله "أن التذكّر فوق التفكّر، لأنّ التفكّر طلب والتذكّر وجود"^(١).

ويقول ابن القيم رحمه الله: "التذكّر والتفكّر منزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكّره على تذكّره وبتذكّره على تفكّره حتى يفتح قفل قلبه، بإذن الفتح العليم"^(٢).

والقلب آلة التدبّر ومحلّه، فيفتح أقفال القلوب للتدبّر وكما قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال الحسن البصري رحمه الله: "ما زال أهل العلم يعودون بالتذكّر على التفكّر وبالتفكّر على التذكّر ويناطقون القلوب حتى نطقت"^(٣).

والتذكّر أداة موصلة إلى التدبّر بأصح الطرق وأصدق الوسائل، إذ يفتح أقفال القلوب فتزول موانع التفهم والتفكر، فيحيى القلب بآيات الذكر الحكيم.

ولذلك دعا رب العزة موسى وهارون عليهما السلام للذهاب إلى فرعون وتبليغه بليّن لينفذ القول الحق إلى القلب فيتذكّر ويخشى، والخشية من ثمرات التدبّر. وهو قوله تعالى ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

(١) المدارج نفسه.

(٢) مدارج السالكين نفسه.

(٣) مدارج السالكين، ج ١ ص ٤٤١.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿طه : ٤٣ ، ٤٤﴾. و [أو] هنا بمعنى الواو المرتبة للخشية على التذكّر أو بمعنى فاء السببية، أي التذكّر المسبب للخشية، وذلك بدليل ونظير!!..

أمّا الدليل؛ فآيات النازعات ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزْكَىٰ. وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات : ١٧ - ١٩]. فلو كان اهتدى لَخَشِيَ، ولكنه كَذَّبَ وأبى ثم عصى ﴿فَأَرَاهُ الْكُتُبَىٰ. فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [النازعات : ٢٠ ، ٢١]..

وأمّا النظير فالواو في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك : ١٠]. فأو هنا بمعنى الواو، لأنّ سماع غير العاقل لا حجة فيه، وعقل من لم يسمع لا مؤاخذه به. ولذلك فلا بدّ أن تكون [أو] هنا بمعنى الواو، فيكون المراد (لو كنا نسمع ونعقل ما كنا في أصحاب السعير).

وكذلك في قوله تعالى ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

وقوله تعالى ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر : ١٣]، لأنّ التدبّر يقود إلى الإنابة، ولا خير في تدبّر لا يثمر إنابة.

قال الهروي رحمه الله: "أبنية التذكر ثلاثة : الانتفاع بالعظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة".

والانتفاع بالعظة : "هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء،

فيتحرّك للعمل طلباً للخلاص من الخوف، ورغبةً في حصول المرجو.. والاستبصار بالعبرة: هو زيادة البصيرة بقوة الاستحضار، لأن التذكّر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكّر في مواقع الآيات والعبر، فهو يظفر بها بالتفكر، وتنصقل له، وتنجلي بالتذكّر، فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار، لأنّه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب.. والظفر بثمرة الفكرة؛ فإنّ للفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تماماً بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه^(١).

والنّاس مع التذكّر ثلاثة: "رجلٌ قلبه ميّت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا لا تنفعه ذكرى ولو سمع..

ورجلٌ له قلب حيّ مستعدّ، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إمّا لعدم ورودها أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها؛ فهو غائب القلب ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حيّ القلب مستعدّ تليّت عليه الآيات فأصغى بسمعه، وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه؛ فهو شاهد القلب، مُلقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة^(٢)، وهم

(١) راجع بتوسع: مدارج السالكين، ج ١ ص ٤٤٤.

(٢) انظر مدارج السالكين، ج ١ ص ٤٤٢.

مجموعون في قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧].

❖ والأداة الرابعة: التأمل:

وأما التأمل-----ل: فهو التثبت في النظر، على قول الخليل. ومنه قول الشاعر:

تأمل ما تقول وكنت قدماً * فطامياً تأمله قليل
والقطامي: الصَّقر، وهو مكتفٍ بنظرة واحدة^(١).

ومعناه: "تلبث في الأمر والنظر والشيء، ويكون بتدبر الشيء وإعادة النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه"^(٢).

والتأمل يتحقق به التفكير، ويقع به التبصر. وقد جاء في المعاجم: أن التفكير التأمل، وأن التبصر هو التأمل والتعرف^(٣)، وكذلك الاعتبار. وعليه، فأداة التدبر الأكثر والأصدق استعمالاً واستخدماً؛ التأمل، ولذلك نجد السعدي رحمه الله يعرف التدبر بأنه: التأمل في معانيه، ونرى الشوكاني رحمه الله يعرفه بأنه التأمل والتفكير، كما يجعل القاسمي رحمه

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ١٤٠.

(٢) راجع: المعجم الوسيط، ج ١ ص ٢٧، والتوقيف على مهمات التعاريف، ج ١ ص ١٥٦.

(٣) انظر: مختار الصحاح، ص ٧٣، ٥١٧.

الله أصل التدبّر في التأمل والنظر في أدبار الأمر^(١).

هذا تعريف التأمل في اللغة والمعنى!!..

أما التأمل المحقق للتدبّر في القرآن فهو كما يقول ابن القيم رحمه الله: "تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبّره وتعقّله".

وَمَنْ تدبّر القرآن، وأطال التأمل، وجمع منه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتّلّى في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وترى صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وترى أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه، وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتهما، وتعرّفه النفس البشرية والتي بين جنبيه وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرّفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترون

(١) راجع تعريفاتهم في أول المبحث.

وكلّ هذا متحقّق بالتأمّل التدبّري.

❖ والأداة الخامسة: الاعتبار:

وأما الاعتبار: فهو استبصار العبرة، وحقيقة العبرة العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله. واستبصار العبر إنما يكون بعبور الألباب مشاهد البصر إلى شواهد البصيرة، بالتبصّر والتفكّر والتأمّل في صور الألفاظ والمباني لتحصيل حقائق المعاني، ولعلّ ذلك هو أمر الله تعالى في الحشر ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الآية: ٢].

فمن الاعتبار؛ النظر إلى صنع الله في الذين كفروا وعاندوا وعصوا الرسول من بعد ما تبين لهم الحق مهما تحصنوا وتمنعوا عن الله ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢]. ولذلك قال ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.

ومن الاعتبار؛ النظر في حكمة الشريعة، وسنتها في مصالح الدنيا، ووجه الرحمة للعباد بها، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء، فقليل له: وما فيها من الرجاء، فقال: «

(١) مدارج السالكين، ج ١ ص ٤٥١.

الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدِّين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه «^(١)».

لذلك؛ عظماء السلف رضوان الله عليهم كانوا يرون أعظم العبادة والقربة إلى الله تعالى "الاعتبار".

فَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِأُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَيُّ عِبَادَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَتْ أَكْثَرَ ؟ قَالَتْ : التَّفَكُّرُ ، وَالْإِعْتِبَارُ^(٢).



(١) انظر: إحياء علوم الدين ، للغزالي، ج ٤ ص ١٤٧.

(٢) أخرجه النسائي في السنن برقم ١١٨٥٠، ج ١٠ ص ٤٠٤.

المصادر والمراجع

- إبطال التأويلات لأخبار الصفات، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، تحقيق محمد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية - الكويت، بدون.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- الأحاد والمثاني، لابن أبي عاصم، أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، تحقيق د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م.
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج به البخاري ومسلم في صحيحيهما، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، دراسة وتحقيق الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- الأحكام الشرعية الكبرى، عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي الخراط، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
- أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، تحقيق محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، طبعة

١٤٠٥ هـ.

- أحكام صلاة الليل والتراويح ، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مؤسسة الجريسي ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ .
- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة - بيروت، بدون.
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن عباس الفاكهي المكي ، مكتبة الأسد ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
- أخلاق العلماء، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي، قام بمراجعة أصوله وتصحيحه والتعليق عليه: فضيلة الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - السعودية.
- أخلاق حملة القرآن الكريم ، أبي بكر محمد بن الحسين الآجري البغدادي ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- الأدب المفرد بالتعليقات، الإمام البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، حققه وقابله على أصوله سمير بن أمين الزهيري، مستفيداً من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،

- الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- الأذكار للنووي، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شريف النووي، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة جديدة ومنقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- الأذكار، للنووي، أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بدون.
- أساس البلاغة للزمخشري، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام - القاهرة، الطبعة السادسة ١٤٢٤ هـ.
- الأسماء والصفات للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوِجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادى، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

- الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، طبعة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- الأعلام، للزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢ م.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- اقتضاء العلم العمل، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧ هـ.
- الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية - بيروت، طبعة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- إكمال الأعلام بتلخيص الكلام، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي

الجياي، أبو عبد الله، جمال الدين، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي،
نشر جامعة أم القرى - مكة المكرمة - المملكة السعودية، الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

■ أمالي ابن بشران، أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران
بن محمد بن بشران بن مهران البغدادي، ضبط نصه أبو عبد الرحمن
عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ
- ١٩٩٧ م.

■ أمالي المحاملي - رواية ابن يحيى، أبو عبد الله البغدادي الحسين بن
إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن سعيد بن أبان الضبي المحاملي،
تحقيق د. إبراهيم القيسي، المكتبة الإسلامية، دار ابن القيم - عمان -
الأردن، الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

■ الأمثال من الكتاب والسنة، لأبي عبد الله الحكيم الترمذي، محمد بن
علي بن الحسن بن بشر، تحقيق د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون، دار
أسامة - بيروت - دمشق. بدون.

■ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون
بن يزيد الخلال البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١،
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

■ أمراض القلب وشفائها، لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد
الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية
الحراني الحنبلي الدمشقي، المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة الثانية

١٣٩٩ هـ.

- الإيمان ، أبو عبدالله محمد بن إسحق بن محمد بن يحيى بن مندة العبدي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ .
- بحر العلوم ، تفسير السمرقندي ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ، دار الكتب العلمية ، بدون .
- بحر الفوائد المشهور بـ (معاني الأخبار) ، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- البحر المحيط في أصول الفقه ، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، دار الكتبي ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .
- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر - بيروت ، طبعة ١٤٢٠ هـ .
- البدع والنهي عنها ، محمد بن وضاح القرطبي ، دار الصفا ، القاهرة ، مصر ، ط ١ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
- البدع والنهي عنها ، لابن وضاح ، أبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي ، تحقيق ودراسة عمرو عبد المنعم سليم ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، مصر ، ومكتبة العلم ، جدة - السعودية ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة ،

عبدالفتاح القاضي، مكتبة أنس بن مالك، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

■ برنامج التجيبي، القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التجيبي البلسني السبتي، تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا. تونس، طبعة ١٩٨١م.

■ البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م.

■ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصب المعروف بابن أبي أسامة، المنتقى: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق د. حسين أحمد صالح الباكري، نشر مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

■ البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن بن حسن حبنكة، دار القلم، دمشق، سوريا، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

■ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبدالرازق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي، الناشر دار الهداية، بدون ط، بدون ت.

■ تاريخ ابن معين، معرفة الرجال عن يحيى بن معين وفيه عن علي بن

المديني وأبي بكر بن أبي شيبه ومحمد بن عبد الله بن نمير وغيرهم/
رواية أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز، تأليف أبي زكريا يحيى بن
معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المري بالولاء،
البغدادى، تحقيق محمد كامل القصار، نشر مجمع اللغة العربية - دمشق،
الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

■ تاريخ أصبهان - أخبار أصفهان، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن
إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت،
لبنان، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

■ تاريخ الإسلام وَوَفَيَاتِ الْمَشَاهِيرِ وَالْأَعْلَامِ، شمس الدين أبو عبد الله
محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق الدكتور بشار عواد
معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

■ تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب
البغدادى، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية
- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

■ تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري،
تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون.

■ التبصرة لابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن
محمد الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

■ التبيان في آداب حملة القرآن، يحيى بن شرف الدين النووي أبوزكريا محي

- الدين ، دار بن حزم ، ط ٤ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر تونس ، طبعة ١٩٨٤ م .
- تحفة الأخوذي بشرح جامع الترمذي ، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، دار الكتب العلمية - بيروت ، بدون .
- التحفة العراقية في الأعمال القلبية ، ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، المطبعة السلفية - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ .
- التذكار في أفضل الأذكار ، للإمام عبدالله بن محمد بن أحمد بن فرج القرطبي الأندلسي ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سوريا ، توزيع مكتبة المؤيد ، ط ١ ، ١٣٥٥ هـ .
- الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك ، أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ البغدادي المعروف — ابن شاهين ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م .
- الترغيب والترهيب من الحديث ، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبدالله أبو محمد زكي الدين المنذري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٣ ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

- تصويبات في فهم بعض الآيات، د صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق د. عاصم بن عبد الله القريوتي، مكتبة المنار عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.
- تعظيم قدر الصلاة، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- تفسير ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٦ هـ.
- تفسير البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق عبد الرزاق المهيدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.
- تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى -

١٤١٨ هـ.

- تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة د. محمد بن عبد الله الخضير، دار الوطن للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

- تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

- تفسير القرآن الحكيم المعروف بـ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٩٠ م.
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، المحقق: أسعد محمد الطيب، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة - ١٤١٩ هـ.

- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر

- والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله الزبير عبد الرحمن، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد ٢٠٢.
- تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- التفسير القيم، لابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- تفسير الماوردي، النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، بدون.
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.
- تفسير جزء عم مع مقدمة التفسير للشيخ محمد المبارك عبد الله، شيخ علماء السودان في زمانه، مطابع العملة بالسودان.

- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي، إشراف ومراجعة الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- تلبس إبليس، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، مطبعة المدني ، مصر ، القاهرة ، بدون .
- تهذيب التهذيب، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، نشر مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦ هـ .
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- التوبة ، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن أبي الدنيا ، مكتب القرآن للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، بدون .
- توفيق الرحمن في دروس القرآن، فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد

المبارك الحريملي النجدي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية - الرياض، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم - بريدة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

■ التوهم في وصف أحوال الآخرة، الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، بدون.

■ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

■ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

■ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلمي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة السابعة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

■ الجامع الكبير (سنن الترمذي) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، طبعة ١٩٩٨ م.

- جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، طبعة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م، ودار الفكر، مراجعة وتخريج صدقي محمد جميل والشيخ عرفات العشا، طبعة ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.
- الجامع، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشر المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق).
- جمال القراء وكمال الإقراء، لعلم الدين السخاوي، مكتبة التراث، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مطبعة المدني، القاهرة.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- خلق أفعال العباد، الإمام البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية - الرياض.

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، بدون.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت، بدون.
- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- دستور العلماء "جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمـد نكري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ذم الهوى، لابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي، بدون.
- ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

- الرقة والبكاء ، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، دار بن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط ٣ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- زاد المسير في علم التفسير ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ.
- الزهد ، لأبي داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد، أبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم وقدم له وراجعته: فضيلة الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار المشكاة للنشر والتوزيع حلوان، الطبعة: الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- الزهد والرقائق ، للإمام شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك المرزوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- الزهد، للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، وضع حواشيه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- سحر البلاغة وسر البراعة، لأبي منصور الثعالبي، عبد الملك بن محمد

بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

- السحر الحلال في الحكم والأمثال ، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون ط ، بدون ت.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، طبعة ١٢٨٥هـ.
- السنة، لابن أبي عاصم، أبي بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- سنن ابن ماجه ، عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ، دار إحياء الكتب العربية ، بدون ط ، بدون ت.
- سنن الترمذي، الإمام محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت. طبعة ١٩٩٨ م.
- السنن الصغرى (سنن البيهقي) ، البيهقي أحمد بن الحسين بن علي أبوبكر ، جامعة الدراسات الإسلامية ، كراتشي ، ط ١ ، ١٤١٠هـ - ١٠٨٩ م.
- السنن الكبرى للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر

- عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.
- سنن سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوز جاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية - الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م.
- سير أعلام النبلاء للذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكبري الحنبلي، أبو الفلاح ، حققه محمود الأرنؤوط، خرج أحاديث: عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، لابن دقيق العيد، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، مؤسسة الريان، الطبعة السادسة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- شرح السنة للبغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء محيي السنة البغوي الشافعي، تحقيق شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

- شرح النووي لصحيح مسلم، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج،
لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي
- بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ.
- شرح صحيح البخاري لابن بطلال، بن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن
عبد الملك، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ٢،
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- شرح نونية ابن القيم، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة
الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله
بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة
الثالثة ١٤٠٦ هـ.
- شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردى
الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق ومراجعة وتخريج أحاديثه د. عبد
العلي عبد الحميد حامد، ومختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد الرياض
بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣
م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد
الجوهري الفارابي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٤٠٧ هـ
١٩٨٧ م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن
حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، تحقيق

شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ
١٩٩٣ م.

■ صحيحُ ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَقَدَّمَ لَهُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ مُصْطَفَى الْأَعْظَمِي، نَشَرَ الْمَكْتَبُ الْإِسْلَامِي، الطبعة الثالثة ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

■ صحيح البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

■ صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّوْهِيبِ، الشَّيْخُ مُحَمَّدُ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِي، مَكْتَبَةُ الْمَعَارِفِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، الرِّيَاضُ - الْمَمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

■ صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت. بدون.
■ صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، طبعة ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

■ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.

■ الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة، محمد بن أبي بكر بن

أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ.

■ ضَعِيفُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

■ طبقات القراء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين أبو عبد الله، الناشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

■ طبقات القراء السبعة وذكر مناقبهم وقراءاتهم، عبد الوهاب بن يوسف بن إبراهيم، ابن السَّلَّار الشافعي، تحقيق أحمد محمد عزوز، المكتبة العصرية - صيدا بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م.

■ الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري البغدادي المعروف بابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

■ العقوبات، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.

■ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، شمس الدين

محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي، تحقيق

محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي - بيروت، بدون.

■ العلل ومعرفة الرجال، للإمام أحمد برواية ابنه عبد الله، أبي عبد الله أحمد

بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق وصي الله بن محمد

عباس، دار الخاني الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

■ العلم، لأبي خيثمة زهير بن حرب النسائي، تحقيق محمد ناصر الدين

الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

■ غاية المريد في علم التجويد، عطية قابل نصر، دار بن حزم، الرياض،

المملكة العربية السعودية، ط ٤، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

■ غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد بن سالم

السفاريني الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٧ هـ

- ١٩٩٦ م.

■ غريب الحديث، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مطبعة

العاني، بغداد، العراق، ط ١، ١٣٩٧ هـ.

■ الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء الكتب

العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١٩٧١ م.

■ الفتاوى الكبرى لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم

بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني

الحنبلي الدمشقي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ -

١٩٨٧ م.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٣٧٩ هـ .
- الفروق اللغوية ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، حققه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر .
- الفروق للقراقي ، أنوار البروق في أنواء الفروق ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقراقي ، عالم الكتب ، بدون .
- فضائل الصحابة ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، تحقيق د. وصي الله محمد عباس ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- فضائل القرآن ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ، مكتبة بن تيمية ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ .
- فضائل القرآن لأبي عبيد ، القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي ، تحقيق مروان العطية ، ومحسن خرابة ، ووفاء تقي الدين ، دار ابن كثير دمشق - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة ، لأبي عبد الله محمد بن أيوب بن الضريس ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .
- فهم القرآن ومعانيه ، الحارث بن أسد المحاسبي ، دار الفكر ، بيروت ،

لبنان ، ط ٢ ، ١٣٨٩ هـ .

■ الفوائد، لابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م.

■ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة ، مصر ، بيروت ، لبنان ، ط ٢٠٠٨ م .

■ فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦ هـ.

■ القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

■ قصر الأمل، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم - لبنان بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

■ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.

- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريـد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- كتاب المصاحف، أبوبكر بن أبي داود، الناشر الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، دار الفكر بيروت، طبعة ١٣٩٩ هـ.
- الكنى والأسماء، الدولابي، أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي، تحقيق أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ.
- لطائف الإشارات، تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري، تحقيق إبراهيم البسيوني، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب
مصر، الطبعة الثالثة، بدون.

- المتمنين ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي
الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، المحقق: محمد خير رمضان
يوسف، دار ابن حزم بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
- المجالس العشرة الأمالي، للحسن الخلال، أبي محمد الحسن بن محمد
بن الحسن بن علي البغدادي الخلال، دراسة وتحقيق مجدي فتحي
السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.
- المجالس القرآنية في تدبر السور والآيات ، د. عبد الملك القاسم ، دار
القاسم ، الرياض المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٣٥ هـ ٢٠١٣ م .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين الهيثمي ، بتحرير
الحافظين : العراقي وابن حجر ، دار الكتاب العربي بيروت، بدون.
- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
الحراني، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد
لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية،
طبعة ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.
- مجموعة القصائد الزهديات، أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد
الرحمن بن عبد المحسن السلطان، مطابع الخالد للأوفست - الرياض،
الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
- محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق

القاسمي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت،
الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

■ المحتضرين، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس
البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، دار بن حزم، بيروت
، لبنان، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

■ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب
بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق عبد السلام
عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢
هـ.

■ المحكم والمحيط الأعظم، أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده
المرسي المعروف بابن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١
، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

■ مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر عبد القادر
الحنفي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

■ مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، محمد بن نصر المروزي -
أحمد بن محمد المقرئ، دار أحاديث أكاديمي، باكستان، ط ١،
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

■ المخصص، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق
خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكلم الطيب، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
- مستخرج أبي عوانة، لأبي عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري الشهير بالحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.
- المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري، تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
- مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المشني بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث

— دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

■ مسند إسحاق بن راهويه، أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف بـ ابن راهويه، تحقيق د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان - المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.

■ مسند الإمام أحمد بن حنبل، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.

■ مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق السيد أبو المعاطي النوري عالم الكتب بيروت، بدون.

■ مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى بدأت في ١٩٨٨ م وانتهت في ٢٠٠٩ م.

■ مسند الحميدي، أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه حسن سليم أسد الداراني، دار السقا، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.

■ مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، دار المغني للنشر

- والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ ٢٠٠٠ م .
- مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي ، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي ، التميمي السمرقندي ، تحقيق نبيل هاشم الغمري ، دار البشائر بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م .
- مسند الشاشي ، الهيثم بن كليب الشاشي أبو سعيد ، ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م .
- مسند الشاميين ، للطبراني ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي ، أبو القاسم الطبراني ، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م .
- مسند الشهاب ، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيمون القضاعي المصري ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م .
- مسند الفاروق ، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ، تحقيق إمام بن علي بن إمام ، دار الفلاح ، الفيوم مصر ، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م .
- المسند ، للإمام الشافعي ، أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، طبعة ١٤٠٠ هـ .

■ مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلْإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّورِ، وَيُسَمَّى: "الْمَقْصِدُ الْأَسْمَى" فِي مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلْمُسَمَّى، لِلْبَقَاعِي، إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَمْرِ بْنِ حَسَنِ الرِّبَاطِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْبَقَاعِي، مَكْتَبَةُ الْمَعَارِفِ - الرِّيَاضِ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.

■ مَصْبَاحُ الزَّجَاجَةِ فِي زَوَائِدِ بَنِ مَاجَةٍ، أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُوصَيْرِيِّ الْكِنَانِيِّ الْمِصْرِيِّ شَهَابُ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ، الْجَامِعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، عَمَادَةُ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، ط ١، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.

■ مُصَنَّفُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، لِأَبِي بَكْرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ الْعَبَّاسِيِّ الْكُوفِيِّ، تَحْقِيقُ كَمَالِ يَوْسُفَ، مَكْتَبَةُ الرُّشْدِ الرِّيَاضِ الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤٠٩ هـ.

■ الْمُصَنَّفُ، أَبُو بَكْرٍ عَبْدِ الرَّزَاقِ بْنِ هَمَامٍ بْنِ نَافِعِ الْحَمِيرِيِّ الْيَمَانِيِّ الصَّنَعَانِيِّ، تَحْقِيقُ حَبِيبِ الرَّحْمَنِ الْأَعْظَمِيِّ، نَشْرُ الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ - الْهِنْدِ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ ١٤٠٣ هـ.

■ الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ بِزَوَائِدِ الْمَسَانِيدِ الثَّمَانِيَّةِ، لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ، أَبِي الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ، تَحْقِيقُ: عَبْر (١٧) رِسَالَةً عِلْمِيَّةً قَدِمَتْ لْجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ، تَنْسِيقُ د. سَعْدُ بْنُ نَاصِرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشُّثْرِيِّ، دَارُ الْعَاصِمَةِ، دَارُ الْغَيْثِ - السَّعُودِيَّةُ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤١٩ هـ.

■ مَعَالِمُ السَّنَنِ، لِلْإِمَامِ أَبِي سَلِيمَانَ حَمْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَطَّابِيِّ الْبَسْتِيِّ، دَارُ بَنِ حَزْمٍ، بَيْرُوتَ، لُبْنَانَ، ط ١، ١٤١٨ هـ.

- معالم السنن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية، حلب، سوريا، ط ١، ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م.
- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥ هـ.
- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء الموصل الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، تأليف إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، دار الدعوة. بدون.
- معجم بن الأعرابي، أبوسعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
- المعجم لابن المقرئ، أبوبكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم بن زاذان الأصفهاني الخازن المشهور بابن المقرئ، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، شركة الرياض للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٩ هـ

١٩٩٨ م.

■ معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي
أبو الحسين ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ
١٩٧٩ م.

■ مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة ، خالد عبد الكريم والاحم ، الناشر :
الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، المملكة العربية
السعودية ، ط ٢ ، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

■ مفاتيح الغيب - التفسير الكبير للفخر الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر
بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري ، دار إحياء التراث
العربي - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ.

■ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، أبو عبد الله محمد بن أبي
بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية ، دار عطاءات العلم ، الرياض ، المملكة
العربية السعودية ، دار بن حزم ، بيروت ، لبنان ، ط ٣ ، ١٤٤٠ هـ
٢٠١٩ م.

■ المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف
بالراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، الدار
الشامية - دمشق بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ.

■ مناقب الإمام أحمد ، لابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن
بن علي بن محمد الجوزي ، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ،
دار هجر ، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ.

- المنتحل، للثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق الشيخ أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، عزوزي وجاويش، الإسكندرية، طبعة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم، أبوزكريا محي الدين يحيى بن شريف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٣٩٢ هـ.
- الموسوعة القرآنية، إبراهيم الإبياري بن إسماعيل الإبياري، مطابع سجل العرب، طبعة ١٩٨٤ م - ١٤٠٥ هـ.
- الموطأ، الإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، نشر مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي - الإمارات، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى. بدون.
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن عبدالله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون.
- نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد، محمد مكي نصر

- الجريمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٣م - ١٤٢٣هـ.
- هداية القاري تجويد كلام الباري، عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، بدون .
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدّمه وقرّظه الأستاذ الدكتور عبد الحيّ الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.



فهرس الموضوعات

مُقَدِّمَةٌ	٥
إِلْفَضْلُ الْإَوَّلِ: حَقِيقَةُ التَّدْبِيرِ وَمَفْهُومُهُ	١١
المبحث الأول: حَقِيقَةُ التَّدْبِيرِ فِي الْأَصْلِ اللُّغَوِيِّ	١٥
المبحث الثاني: التَّدْبِيرُ فِي الْأَصْطِلَاحِ اللَّقْبِيِّ	٢٠
المطلب الأول: التَّدْبِيرُ فِي مَعْنَاهِ الْعَامِ	٢٠
المطلب الثاني: التَّدْبِيرُ فِي مَعْنَاهِ الْخَاصِّ	٢٥
المطلب الثالث: التَّعْرِيفُ الْمُخْتَارُ لِلتَّدْبِيرِ	٢٩
المبحث الثالث: التَّدْبِيرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ	٣٤
فَالجِهَةُ الْأُولَى: وَهِيَ تَدْبِيرُ الْقَوْلِ:	٣٤
وَالجِهَةُ الثَّانِيَّةُ: هِيَ تَدْبِيرُ الْآيَاتِ:	٣٨
وَالجِهَةُ الثَّالِثَةُ: وَهِيَ تَدْبِيرُ الْقُرْآنِ:	٣٩
تَمْيِيزُ التَّدْبِيرِ وَرَتْبَتُهُ عَمَّا يُشَابِهُهُ	٤٢
المطلب الأول: تَمْيِيزُ التَّدْبِيرِ عَمَّا يُشَابِهُهُ	٤٢
أَوَّلًا: بَيْنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفْسِيرِ:	٤٣
ثَانِيًا: بَيْنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّأْوِيلِ:	٤٥

- والفرق بين التأويل والتدبر من وجهين: ٤٦
- ثالثاً: بين التدبر والتفكر: ٤٧
- رابعاً: بين التدبر والاستنباط: ٤٩
- المطلب الثاني: رتبة التدبر من هذه الأشباه ٥٠
- الوجه الأول: من حيث الغرض: ٥١
- الوجه الثاني: من حيث المقصود: ٥١
- الوجه الثالث: من حيث الأصالة: ٥٢
- المبحث الخامس: في مجامع التدبر ٥٣
- الفصل الثاني: مقام التدبر وحكمه ٥٩
- المبحث الأول: في مقام التدبر وفضله ٦١
- المطلب الأول: في فضل التدبر ومكانته ٦١
- المطلب الثاني: دعوة القرآن إلى التدبر ٦٩
- ١- الدعوة الأولى: ٦٩
- ٢- الدعوة الثانية: ٧٠
- ٣- الدعوة الثالثة: ٧١
- ٤- الدعوة الرابعة: ٧٣

- ٥- الدعوة الخامسة: ٧٦
- ٦- الدعوة السادسة: ٧٧
- ٧- الدعوة السابعة: ٧٨
- ٨- الدعوة الثامنة: ٧٩
- ٩- الدعوة التاسعة: ٨٠
- ١٠- الدعوة العاشرة: ٨١
- ومن دعوة القرآن: امتداح المتدبرين وأحوالهم: ٨٢
- المطلب الثالث: دعوة السُّنة إلى التدبّر ٨٩
- المطلب الرابع: حثّ العلماء على التدبّر ٩٩
- المبحث الثاني: أهمية التدبّر والحاجة إليه ١١١
- [١] موافقة المقصود الأول للقرآن: ١١٢
- [٢] مفتاح كنوز القرآن ومعارفه: ١١٥
- [٣] مورث اليقين: ١١٧
- [٤] الصُّحبة الصادقة: ١١٨
- [٥] تحقيق النصيحة لكتاب الله: ١٢١
- [٦] القُرْبَة العليمة العليّة: ١٢٣

- [٧] الدُّرْبَةُ عَلَى تَفْهَمِ الْقُرْآنِ: ١٢٥
- [٨] سَبِيلُ الْإِتْعَازِ وَالْإِعْتِبَارِ: ١٢٨
- [٩] طَرِيقُ التَّخْلِيَةِ وَالتَّحْلِيَةِ: ١٣٣
- [١٠] مَاءُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ: ١٣٦
- المَبْحَثُ الثَّالِثُ: فِي حُكْمِ التَّدْبِيرِ ١٤١
- أَمَّا الْمَذْهَبُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ مَذْهَبُ الْوَجُوبِ: ١٤١
- وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي: مَذْهَبُ الْإِسْتِحْبَابِ وَالنَّدْبِ: ١٤٧
- وَالْمَذْهَبُ الثَّالِثُ: مَذْهَبُ الْمَنْعِ مِنَ التَّدْبِيرِ: ١٤٩
- الرَّاجِعُ فِي حُكْمِ التَّدْبِيرِ: ١٥٠
- الْحَالَةُ الْأُولَى: ١٥٠
- وَالْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ: ١٥٤
- وَالْحَالَةُ الثَّالِثَةُ: ١٥٦
- تَوْجِيهِ نَصُوصِ ذَمِّ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّدْبِيرِ: ١٦٣
- أَوَّلًا: ١٦٣
- ثَانِيًا: ١٦٤
- ثَالِثًا: ١٦٥

- رابعاً: ١٦٦
- خامساً: ١٦٧
- سادساً: ١٦٨
- سابعاً: ١٧٠
- ثامناً: ١٧١
- ترك التدبّر أقلّ أحواله الكراهة: ١٧٣
- الفصل الثالث: ثمرات التدبّر وفوائده ١٧٩
- مما قيل في فوائده وثمراته: ١٨١
- منشورات من الفوائد والثمرات: ١٨٨
- [١] تحصيل البركة الشاملة: ١٨٨
- [٢] تحقيق الوصال بين القلب والقرآن: ١٨٩
- [٣] اليقين بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: ١٩٢
- [٤] أجمع الطرق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله: ١٩٣
- [٥] التخلّق بأخلاق القرآن: ١٩٥
- [٧] مزيد العلم والإيمان: ٢٠٥
- [٨] وصول مراتب اليقين: ٢٠٧

- ٢٠٩..... [٩] التعلّق بكتاب الله:
- ٢١٥..... [١٠] الأمن من فزعات الآخرة:
- ٢٣٥..... الْفَضْلُ الرَّابِعُ: معينات التدبر وأدواته
- ٢٣٧..... المبحث الأول: مُعِينَاتُ التَّدْبِيرِ
- ٢٣٩..... الْمُعِينُ الْأَوَّلُ: إحسان الاستماع
- ٢٤٢..... استماع أهل المعرفة والتوفيق:
- ٢٤٦..... استماع الجنّ وانتفاعهم وتدبرهم:
- ٢٥٠..... استماع النبي صلى الله عليه وسلم وتدبره:
- ٢٥٥..... استماع السلف وتدبرهم:
- ٢٥٨..... مسدّات استماع التدبر:
- ٢٥٩..... المسدّ الأول: الإعراض الاختياري:
- ٢٦٠..... المسدّ الثاني: التّلاغي والتشويش:
- ٢٦١..... المسدّ الثالث: شراء الضّلال:
- ٢٦٢..... المسدّ الرابع: الإصرار الاستكباري:
- ٢٦٣..... المسدّ الخامس: التّناجي الظلوم:
- ٢٦٤..... المسدّ السادس: الصّمم العقلي:

- المُعِين الثاني: التَغْنِي وتحسين القراءة ٢٦٧
- حَثَّ الشَّرْع على تَغْنِي القرآن: ٢٦٨
- تحفيز النبي صلى الله عليه وسلم أُمَّتَهُ على التَغْنِي: ٢٧٢
- تحفيز النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى: ٢٧٥
- تحفيز النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لابن حضير: ٢٧٦
- مَحَقَّقَاتُ التَغْنِي بِالْقُرْآن: ٢٧٨
- أهل التَغْنِي بِالْقُرْآن من السلف: ٢٨٨
- نصيحةُ الآجِري لأهل التَغْنِي بِالْقُرْآن: ٢٩٧
- مفسدات التَغْنِي بِالْقُرْآن: ٢٩٨
- المُعِين الثالث: التَّرتِيل ٣٠٣
- حقيقة الترتيل ومفهومه: ٣٠٣
- مقصود الترتيل: ٣٠٦
- دعوة القرآن إلى الترتيل: ٣١٢
- دعوة السنّة إلى الترتيل: ٣١٦
- مَحَقَّقَاتُ ترتيل التدبّر: ٣٢٢
- الأمر الأول: الترسل والتمهّل والتؤدة: ٣٢٢

- الأمر الثاني: تجويد القراءة: ٣٢٧.....
- الأمر الثالث: إيقاع القراءة في القلب: ٣٢٩.....
- الأمر الرابع: الوقف في موضع الوقف: ٣٢٩.....
- الأمر الخامس: القراءة على المنازل وتمثيل المعاني: ٣٣١.....
- الأمر السادس: المعاشة والتحقق بأحوال المعاني: ٣٣٤.....
- الأمر السابع: التلبس بمقامات التلاوة: ٣٣٥.....
- المُعِين الرَّابِع ٣٣٨.....
- التَّرْدَادُ وَالتَّكْرَارُ ٣٣٨.....
- الترداد والتكرار عند النبي صلى الله عليه وسلم: ٣٤٣.....
- الترداد والتكرار عند الصحابة رضي الله عنهم: ٣٤٥.....
- الترداد والتكرار عند التابعين وتابعيهم: ٣٤٨.....
- المبحث الثاني: أدوات التدبُّر ٣٥٦.....
- الأداة الأولى: التفهُّم: ٣٥٦.....
- الأداة الثانية: التفكُّر: ٣٥٨.....
- والأداة الثالثة: التذكُّر: ٣٦٣.....
- والأداة الرابعة: التأمل: ٣٦٧.....

والأداة الخامسة: الاعتبار: ٣٦٩

المصادر والمراجع ٣٧١

فهرس الموضوعات ٤٠٧

